الدكتور حسين فوزى النجار

أرض الميعاد

دراسة علمية للوعد الإلهى لبنى إسرائيل
بأرض الميعاد على ضوء الكتب السماوية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

إهـــداء

إلى الأخ والصديق والأستاذ
السيد الفريق ا . ح محمد إبراهيم

ذكرى سنوات خدمت معه وتتلمذت عليه
فكانت أطيب سنى العمر

المؤلــف

تقديم

بقلم

الفريق ا . ح محمد إبراهيم

وزير الدولة للشئون الحربية

قدّم إلىّ الدكتور حسين فوزى النجار – مشكورًا – مؤلفه هذا الذى كرّمنى بإهدائه إلى ، وقد اعتدت أن أتلقى منه مؤلفاته العسكرية والتاريخية التى كانت خير وسيلة لى للقراءة والاطلاع عندما كان يعزّ على إشباع رغبتى لضيق الوقت .

وإنى أعرف الدكتور حسين فوزى النجار ، منذ عمل معى أستاذًا للتاريخ بالكلية الحربية ، باحثًا مدقّقا ، يقبل على البحث والمعرفة ويطيل النظر والتأمل حتى تتكشّف له الحقيقة ؛ لذلك كانت كتبه بحوثًا جديدةً لم يطرقها باحث من قبل .

ويسرنى أن أقدم لكتابه هذا – أرض الميعاد – فقد طرق به موضوعًا لم يطرقه على ما أعلم أحد من قبل ، وطالما وددت وألححت على الكثيرين أن يطرقوه ، فهو موضوع اليوم بالنسبة للعالم العربى ، فقضية فلسطين هى قضية كلّ عربى ، هى كفاح بيننا نحن العرب وبين جماعة من شذاذ الآفاق دعوا أنفسهم بالصهيونيين ، وهى صراع علينا أن نخوضه بمثلنا وأعرافنا وتقاليدنا وتراثنا الزاخر بالكرامة والمروءة وبين تراثهم الملىء

بالترات والحقد والأنانية والكراهية التى عرفت عن اليهود للإنسانية منذ القدم . هى كفاح القومية العربية للصهيونية العالمية . ذلك الكفاح الذى اختلف مسرحه باختلاف الأزمان والأوقات ، فهو تارة فوق أرض فلسطين العزيزة فى شكل قتال بين العرب والعصابات الصهيونية ، وتارةً فوق سيناء وعلى ضفاف القناة فى شكل العدوان الثلاثى الغادر ، وثالثةً فى ميادين السياسة سواء فى الجمعية العامة للأمم المتحدة أو فى مجلس الأمن .

وللصهيونية فى هذا الصراع سبل شتّى وأساليب عديدة ، فهى تارة علنية سافرة وأخرى خفية مستترة إلاّ أنها فى كلا الحالين تقوم على خطط مدروسة ببحث وعمق وتروٍّ ، تنفذها هيئات صهيونية تعلن عن أغراضها فى القليل النادر ، وفى الأغلب الأعم تضطلع بها جمعيات أو جماعات تبدو فى ظاهرها أبعد ما تكون عن الحركة الصهيونية ولكنها فى واقعها وأهدافها صهيونية الميول والدوافع .

وكثيرًا ما تتصل تلك الجمعيات أو الجماعات بحركات وطنية أو قومية أو استقلالية لتسخرها لنفسها فى النهاية فهى لا تبغى من الاتصال بها غير إثارة الشك وبثّ الوقيعة وبذر الفتنة وهدم القيم الأخلاقية فى الأمم التى تخشى منها على وجودها وكيانها ، بل إن هذه الجمعيات والجماعات كثيرًا ما تعمد إلى خلق نوع من الطابور الخامس يؤيد الصهيونية وأهدافها فى الدول المختلفة ، ويحمل على القومية العربية ويدس لزعمائها وقادتها .

وقد أسعدنى الحظ أن أكون أحد خدّام القضية العربية عندما وليت منصب الأمين العام المساعد العسكرى لجامعة الدول العربية ، ولمست وسائل الصهيونية وألاعيبها الشيطانية ومتاعب الخطط العربية لمكافحتها ، حتى قيّض الله العلى القدير للعروبة حاميها وناصرها ، زعيمنا ورئيسنا وقائدنا جمال عبد الناصر ، فغدت القومية العربية حقيقة ملموسة

وقوّةً فعالةً يحسب حسابها فى كلّ مجال ، وأصبحت تحت راية رائدها تضطلع بالدور الرئيسى فى كفاح الصهيونية العالمية ..

وكفاحنا للصهيونية متعدّد الجوانب كما هو متعدّد الميادين ، وقد رأينا كيف دارت المعركة بيننا وبينها فى ميادين مختلفة ، فهو كفاح فكرى يتخذ العلم وسيلةً لغاية ، وهو كفاح دعائىّ يسلك كلّ سبل الدعاية من صحافة وإذاعة وخطابة وندوات ومؤتمرات ، وهو كفاح نفسىّ ، يقوم الاستهواء واستثارة العواطف فيه بدور بارز .

وكتاب الدكتور النجار – أرض الميعاد – من هذا الطراز من الكفاح الفكرى ، فإنه يعرض لأخطر جانب من جوانب الحركة الصهيونية وهو الجانب الدينى فيثبت بما لا يدع مجالا للشك خطأً ذلك الوهم الكبير الذى أوغل به اليهود فى نفوس البشر من أهل الكتاب فاسترقّهم وعاشوا عبيدًا لخرافة كبرى وهى أن فلسطين هى أرض اليهود الموعودة وأن اليهود هم شعب الله المميز ، بما عاهد الله إبراهيم عليه ، ويبرز كيف أوغل اليهود طوال تاريخهم فى ادّعاء فلسطين ادّعاءً يضفون عليه من القداسة ما يرونه لإبراهيم من قداسة فى الأديان السماوية فيغررون بالناس ويغرقونهم فى الوهم الذى يكشف عنه الدكتور النجار فى كتابه هذا حين يردّ الحقائق إلى أصولها التاريخية والدينية ويثبت ضلال اليهود وزيفهم وخداعهم حين احتكروا لأنفسهم كلّ إرث إبراهيم وأنكروا أنهم أصبحوا شرّ أبناء إبراهيم بعد ما رماهم الله بالعذاب والتشريد وجعلهم سخرية الشعوب فحقّت عليهم اللعنة التى وعدهم بها ربّ إبراهيم إذا ما خالفوا وصاياه وضلّوا شريعته .

وقد عشت فى تلك الأجواء التاريخية البعيدة التى أثارها الدكتور النجار فى كتابه منذ عصر إبراهيم عليه السلام حتى اليوم وتجلّت لى من خلال هذا التاريخ البعيد خطط الصهيونية الحاضرة ، فإن اليهود لم يتغيروا كثيرًا بل

إنهم يعيدون الأدوار التى لعبها من قبل آباؤهم وأجدادهم ؛ لذلك كانت الصهيونية فى واقعها الحاضر ، قصة الماضى من تاريخ اليهود ، حين تعيد فصول التاريخ وتكررها فى مختلف العصور بثوب جديد يتمشى مع ظروف كل عصر ولكن المبادئ هى هى لا تتغير والأساليب هى هى لا تتبدل ، والأكاذيب هى هى لا تتجدّد ، وعلى ذلك فلن نجد صعوبة فى التعرف على خطط الصهيونية المستقبلة بالكشف عن خطط كفاحها السرى والعلنى معًا .

ونحن الآن فى موقف الطبيب الذى يفحص العلّة ويتقصّى الداء حتى يصف العلاج الناجع والشفاء العاجل ، وهذا الكتاب – أرض الميعاد – أشبه ما يكون بمعمل التحليل أو جهاز الأشعة الذى يكشف به الطبيب عن مواطن الداء فيسهل عليه تشخيص المرض ووصف العلاج . فقد كشف عن أكاذيب الصهيونية ودحض تلك الخرافة التى أثارها اليهود وجمعوا المخدوعين حولها ودعوها أرض الميعاد ، وبيّن كيف كان الإسرائيلىّ فى ماضيه كما هو فى حاضره خائنًا غادرًا نهّازًا للفرص يستخدم أحطّ الأسلحة وأحقرها ولا يتورّع عن استخدام الذهب والنساء والخداع والختل والخيانة لتحقيق غرضه ، بما لا يدع مجالاً للاطمئنان إليه ، فقد آوينا يوسف عليه السلام رقيقًا ورفعناه إلى أكبر المناصب وفتحنا بلادنا لليهود ليغترفوا من خيراتها فماذا كانت نتيجة البرّ والمعروف ، إلّا نكران البرّ والمعروف ، حتى أنهم لم يتورعوا عند خروجهم من مصر مع موسى عليه السلام عن سلب أمتعة المصريين وذهبهم ، وقد أبرز الكتاب الشيء الكثير من أخلاقهم وسلوكهم بما لا يدع زيادةً لمستزيد أو يحتاج فى دقّته إلى تدليل أو تمحيص .

وتاريخ الصهيونية حافل بالغدر والخيانة ، وقد تعجب إذ تراها تناصر كلّ حركة تقدّمية ولكنها فى الواقع تتطفل عليها لتوجهها لمصلحتها

وتستغلّها لفائدتها فإذا استعصت عليها انقلبت ضدّها فهى التى ناصرت البروتستانتية فى ألمانيا ثم انقلبت على ألمانيا وغدرت بهتلر كما غدرت من قبله بالقيصر ولهلم الثانى ، وهى التى آزرت الشيوعية وأيدتها لتستغلّها فى تحطيم الأديان وليكون لها من الدول الشيوعية سندًا ونصيرًا كما حدث حين سلّح الشيوعيون العصابات الإسرائيلية خلال الجولة الأولى لحرب فلسطين عام ١٩٤٨ .

وهى التى تغلغلت فى الأحزاب الإنجليزية وسيطرت على المصارف العالمية واستغلّت حاجة الحلفاء إلى المال اليهودى لتحصل على وعد بلفور . وحين أخطأ الأمريكيون من قبل وسمحوا لليهود بالهجرة إلى بلادهم وأفسحوا لهم من ميادين العمل والمساواة ، تغلغل اليهود فى بلادهم وتسربوا إليها فى أفواج منظمة وسرعان ما سيطروا وهم فئة قليلة على اقتصادياتها وألوان نشاطها المختلفة وسخّروها لخدمة الصهيونية وخلق إسرائيل ومؤازرتها فى كلّ مجال دولى .

إن إسرائيل تنفّذ خطتها التقليدية والقديمة وكما عادت من بابل فى شكل زحف عسكرى منظم نراها تعود اليوم إلى فلسطين قوّةً عسكريةً تقوم على العنف والإرهاب والقتل والاغتصاب .

وكما عاد اليهود من السبى البابلىّ بعد الحروب التى انتصر فيها حليفهم كورش ملك الفرس على أعدائه فى حمى الحراب الفارسية ، نراهم اليوم وبعد ثلاثين قرنًا يعودون فى حمى حراب الحلفاء قوةً عسكريةً تدربت فى شتى ميادين القتال التى خاضها الحلفاء بجيوشهم فى الحربين العالميتين الأولى والثانية . كلّ هذا ودافع اليهودى هو تلك الخرافة الدينية التى علقت بذهنه وكانت سرّ نكبته وستكون بعينها القاضية عليه الآن فلم يعد هناك مجال لقيام دولة تقوم على التعصب الدينى والعنصرى .

وكما كانت نهاية مملكة إسرائيل القديمة فستكون نهاية إسرائيل الجديدة

الدمار والتشرّد ، ولن تقوم لإسرائيل قائمة فهذا وعد الله الحق ألا تكون لهم دولة جزاء ضلالهم وخروجهم على طاعته ، وإذا كان القدر قد قيّض للعرب زعيما ينادى بالقومية العربية ، فإن بعث هذه الدعوة فى ذلك الوقت بالذات يبدو كأنه دعاء القدر حتى لا تقوم إسرائيل ولا تحقق أحلامها الخبيثة بفضل اتحادنا وتضامننا وقوّتنا الجديدة .

إلّا أن علينا نحن العرب ونحن نرى الصهيونية تعمل جاهدةً لبناء إسرائيل وفق خطط مدروسة وتستند إلى وسائل تتغلغل فى شتّى المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية ، علينا نحن العرب أن نوحّد جهودنا لخدمة القومية العربية ملتفّين حول جمهوريتنا الفتيّة وزعيمها الكبير .

وإنى لأشكر الدكتور حسين فوزى النجار الذى نحا هذا النحو الفريد فى الكشف عن خرافة استبدّت ببعض الأفكار زمنًا والكشف بذلك عن أكاذيب إسرائيل وخططها وأساليبها التقليدية ، وأدعو الله أن يكثر من أمثاله وأن يديم عليه التوفيق والسداد فى خدمة العروبة .

فريق ا .ح

محمد إبراهيم

وزير الدولة للشئون الحربية

مقدمة الطبعة الثانية

صدر هذا الكتاب فى طبعته الأولى آخر الخمسينيات ، ولم يلق ترحيبا من الدوائر الحكومية حينذاك ، وكانت موجة المدّ الشيوعى تجتاح البلاد وعلى رأس الحكومة رجل عرف بميوله الماركسية ، ولم أدر علّة ذلك ولا سببه ، وكان ذلك إثر عودتى من أمريكا فى رحلة اشتركت فيها مع أستاذى المرحوم حسين كامل سليم فى الدعاية للقضايا العربية وعلى رأسها قضية فلسطين وكنت متّهما فى أوساط الشيوعيين بميولى اللاماركسية ، ولعلّ ذلك هو ما دعانى إلى أن يقدم للكتاب الفريق ا . ح محمد إبراهيم(رحمه الله) وكان وقتها وزيرًا للحربية ، عملت معه من قبل سنوات رئيسًا لمادة التاريخ القومى بالكلية الحربية وكان كبير معلميها عرفت فيه من النبل والصدق والعلم والتقدير ما جعل الودّ بيننا خالصًا وصادقًا ، حتى أنه صباح ٢٣ يوليه ١٩٥٢ ، وقد رأى القائمون على حركة الجيش التى أودت بالنظام القديم أن يلزم كبار الضباط ممن لم يشملهم التحفظ فى الكلية الحربية ، دورهم فلا يبرحونها ، وقد لزم الأميرالاى (العميد) محمد إبراهيم داره ، فزرته يومها رغم التحذير ، وكنت الوحيد الذى زاره ، ولكن القائمين على الحركة رأوا أن ينتفعوا بقدراته وكفاءته وخبرته العسكرية وعلمه وكان من القلّة التى أتمت دراستها العسكرية فى « ساندهرست » ثم فى كلية أركان الحرب بكمبرلى فى إنجلترا ، فتولّى رئاسة هيئة الأركان ثم وزيرًا للحربية حتى اختير سفيرًا لمصر فى المجر ، وكان قد زكّانى للعمل بجامعة الدول العربية فعملت بها سنوات قائمًا على

إدارة الإعلام وكانت يومها تسمى « إدارة الاستعلام والنشر » .
وقد قدّم للكتاب هذا التقديم الذى أعتز به وأبقى عليه ، وبرغم ما قمت به من جهد فى الدعاية للقضايا العربية ، لم أنج من ملاحقة المباحث والمخابرات ، وكانت تأتينى أخبار تلك الملاحقة التى تتابعت بعد إصدار هذا الكتاب عن طريق زملاء أعزاء وضباط يكنّون لى كثيرًا من الودّ منذ كانوا طلابًا بالكلية الحربية ، وإن كانت قد أضنتنى فإنها لم تحرك منى ساكنًا منذ ابتعدت عن حركة الجيش وأربابها ، فلم أشترك فى أى تنظيم سياسى من التنظيمات التى أقامتها واحدًا بعد الآخر .
والواقع أننى كنت أرى البلاد تتردّى فى سياسات لا يعلم إلّا الله مداها ، وإن كنت أراها تقود إلى البوار ، فآثرت الابتعاد دون أن يقضى ذلك على ما بينى وبينهم من ودٍّ وسند عرفته يوم كانت تلمّ بى لائمة من حثالات هيئة التحرير والاتحاد القومى والاتحاد الاشتراكى ممن تعلّقوا بأذيال الثورة طلبًا للسلطة والجاه ولم يؤمنوا بمبادئها ، وأذكر من ذلك ما كان من تجمّع نوّاب مجلس الأمة ورجال الاتحاد الاشتراكى فى محافظة بنى سويف ، وكنت وقتها مديرًا للتعليم بالمحافظة وحلت بينهم وبين التدخل السخيف فى شئون التربية والتعليم ، وأدّى بهم أحيانًا إلى المرور على المدارس والتفتيش على الفصول والتحكم فى النظار ومديرى المراحل الدراسية ، فذهبوا يشكوننى إلى « السيد عبد المحسن أبو النور » وكان وقتها أمينًا للاتحاد الاشتراكى ، فطردهم شرّ طرد ، وعلمت بما حدث من غيره . ولم يكن لأمر يصدر من القائمين على الاتحاد الاشتراكى فى المحافظات أن يردّ ، وكم نقل الكثيرون من مديرى التعليم بطلب من الاتحاد الاشتراكى ، وأذكر من بينهم مديرًا فاضلًا وأستاذًا عالمًا من أوّل مبعوثى مدرسة المعلمين العليا إلى إنجلترا لاستكمال الدراسة هو المرحوم « متولى بدوى » وكان رفيقًا فى بعثته للوزير والسفير العالم الفاضل

« أحمد نجيب هاشم » وقضى الرجل السنوات الأخيرة من خدمته بلا عمل فى الوزارة بعد أن نقل عسفًا من محافظة الفيوم ثم من محافظة السويس بأمر من سلطات الاتحاد الاشتراكى فى المحافظتين .

وكانت سنوات عجافًا فى حياتى الوظيفية المتباينة منعت فيها من السفر إلى الخارج مرارًا يوم عينت أستاذًا بجامعة ولاية نيويورك ويوم طلبت جامعة بنغازى إعارتى أستاذًا بها ، وحيل بينى وبين الكتابة فى الصحف السيّارة إلاّ ما كنت أنشره من كتب لا سلطان لمن يقفون دونى عليها . وما أحببت أن أشكو إلى المرحوم جمال عبد الناصر أو غيره ، ولو شكوت لزال عنى العسف فقد سيطر على الحكم حينذاك وعلى أجهزة الإعلام رجال لهم اتجاهاتهم الفكرية والسياسية التى لا أدين بها ولا أحبها وهم يعرفون ذلك عنى ، وكان أكثرهم من المأجورين والمنتفعين وأصبح لهم هيل وهيلمان ، وياويل من تصدّى لهم .

وكم كانت دهشتى لما أثاره هذا الكتاب من حفيظة تلك الحثالة ، وإن طاش سهمهم حين أدركوا أنهم قاصرون دونه ، فسكتوا عنه وإن حالوا دون التنويه به أو الإشارة إليه أو توزيعه فى مصر ، فلم تقتنه مؤسسة أو وزارة ، حتى أن وزارة التربية والتعليم أغفلته ولم يكن له مكان فى مكتباتها العديدة فى الوقت الذى ابتاعت منه هيئة التحرير الفلسطينية المئات وابتاعت الجزائر وحدها خمسمائة نسخة واقتنى قطاع غزة ثلاثمائة نسخة ابتاعها القائمقام أحمد عطية المشرف على الأمن العسكرى فى القطاع حينذاك ونفدت نسخ الكتاب فى وقت قصير ولم أفكر فى إعادة طبعه حتى رأت دار المعارف مشكورة أن تعيد نشره .

وقد اهتديت إلى هذا البحث بعد جولتى فى القارة الأمريكية للدعوة العربية فقد رأيت القوم يؤمنون بتفسير خاطئ لآيات الكتاب المقدس عن الوعد الإلهى لإبراهيم عليه السلام بتلك الأراضى المقدسة ، وهو إيمان

نابع من الفكر البروتستنتى بعودة اليهود إلى فلسطين حتى يهتدوا إلى المسيحية والخلاص الأخير ، وَوجدت الصهيونية فى العالم البروتستانتى ما لم تجده فى العالم الكاثوليكى حين قدم البروتستانت التوراة على الإنجيل واتخذوا منها زادًا لعقيدتهم منذ حركة لوثر وكلفن فى الإصلاح الدينى المسيحى ؛ ولذلك بقيت الفاتيكان لا تعترف بإسرائيل وبقيت الدول الكاثوليكية كأسبانيا والبرتغال تقفل دونها الأبواب ، وكانت محاولات إسرائيل العديدة فى الفاتيكان ليصدر البابا ما يبرئ اليهود من تهمة صلب المسيح عليه السلام . ويقصّ السفير محمد التابعى فى « مذكرات سفير » التى صدرت عن دار المعارف أخيرًا ، خبر المحاولات العديدة التى قامت بها إسرائيل فى هذا الصدد وكان سفيرًا لمصر بالفاتيكان فى تلك الفترة ، كما كان له دوره البارز فى العمل على إحباطها ، حتى أنذر بالاغتيال من جانب الهيئات الصهيونية ، فلم يأبه لها واستمر فى محاولاته ، حتى صدرت الوثيقة بما لا يبرئ يهود العهد القديم من دم المسيح ولا يدين يهود اليوم بتبعة أسلافهم - وكان ذلك كسبًا حقيقيًّا للسفير التابعى جديرًا بالتنويه ، فلم يكن غيره وغير سفير لبنان للتمثيل السياسى العربى لدى الفاتيكان .

ومهما قيل أو يقال عن أطماع إسرائيل السياسية أو الاقتصادية أو الإقليمية ، وإن كان ذلك مما تؤكده طبيعة الدولة ، فإن الدولة ذاتها قامت على نبوءة دينية صاغها اليهود على هواهم واجتمعوا حولها ودانوا بها حتى قيل إن اليهود شعب صنعته التوراة ، مما حمل « هـ . ج . ويلز » على السخرية بهم ، حين يقول فى كتابه « مختصر تاريخ العالم » : إن ربّ إبراهام وعده وأولاده بهذه الأرض البسامة ذات المدن الغنية وإن اليهود لم يصنعوا التوراة ، وإنما التوراة هى التى صنعت اليهود » ويقول ؛ « كان اليهود يؤمنون بأن الله الرب الأحد للعالم أجمع ، كان رب بر وصلاح ،

ولكنهم كانوا يقولون أيضًا إنه ربّ تاجر ، أبرم مع أبيهم إبراهام صفقة جدّ رابحة لصالحهم يتعهّد لهم فيها أن يرقى بهم فى النهاية إلى سيادة العالم .. حتى جاء المسيح لينكر عليهم ذلك » ويعلم الناس أن الله ليس رب صفقات وأن لا شعب مختار .. وأن الناس جميعًا إخوة » ..

ومازال اليهود ينشدون معالم هذه النبوءة ، فهى العقيدة أولاً فيما يدعونه لأرض ميعادهم كما يقولون ، يعلنونها ولا يدارونها ويدوّنونها على سجف معابدهم وكنيستهم ، وهى القدوة فيما كان يهود العصر القديم يصنعونه من أجلها مهما لجّت فى الخيال وابتعدت عن الواقع ، فإذا لم يكن لهم فى يوم من الأيام ملك يطاول هذه النبوءة ، فإنها مازالت تسعى بهم إليها . فأخذوا يحيون معالمها ، ويقولون إنهم فى يومهم هذا يواجهون ما واجهه أسلافهم فى العهد القديم ، فيقول أستاذ فى الجامعة العبرية بأن « جنود إسرائيل قد ألقوا بأبصارهم على البحر الأحمر بعد حرب ١٩٦٧ ، لأول مرة بعد أن عبره موسى لآلاف خلت من السنين » وحاول بعض الحاخامات اليهود أن يفسّروا معارك ١٩٦٧ على ضوء ما جاء فى العهد القديم عن معارك العبرانيين ، ويبرر بن جوريون الطابع العسكرى للمجتمع الإسرائيلى ، فيقول : « إن جنود موسى ويوشع وداود عاشوا فى حروب متصلة وكذلك يبقى صهيون فى حرب دائمة وراح بعض الكتّاب العسكريين فى إسرائيل يقارنون بين فرسان داود وسليمان ودبابات حاييم لاسكوف وإسرائيل طال ، وبين معارك جدعون ومعارك ديان ، بل إن النظرة الإسرائيلية للصراع الإسرائيلى العربى ، هى أنه استمرار للصراع القديم بين العبرانيين والمصريين والآشوريين والبابليين والكنعانيين .

ومازالت الصهيونية تعيش فى أحلام الماضى تستعيده فى أحلام اليقظة غافلةً عن حركة التاريخ ، وهى الغفلة التى أودت بهم من قبل وتدفعهم إلى الهاوية اليوم ، فالتاريخ لا تصنعه حقبة ولكنه مأثرة حقب تتراكم

لتقف بالأحداث عند حدودها الفاصلة ليكون لها الحكم الأخير ، ولكن محنة اليهود أنهم يصوّرون التاريخ على هواهم ، يستلهمون الأسطورة ويجردونها من الواقع ويعيشون فى أحلامها ، ومازالت الأسطورة تلحّ بهم فى متاهات الخيال حتى تودى بهم فى النهاية . ففى هذا العالم الجديد لا مكان للعنصرية ولا للتعصّب الدينى .

وإن بقيت نبوءة الميعاد تصفع عقول المجتمع الصهيونى فإن هذه النبوءة إن صدقت فهى لأبناء إسماعيل دون أبناء إسحاق ، وإذا كان لنا أن نؤمن بالله وكتبه ورسله ، وما جاء به إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام أجمعين من نبع واحد ، فإن علينا أن نرى مصداق النبوءة إذا سلمنا بها . وقد كان لهذه النبوءة - كما تناولها البحث - صداها فى المجتمع الأمريكى البروتستنتى وهو ما حملنى على هذه الدراسة منذ ربع قرن بعد أن لمستها فى تجوالى بتلك البلاد خلال الخمسينيات وها هى دار المعارف تقدمها من جديد حتى يتبيّن الحق من الباطل ، وإن كانت الصهيونية لا تذكر عنها الكثير فى الوقت الحاضر فى ندواتها الإعلامية فى الخارج وإن بقيت تلحّ عليها فى المجتمع اليهودى ، حتى لا تجتاحه أفكار العالم الجديد عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية ، فإذا كان العالم الأوربى والأمريكى قد تقبّل أن يكون لليهود وطن ودولة ، ليتخلّص منهم فى أرضه ، فإنه لا يقبل أن يكون ذلك على حساب الغير ، وأذكر من ذلك حديثًا على مأدبة غذاء فى « سان أنطونيو » تكساس أهبت فيه بالضمير الأمريكى أن يردّ اللاجئين الفلسطينيين إلى أراضيهم فليس مما يقبله الضمير الإنسانى أن يذبح الفلسطينيون ويشرّدوا من بلادهم وردّت سيدة مسيحية تعمل فى شركة يهودية لتقول : وماذا فى ذلك فهذا ما فعلناه بالهنود الحمر . ووجدتها فرصةً للحديث عن سماحة العرب وارتقائهم الحضارى بالمقارنة بالوحشية والتخلف الحضارى الأمريكى ،

وإذا كان النازحون الأوربيون إلى أمريكا قد أبادوا الهنود الحمر واستذلوا السود فإن العرب فى انسياحهم الظافر فى صدر الإسلام قد تركوا لأبناء البلاد التى فتحوها حريّتهم الاجتماعية والدينية وعاشوا معهم وأصهروا إليهم ، ويبقى على أمريكا أن تتعلم هذا الدرس من العرب ، وقد عاش اليهود بيننا أحرارًا وكان لهم من الحقوق ما للمسلمين ووصل كثيرون منهم إلى أرفع المناصب فى الدولة ، بينما أوربا تعذبهم وتضطهدهم وتحرمهم حقّ المواطنة . أفذلك هو جزاء العرب من اليهود ؟ .

وكان أن اعتذر كثير من المستمعين عن خطأ هذه السيدة ، بل كان منهم من أسرّ إلى بأنها تعمل مع اليهود ، وكنت أعرف أن الأمريكى يكره الصهيونى ولكنه يخشاه .

وإننى لأرى الموقف اليوم فى يد إسرائيل فإن أرادت سلاما فنعما ما أرادت وإن أرادت حربا فلها ما تريد ، فالتاريخ ، إن كان له أن يعود - كما يقولون - فليعد ، فإن عاد فإنهم يعرفون ما انتهت إليه دورته .

وما أحسن السلام العادل يعم الأرض .

الزمالك ٢٨ يناير ١٩٨٣
الموافق ١٣ ربيع الثانى ١٤٠٣ .

دكتور حسين فوزى النجار

مقدمة

قامت الحركة الصهيونية على عقيدة حاولت أن ترقى بها إلى ذروة الحقيقة من عقائد الأديان السماوية مسيحية أو إسلامية بله اليهودية ذاتها وهى أن فلسطين وما حولها من أرض تمتد من « نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات »[1] هى أرض الميعاد وعد الرّب بها شعبه المختار من بنى إسرائيل لتكون لهم ملكًا ووطنًا . فإيمان المسيحية والإسلام باليهودية وأنبيائها يحمل المسيحيين والمسلمين على الإيمان بالتوراة وإلّا اتهم إيمانهم وداخل قلوبهم الزيغ فى دينهم ، وإن قال المسيحيون والمسلمون بتفسير للتوراة يجبّ تفسير اليهود لها فإن إيمان كلٍّ منهما بجوهر دينه ، إيمانه بجوهر اليهودية ذاتها يحمل كلا منهما ذودا عن تفسيره ما يؤكد إيمانه ويؤيد جوهر عقيدته ، حتى لا يتهم فى إيمانه أو يتزعزع وجدانه الدينى .

واليهود وإن كانوا لا يؤمنون بالمسيحية ولا بالإسلام إلّا أنهم يرون فى إيمان المسيحيين والمسلمين باليهودية ما يمكن أن يؤيد دعواهم فى أرض الميعاد ، فيلحون فى تفسير التوراة على هواهم ويتطرقون بتفسيرهم إلى جوهر المسيحية والإسلام علّهم يجدون من المؤمنين بهما ردفا وسندًا .

وسواء آمن اليهود بتفسيرهم هذا أم اتخذوه وسيلةً لدعم عقيدتهم المبتغاة ، وإنعاش آمالهم القومية فى أرض الميعاد ، فقد أصبحت هذه العقيدة هدى الصهيونية ونبراسها تجمع حولها اليهود وغير اليهود من أصحاب الديانات السماوية ليؤمنوا بها إيمانهم بتعاليم دينهم وإلّا مسّ الزيغ

---

(١) تكوين ١٥ : ١٨ .

قلوبهم إن لم يؤمنوا بحقيقة من حقائق دينهم ، إلا أن الصهيونية قد بنت عقيدتها على تفسير خاطئ لآيات الكتاب المقدس وتخريج باطل لنصوصه حتى غدا اليهود أنفسهم ضحايا هذا الوهم المقدس .

ولسنا فى مجال مناقشة ما تضفيه التوراة من قداسة على بقعة من بقاع فلسطين أو على فلسطين جميعًا وما حواليها فهى أرض الأنبياء والرسل ما فى ذلك مراء وهى منتجع الناصرى ومثواه ومهبط رسالته وهى القبلة الأولى للمسلمين وأرض الإسراء والمعراج فيها كنيسة القيامة والمسجد الأقصى وهى الأرض التى قدستها الأديان السماوية جمعاء .

ولكننا نناقش مدى الأثرة فى دعوى الصهيونية وهى أن تكون الأرض المقدسة لهم دون غيرهم وطنًا ودولة وأنها أرض الميعاد لما سموه شعب الله المختار .

ولا ندرى لمَ وقع الاختيار على إسرائيل [1] دون غيره من أبناء إبراهيم ليكون مختارًا ولتكون ذريته شعب الله المختار وقد كان من نسل إبراهيم أنبياء ورسل بل إن إبراهيم هو الأب الأعلى لأنبياء الديانات السماوية الثلاث .

فإذا بلغت الأثرة ببنى إسرائيل أن يدّعوا لأنفسهم بركة الله واختياره وأنهم الأعلون بين أبناء إبراهيم فما كان للمسيحية ولا للإسلام أن يدّعيا بعد ذلك من بعث إلى الناس كافة وما كان للناس فيهما من حاجة .

فإذا أردنا أن نناقش ما وعد الله به إبراهيم وذريته من حق مقدّس فى فلسطين أو أرض الميعاد فأحرى بنا أن نناقش ما جاءت به الكتب المقدسة جميعًا عن هذا الوعد المقدس وأن نفسّر هذا الوعد المقدس على حقيقته وعلى هدى تطوره التاريخى . فالتاريخ مصداق النبوءة فإن جفاها

---

(١) إسرائيل لقب يعقوب . تكوين ٣٢ : ٣٤ - ٣٩ .

فقد ضلّت قداستها وإلاّ كان لها من تفسيره برهانًا وصدقًا .

ولقد صدقت النبوءة حقًا ولكن على غير ما يراها بنو إسرائيل ودعاة الصهيونية مما يتناوله هذا البحث .

ولذا كان علينا أن ننظر فى هذه النبوءات جميعًا وأن نفسرها تفسيرها الصحيح ، على واقع التاريخ وأيها أقرب إلى مدلول الحقيقة من معناه .

فمما يؤخذ على اليهود أنهم عنوا بتفسير التوراة تفسيرًا ماديًا كأنهم يعقدون صفقةً تجاريةً فهم كما يقول هـ . ج ويلز « يؤمنون بأن الله الرب الأحد للعالمين جميعًا ، ربّ بر وصلاح ، ولكنهم يقولون أيضًا إنه رب تاجر ، قد عقد فى أمرهم صفقة مع أبيهم إبراهيم ، وهى صفقة جدّ رابحة لهم ، يلتزم فيها لهم بأن يرقى بهم فى النهاية إلى السيادة على الأرض[1] .

وهذا هو جوهر الخلاف بين اليهودية والمسيحية ، فبينما كان اليهود يمجّدون من ذاتهم ويعلون من شأن أنفسهم بأنهم شعب الله المختار وأن الله وعدهم بالملك والسيادة على العالمين إذ بالمسيح يسفّه من أحلامهم ويبشّر بعقيدة تجبّ آمالهم وأحلامهم فى ملكوت السموات والأرض فينادى بأن الله هو أب البشر جميعًا وأن الناس أجمعين إخوة وكلهم ابن محبوب لذلك الأب الإلهى ، وأن مملكة السماء جميعًا تظلل كلّ أتباعه ، وهذا هو ذاته جوهر الخلاف بين اليهودية والإسلام فلم يميز الإسلام أبناء إسماعيل على غيرهم من الأمم ولم يجعل لعربى فضلاً على عجمى إلاّ بالتقوى وسوّى بين الناس جميعًا إلاّ حيث يكونون من تقوى الله ، فقد ارتضى الله الإسلام دينًا للناس أجمعين لا دينًا قبَليًّا يقوم على الولاء للشعب المختار كاليهودية .

ولا يعنينا من هذا البحث أن نفنّد نقاء الشعب المختار إلاّ فيما يعرض

---

(١) H.G. Wells : A Short History of The World; Teaching of Jesus.

له البحث من هذا الجانب فقد أصبح نقاء السلالة والعنصر خرافة لا تصمد أمام الواقع التاريخي إلاّ في الشعوب المنحطّة وهي شعوب لم تصمد في عزلتها أمام عوامل الفناء أو الانحطاط التي تنزل بالشعوب التي لا تتجدّد دماؤها بين حقبة وأخرى على الدوام كما يقول علماء الوراثة .

وليس للشعب اليهودي أن يدّعي نقاء العنصر والسلالة وإلاّ أدركه الفناء من زمن بعيد وحلّ به الانحطاط البدني والعقلي مما يخالف تاريخه وما عرف عنه من ذكاء وفطنة وسلامة بدن فقد امتزجت دماء اليهود بدماء غيرهم من الشعوب التي اختلطوا بها وإن رأى بعض طوائف اليهود ألّا يبشروا بديانتهم لأنها جاءت لهم وحدهم فليس لهم أن يدنسوها باعتناق الجوييم لها ، والجوييم في عرفهم من ليسوا من الشعب المختار . فقد ظلّوا على اعتقادهم رغم هجنة دمائهم بأنهم شعب الله المختار ، فإذا كنا لا نعرض لنظرية الشعب المختار وهي ما يجب أن تقوم أوّلا على نقاء العنصر والسلالة فلأنها غدت خرافة أمام تباين العناصر والسلالات في الشعب اليهودي .

وسواء كان الاختيار للعقيدة أو للعنصر فإن ما يعنينا حقيقةً هو مدى هذا الالتزام الإلهي لهؤلاء المختارين ، وهو التزام يقوم على تفسير تلك النبوءات التي تعرض لأرض الميعاد ، وعلى من تصدق هذه النبوءات ، أعلى بني إسرائيل وحدهم أم على بني عمومتهم من أبناء إسمعيل ، أهي لليهود أم للعرب ؟

إلّا أننا قبل أن نخوض في هذا البحث لابدّ لنا أن نعرض لتلك الدعاوى العريضة التي يشلّ بها الصهيونيون تفكير بعض الطوائف المسيحية المتدينّة والعوامل النفسية التي تكمن وراء هذه الدعاوى العريضة. وسنرى أنها دعاوى قامت على زيف من حقائق التاريخ وأن

العاطفة فيها تغلب الحكمة والعقل والحقيقة ، وهى عاطفة زائفة تبرر ما ترتكب إسرائيل من وحشية لتضفى على عملها بطولة المضطهد وحق السليب المغلوب فتستدر الرحمة وتكسب تأييد الغافلين .

ففى وسط هذا الضباب من العاطفة اندفع من أعمتهم الضلالة عن تبيّن الحقيقة إلى تأييد إسرائيل بدعوى تحقيق ما جاء من نبوءات الكتاب المقدس ، أو عطفًا لمجرد العطف على شعب شريد مضطهد يدعى بحثًا عن الدعة والأمن فى وطن وعد به منذ آلاف السنين ولو على حساب شعب آخر مادام فى ذلك مصداق لآيات الكتاب المقدس ، وسنرى لماذا اتجهت الدعاية الصهيونية نحو المسيحيين من غير الكاثوليك والأرثوذكس ولماذا نجحت بينهم فكان الإنجليز والأمريكيون أكثر الشعوب عطفًا على اليهود .

فحين بدأت الحركة الصهيونية نشاطها لإقامة دولة يهودية فى فلسطين خشيت أن تحرك فى أعماق المسيحيين المتدينين عداوتهم القديمة لليهود ، فتنبعث مرة أخرى دعوى الثأر كما يقولون من « قتلة السيد المسيح » كما انبعثت خلال العصور الوسطى وانطلقت تدفع المسيحيين فى أرجاء أوربا للتنكيل بمعذّبى المسيح وقاتليه . كان على دعاة الصهيونية أن يتحاشوا جهد طاقتهم عودة الشك والحذر لدى المسيحيين من عودة اليهود إلى امتلاك بيت المقدس وكنيسة القيامة وبيت لحم والناصرة بلدة الناصرى عليه السلام فأقاموا دعوتهم على أساس دينى وأشاعوا بين المسيحيين لا سيما فى أمريكا أن تأسيس دولة يهودية فى فلسطين ليس إلّا تحقيقا لآيات الكتاب المقدس ومصداقًا لنبوءات العهد القديم ، وراحوا يفسرون آيات العهد القديم ويخرّجونها على هواهم ليخدعوا بها شعوب الأرض وليقضوا بها على كلّ بادرة تحرّك المتدينين فى أوربا وأمريكا ضدّ الصهيونية ، ونجح الصهيونيون فى بثّ تلك الفرية التى افتروها على آيات

الكتاب المقدس بين كثير من الهيئات المسيحية الأمريكية فخدعت بها وراح بعضها يؤيد الصهيونية فى دعواها . ولا ننسى أن البروتستانتية قد عانت من اضطهاد الكاثوليكية وطوائف الكاثوليك ما جعل البروتستانت يجفون التعصب الدينى الذى يجرّ إلى إراقة الدماء ، ثم أن موجة اضطهاد البروتستانتية والتنكيل بدعاتها ومعتنقيها جاءت فى الوقت الذى اجتاحت فيه أوربا موجة العداء المسيحى للطوائف اليهودية وتركت هذه المحنة المشتركة جذورها العميقة بين البروتستانت فى ثنايا عقلهم الباطن وتوارثها أحفادهم دون أن يحسّوا دبيبها فى أعماقهم .

ثم أن البروتستانتية ترى فى التوراة كتابها المقدس والمصدر الأصيل للديانة المسيحية وكان هذا هو جوهر الخلاف بينها وبين الكاثوليكية ، فحين بعث المسيح برسالته ظنّ اليهود أنه المسيح المنتظر الذى يقودهم إلى مملكة الأرض ، ويعيد لهم مجد أورشليم ومملكة إسرائيل ويخلصهم من ذلّ الرومان ، ولكن المسيح لم يفجعهم فى آمالهم القومية فحسب بل راح يحطّم أسطورة الشعب المختار ، فعن مملكة الأرض قال : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وعن الشعب المختار يقول : « إن الله هو أب البشر جميعًا وإن مملكة السماء تظلل كلّ أتباعه » ، ثم يقول إنه ما جاء لينقض الناموس بل ليكمله . فكأن المسيح لم يأت بثورة تجبّ من عقيدة اليهودية وتنكرها بل جاء يصلح من شأنها ويردّها إلى الطريق القويم من تعاليمها الأصيلة تلك التعاليم التى حوّرها اليهود لتبرّر نزعتهم العنصرية وامتيازهم على البشر ، وضاق اليهود بالمسيح فوصموه بالكذب وأنه تابع « بعزبول » الشيطان يدين بأمره ويتلقى المعجزة والوحى منه . ثم ائتمروا به حتى صلبوه فراح حواريوه ينشرون كراهية اليهود ومقتهم بين أتباعهم ولكنهم لم ينكروا التوراة أو يجبّوا أحكامها وإن اتهموا اليهود بتحريفها وقالوا إن التوراة تنتهى بكتب موسى الخمسة ، أما ما جاء بعد ذلك من

أسفار كسفر أشعيا وأرميا ودانيال وعاموس حتى ملاخى فهى من وضع اليهود أنفسهم خلال السبى البابلى أو بعده .

وامتدت الحرب بين المسيحيين واليهود من يومها وحملت الكنيسة الغربية - كنيسة الرسول بولس - دون الكنيسة الشرقية كنيسة الرسول مرقص - عبء الانتقام من قتلة المسيح ومعذّبيه كما يعتقدون ، فقد آل إليها الحكم والسلطان بعد أن أصبحت الكاثوليكية المذهب الرسمى للإمبراطورية الرومانية ، بينما انتشر المذهب الأرثوذكسى فى الولايات الشرقية للإمبراطورية ولم يكن للكنيسة الشرقية من الجاه والنفوذ ما للكنيسة الغربية ، وراحت الكاثوليكية تشنّ حربًا عوانًا على اليهودية واليهود فى كلّ بقاع الأرض امتدّت حتى العصور الوسطى حيث شهدت محاكم التفتيش أقسى ما حلّ باليهود من تعذيب . وانطوى اليهود طوال ذلك العهد على أنفسهم فى عزلة رهيبة وفى أحياء خاصة يمارسون فيها طقوسهم الدينية فى أضيق نطاق .

ولم يخرج اليهود من عزلتهم إلاّ بقيام البروتستانتية فى ألمانيا ووقوع الثورة فى فرنسا ، ففى ألمانيا قام « موسى مندلسون » يدعو قومه من اليهود إلى الخروج من عزلتهم والتجاوب مع البيئة التى يعيشون فيها والشعب الذى يعيشون بينه فيتكلمون لغته ويحيون حياته ، وكانت العبرية أو « البيدش » التى تكتب بحروف عبرية هى لغة يهود ألمانيا ، وفى فرنسا أعلنت الثورة المساواة بين جميع المواطنين ومن بينهم اليهود لا كشعب وإنما كمواطنين فرنسيين ثم بدأوا ينالون حريتهم السياسية والدينية بعد ذلك فى دول أوربا الأخرى .

فالبروتستانتية هى صاحبة الفضل الأوّل على اليهود ؛ ويفسر هذا ما يجد اليهود من عطف فى البلاد التى تدين بها كأمريكا وإنجلترا . فقد قامت البروتستانتية فى الأصل على أساس إحياء التوراة والبحث فى

تعاليم العهد القديم والمثل العبرانية القديمة ، حين حالت الكنيسة الكاثوليكية فى حربها لليهود بين المسيحيين من شيعتها وبين قراءة التوراة وما فيها من تمجيد لليهود ولعن لمن عاداهم من الأمم . فالتوراة برغم أنها كتاب اليهود المقدس ، لم ينسخها المسيح حين قال : « لا تظنّوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل جئت لأكمل[1] » إلّا أنه نسخ ما أضفت على اليهود من قداسة وامتياز حين قال : « إن كثيرين يأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب فى ملكوت السموات ، وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية[2] . ومن قبل كان يوحنا المعمدان قد نسخ عنهم قداستهم حين صاح فيهم : « يا أولاد الأفاعي .. لا تفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم لنا إبراهيم أبًا ، لأنى أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم »[3] .

وظلّت التوراة مصدر الشريعة المسيحية إلّا فى الطلاق فقد حرمه المسيح إلّا لعلّة الزنا ، وفى أن ملكوت الله لا يشمل بنى إسرائيل وحدهم بل يشمل البشر جميعًا ممن ينطوون تحت ظلّه ، وأن نعمة السماء ليست لأناس دون الآخرين بل هى لكل من اهتدى وآمن بالخير والمحبة ؛ وبذلك جبّت المسيحية ما ادّعى أبناء إسرائيل من امتياز وفضل على الأمم ، إلّا أن الكاثوليكية رأت فى قراءة التوراة تمجيدًا لليهود الذين يعتقدون أنهم قتلوا المسيح وعذبوه فحرمت قراءتها على العامة حتى لا يختلط الأمر عليهم بين يهود العهد القديم والخارجين عليه ممن قتلوا المسيح وعذبوه واليهود الذين كان عليهم أن ينطووا تحت لواء المسيحية ،

---

(١) متى ٥ : ١٧ .

(٢) متى ٨ : ١١ - ١٢ .

(٣) متى ٤ : ٨ - ٩ .

فالمسيحية لم تنسخ الشريعة اليهودية حقًّا ولكنها اجتثّت كيان اليهود واعتبرتهم فئة مارقة على الدين وعلى رسالة إبراهيم وإسحق ويعقوب .

حتى كانت ثورة « مارتن لوثر » على رجال الدين الكاثوليكى واحتكارهم للبركة وملكوت السماء بعدما حل بالكنيسة الكاثوليكية من فساد ، فقام بحركة الإصلاح الدينى التى رأى فيها بعض المسيحيين المتنورين إحياءً لتعاليم المسيحية الحقّة ودعا الناس إلى قراءة التوراة حتى يعلموا حقائق دينهم ويلموا بمصدر شريعتهم .

ولم يرم لوثر إلى إحياء الهالة التى أضفتها التوراة على بنى إسرائيل فقد قضت المسيحية منذ قيام المسيح بدعوته على ما كان لليهود من امتياز واعتبر الناس جميعًا ممن ينطوون تحت ملكوت السماء أصحاب النعمى لا الامتياز ، إلّا أن اليهود رأوا فى الدعوة إلى قراءة التوراة بادرةً سانحةً لإحياء مجد إسرائيل والتذكير بامتياز الشعب المختار فعملوا على نشرها وحرّفوا من آياتها ما يضفى هالات المجد والامتياز عليهم حتى أن الكنيسة الكاثوليكية قامت بنشر طبعات صحيحة للتوراة بعد أن انتشرت تلك الطبعات المحرّفة وقدّمت من وقع فى يديها ممن قاموا بترجمة التوراة إلى اللغات الأوربية للمحاكمة بعد أن نسبت إليهم تهمة تحريفها ، وكان من بينهم أتباع الدكتور « جون ويكليف » وكان قد اعتنق البروتستانتية وقام بترجمة التوراة محرّفة إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية فأعدمواحرقًا بعد أن أدانتهم المحكمة بتهمة التحريف ،ولا نعلم هل كان الدكتور ويكليف بروتستانتيًّا مؤمنًا أم اندسّ على البروتستانتية من بين اليهود .

وذهبت الكنيسة الكاثوليكية بعد ذلك تفرق بين التشريع فى التوراة والقصص الوارد فيها وقالت بتقديس شرائعها أما قصصها فليست سوى قصص تاريخى عن اليهود ، كما قالت بقداسة الأناجيل الأربعة التى اعتمدها مجمع خلقدونية روحًا ونصًّا . غير أن الصراع الذى استشرى بين

الكاثوليك والبروتستانت وما حاق بالبروتستانت من تعذيب واضطهاد قد جمع بينهم وبين اليهود كما قلنا من قبل ، فكان هذا العطف الذى تضفيه الطوائف البروتستانتية على اليهود وكانت تلك الحرية الواسعة التى تمتع بها اليهود بين البروتستانت وكان إلحاح اليهود الدائم عليهم بصدق نبوءات العهد القديم والحق المقدس فى أرض الميعاد وامتياز اليهود على غيرهم من البشر .

وهكذا خرج اليهود من عزلتهم وانطوائهم على أنفسهم بفضل البروتستانتية . إلا أن هناك عاملين آخرين لا يصح إغفالهما فيما نال اليهود من حرية وكيان اجتماعى : أولهما أن تلك العزلة التى أحاط بها اليهود أنفسهم قد جعلت الشعوب تنسى عداءها التقليدى لهم وتنسى خبث طويتهم وأطماعهم التى تؤلب عليهم الجماعات التى يعيشون بينها ، وثانيهما أن موجة التعصب الدينى قد بدأت تفتر وسرت روح من الحرية بين الشعوب ونما الوعى الإنسانى بالإخاء والمساواة بين البشر .

على أن الذى حرّك الكاثوليك فى العصور الوسطى ومازال يحركهم على اليهود حرىّ بأن يحرّك غيرهم من الطوائف المسيحية الأخرى فإن السيطرة اليهودية فى أمريكا مثلا ستفتح أعين الأمريكى فى النهاية على هذا الأخطبوط الصهيونى الذى يعتصرهم ويمتصّ دماءهم كما ستفتح أعين المسيحيين الشرقيين على هذا الخطر الذى يتهدّدهم لاسيما وقد أراقت الصهيونية دماء العرب من مسيحيين ومسلمين مما تجفوه طبيعة تلك الطوائف البروتستانتية التى عانت من اضطهاد الكاثوليكية من قبل .

وقد تنبّه بعض اليهود إلى هذا الخطر القادم ، خطر انبعاث العداء التقليدى لليهود عند المسيحيين وخشوا أن يحرّك الطمع الصهيونى مكامن العداء والتراث القديم الملىء بالحذر والشك من خبث اليهود وعنصريتهم

وتعصّبهم المقيت الذى يملأ قلوبهم بالحقد والبغضاء وكراهية الجنس البشرى الذى لا يمت إلى شعبهم المختار ، فراحوا ينبّهون قومهم إليه .

ومن بين الذين نبهوا قومهم إلى الخطر الذى يهدّد اليهود من وراء الصهيونية الكاتب الأمريكى « الفريد ليلنتال » فهو يقول فى مقدمة كتابه « ثمن إسرائيل »[1] « إن فى الولايات المتحدة مجالاً فسيحًا لأية جماعة تتكتل وتعمل بحرية لغاية معينة ، ولكن هذا التسامح الأمريكى يتلاشى تمامًا إذا ثبت أن عمل هذه الجماعة ينافى مصلحة أمريكا » .

ونجد فى هذه العبارة أن الرجل قد لمس كبد الحقيقة ؛ فإن السياسة التى تسير فيها الصهيونية فى أمريكا ستدفع بالشعب الأمريكى فى النهاية إلى الثورة والتمرّد على السيطرة اليهودية التى تحكمهم وتسخرهم لأهوائها ، لا سيما وأن آثار هذه السيطرة الصهيونية على كثير من نواحى القوّة فى الولايات المتحدة تكاد تعلن عن نفسها كل يوم .

فإذا انبعث الغضب الأمريكى على اليهود – وأمريكا هى حصن الصهيونية العالمية – فإنه سيحيى فى تياره موجة العداء المسيحى لمن يرون أنهم عذبوا المسيح وقتلوه والشعب الأمريكى السمح المتدين لا يلهيه الدين أبدًا عن حقيقة مصالحه ومصالح بلاده ولا ينسى أنه فى الأرض الجديدة التى نزح إليها قد حمل معه مأثورات وتقاليد ترعرعت فى بلاد رحبة فسيحة لا تحدّ من حرية الفرد أو نشاطه أو أثرته القومية ، فإذا لمس ما يحد من حريته أو نشاطه أو رأى من بعض طوائفه ولاءً لغير أمريكا ، ثارت ثورته واندفع فى ثورته إلى لون من الغضب تفقد فيه العاطفة حكمة العقل .

Alfred Lilienthal : What Price Israel, Int.,P.3. (١)

ويعرف يهود أمريكا هذه الحقيقة عرفانًا تامًّا ، إلاّ أن موجة الصهيونية الحادّة قد جرفت أمامها كلّ بادرة للاعتدال عند اليهود ، فلم يعد هناك يهودى لا يشايع الصهيونية سرًّا أو علنًا ، فالذين نسميهم بالمعتدلين من اليهود ليسوا فى الواقع إلاّ من غلاة الصهيونيين ولكنهم يرون فى اعتدالهم وقاءً لغلاتهم ، فإذا انحرفت الموجة بالغلاة قاد المعتدلون السفينة فى موج هيّن لا تنوشه الأعاصير التى أثارها الغلاة والمتطرفون ، فيجنّبون قضيتهم ما يحتمل أن يعتورها من خطر الحملة عليها والتحزب ضدّها .

إلاّ أن إصرار الصهيونية وإلحاحها فى تحقيق أهدافها لا يدع للهوادة أو التريثّ مكانًا فى سلوك المعتدلين ، فتطغى الموجة الجارفة للمتعصبين وتعلو صيحة الغلاة لتغطى على كل ما عداها . والصهيونية فى ذاتها وأسلوبها حركة حادة ذات حيوية جارفة لا تنفكّ ملحّة فى تحقيق هدفها الكبير – إحياء دولة يهودا والعودة إلى أرض الميعاد – وهى فى سبيل ذلك تسلك سبلاً شتىّ حتى ولو جفت الخلق القويم وامتهنت تفكير الناس ، فليس من يعلو على براعة اليهود فى تزييف الحقائق وإلباس الباطل ثوب الحق ، وليس مثلهم من يزدرى إنسانية البشر من غيرهم ، فهم حين يملكون يذهبون فى إذلالهم للناس إلى أبعد مما يتصوره العقل لا يرعون فى ذلك خلقًا ولا دينًا أو مثلاً إنسانية ، بل إن فى تعاليمهم التلمودية ما يبرّر ارتكاب كلّ معصية وكل مين مع من هم من غير ملّتهم . وهم حين يستخذون يذهبون أذلة مساكين يستجدون عدالة البشر وفى شخصية شيلوك التى أبدعها شيكسبير فى تاجر البندقية ما يصوّر خلق اليهود على مرّ العصور أبلغ تصوير .

وفى أيامنا هذه وقد بلغت الصهيونية أوج مكانتها فى البلاد الأمريكية نراها حريصةً أشدّ الحرص على رعاية تلك المكانة والإبقاء عليها ما وسعتها الحيلة والجاه والنفوذ . فكلّ ما يؤيد عقيدتهم ومذهبهم وآمالهم

القومية شرع مباح ، وواجب لا يتحلل منه أىّ يهودى فى أمريكا أو خارج أمريكا ، ولكنهم يرون فى أمريكا اليوم ما كانوا يرونه فى بريطانيا من قبل فقد آلت إليها زعامة العالم الغربى وهم فيها كثرة ومال ، يسخّرون كثرتهم ومالهم لتحقيق حلم صهيون القديم فألقوا إليها بثقلهم من جهد ودعاية على أسس علمية ونفسية مدروسة وسيطروا بدعايتهم على الرأى العام الأمريكى سيطرةً لم يشهد لها الشعب الأمريكى مثيلاً من قبل وبلغوا من براعتهم فى الدعاية أن هذا الشعب الأمريكى لا يدرك أنه مخدوع مضلّل تحت وقر الدعاية الصهيونية البارعة .

ويتحرّز الصهيونيون فى دعايتهم فهم يخشون أن يدرك الشعب الأمريكى حقيقة ما يتردّى فيه من خداع الصهيونية ، فنراها تخضع دعايتها لعاملى المرونة والوقت فالدعاية تتلوّن وتتغير حتى تلابس الرأى العام ويختار لها الصهيونيون أنسب الأوقات التى تلائمها .

ولعلنا ندرك ما فى هذه الدعاية من مرونة ومراعاة للوقت المناسب إذا عرفنا تطورها وتغيرها من وقت لآخر ثم عرفنا مدى نجاحها بالرغم مما فيها من متناقضات بارعة .

فلقد أقام الصهيونيون دعواهم ودعايتهم فى البداية على مبدأين التزم بهما كلّ يهود العالم وقادهما الصهيونيون قيادةً بارعةً مرنةً محكمة .

وأوّل هذين المبدأين استثارة الإيمان الدينى فى أعماق المتدينين من طوائف المسيحيين أو البروتستانت بالذات ممن يؤمنون بتفسير لآيات العهد القديم يختلف عن تفسير الكاثوليك والأرثوذكس ويقترب إلى حدٍّ بعيد من تفسير اليهود له ، فالعودة إلى فلسطين هى فى تفسيرهم مصداق لآيات العهد القديم ، فإن كانوا يؤمنون بدينهم فأحرى بهم أن يؤمنوا بعودة إسرائيل وقيام دولة يهودا .

ويقوم المبدأ الثانى على استثارة عطف العالم المتمدين على اضطهاد النازية لليهود وقد اختاروا لذلك أنسب وقت وأبرع تخريج ، فبدأوا حملتهم ضدّ اضطهاد النازية لليهود فى الوقت الذى وقعت فيه النازية فى صراع عالمى تألّب العالم فيه عليها ثم أعقب هذا الصراع حرب مدمرة تألبت فيها الكثرة الهائلة من دول العالم على النازية . وحين قاموا بحملتهم هذه لم يربطوا بينها وبين الدين إطلاقًا حتى لا تلتبس بالنزعة الدينية المسيحية نزعة الانتقام من قتلة المسيح ومعذبيه أو تختلط فى الأذهان بتواتر اضطهاد اليهود فتعتبر تكرارًا لموجات شبيهة من قبل فلا تستثير من الحماس ما يستثيره ظلم غير متواتر ، بل ربطوا بينها وبين الجنس فقالوا إنها اضطهاد آرى للسامية .

ونجحت الصهيونية فى تأليب العالم لا سيما أمريكا على نزعة العداء للسامية حتى غدت عداوة السامية نزعةً لا يقبلها ضمير متمدين وتبنى الأمريكيون حماية السامية من مضطهديها ، فقد بلغ من براعة التضليل الصهيونى أن صرف أذهان الناس عن فكرة الاضطهاد الدينى لليهود إلى الاضطهاد العنصرى لهم ، فبالرغم من أن الاضطهاد الدينى قد غدا نزعةً بالية وغدت حرية العقيدة حقًا لكل فرد إلاّ أنها تثير فى أعماق اليهود ألوانًا من مركب النقص القديم وتحملهم فى الوقت ذاته على إغفال كلّ ما يذكر بالعداء بين المسيحية واليهودية فى الوقت الذى يدعون فيه المسيحيين إلى الإيمان بنبوءات العهد القديم وحق العودة إلى فلسطين .

وهكذا سارت الدعاية الصهيونية قبل أن يحتل الصهيونيون فلسطين على أشلاء العرب الساميين ، حتى إذا احتلوها أدركوا أنهم يجمعون بين نقيضين : الحملة على عداوة السامية ، ثم العدوان على السامية ؛ لذلك نراهم يحوّرون دعايتهم تحويرابارعًا يبرّر هذا التناقض ويخفيه ،

ثم يؤكدون كما كانوا يؤكدون من قبل حقّهم فى العودة إلى أرض فلسطين تحقيقًا لنبوءات الكتاب المقدس ، ثم يقولون إنهم ذهبوا إلى فلسطين تحقيقًا للنبوءات ولكن العرب المعتدين ينفسون عليهم هذا الحق ويصدّونهم عن وطنهم الأوّل وأرض ميعادهم الحبيبة وإنهم لا يرفضون أن يعوّضوا العرب عن أملاكهم التى تركوها طواعيةً واختيارًا ولا يذكرون إطلاقًا أنهم حملوا العرب تحت الحديد والنار والإرهاب الصهيونى القاتل إلى ترك ديارهم وإن لم يتخلّوا عنها ، ثم يقولون غير ذلك إنهم يحملون التمدين والحضارة إلى تلك الصحارى التى أهملها العرب فغاض خيرها وأمحلت أرضها وجفّ زرعها وضرعها ، يعودون ليحيوا مواتها ويبعثوا الحياة فى أرضه والنضرة فى جدبها ؛ ثم إنهم يعودون إخوةً متحابين ينشدون السلام مع أبناء عمومتهم ولكن العرب المعتدين يكرهونهم ويتجمعون على قتلهم والثأر منهم ! ! .

هذا هو لب الدعاية الصهيونية بعد احتلال فلسطين فى التوفيق بين النقيضين فنراها تتهم العرب الساميين بالحملة على السامية واضطهادهم ما كانت تتهم به النازية من قبل فتبقى فكرة اضطهاد السامية التى لابستهم والتى أفادوا ويفيدون منها أجل الفائدة حيّة فى الأذهان وتبرز عداوة العرب لهم على أنها بدورها عداوة للسامية .

إلّا أن الصهيونية مهما طوّرت دعايتها وحوّرت فيها لا تمسّ أبدًا فكرة الوعد المقدس ونبوءة أرض الميعاد بأى تطوير أو تحوير فهى الفكرة الخالدة التى تلهب خيال اليهود بالأرض الموعودة وتزكى أفئدة المؤمنين بالعهد القديم مما يحملنا على مناقشة تلك العهود وبحثها بحثًا علميًّا تاريخيًّا من نفس نصوص الكتاب المقدس لنرى مدى الصدق فى ادعاء اليهود لها ونصيبهم منها ، وهو موضوع هذا الكتاب .

الفصل الأول

العبريون والهلال الخصيب
فى فجر التاريخ

« فى ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقًا قائلًا لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات ، القينيين والقنزيين والقدمونيين والحيثيين والفرزيين، والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين »[1] .

وبذلك وسعت أرض الميعاد ضمن ما وسعت تلك الساحة التى تعرف ببلاد الهلال الخصيب وكان ذلك الميثاق الذى قطعه الرب مع أبرام أصل تلك العبارة المنقوشة على أبواب الكنيست الإسرائيلى شعارًا لدولة إسرائيل « من النيل إلى الفرات » فالهلال الخصيب كما تجرى رواية التوراة هو أرض الميعاد التى وعد بها إبراهيم فى عبوره من أور إلى أرض كنعان بأمر الرب لتشمل أيضًا كل ما يقع شرقى نهر النيل . أما فلسطين فهى بعض أرض الميعاد وليست كل أرض الميعاد ارتبطت فى أذهان اليهود بأورشليم والهيكل ومملكة داود وبالعهد الذى أبرمه الرب مع إبراهيم بعد مولد إسمعيل وخصّ به أرض كنعان لتكون ملكًا أبديًا لنسله ولم يكن له نسل حينذاك إلّا إسمعيل « وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكًا

---

(١) تكوين ١٥ : ١٨ - ٢٠ .

أبديًّا وأكون إلههم[1] » وكان العهد لإسماعيل أب العرب فلم يكن إسحق أب إسرائيل قد ولد بعد كما نقصّ عليك من أمرهما .

وجاء السبى البابلى فألهب خيال الإسرائيليين بالعودة إلى أورشليم وإعادة بناء الهيكل الذى دمّره نبوخذ نصر ومن ثم كانت الدعوة الصهيونية بالرغم من أنها دعوة سياسية ومذهبية جديدة كلّ الجدّة ، تضرب فى أغوار الماضى بجذور دينية وعنصرية عميقة لا ترجع إلى النبوءة بقدر ما ترجع إلى الأمل الجامح بعودة مملكة إسرائيل وملك داود .

أما النبوءة فقد حقّت لا لنسل إبرام من إسحق ولكن لنسله من إسمعيل ، فملك الإسماعيليون أو العرب كلّ الهلال الخصيب ودانت لهم شعوبه . وأما بنو إسرائيل فذهبوا بددًا فى الأرض ولم تقم لهم دولة فى فلسطين أو فى أية بقعة أخرى من بقاع الهلال الخصيب إلّا هونًا من الزمن .

وسنرى من سياق هذا البحث لمن كان عهد الرب فى التوراة والإنجيل والقرآن وعلى من صدقت نبوءة إبراهيم فى رواية التاريخ ، تاريخ الهلال الخصيب منذ فجره الأوّل حتى يومنا هذا .

فالهلال الخصيب هو مسرح الأحداث فى تاريخ بنى إسرائيل .

فما هو هذا الهلال الخصيب ، وكيف كان فى فجر التاريخ ، وما نصيب بنى إسرائيل فى ملحمته الكبرى ؟

* * *

على امتداد الصحراء العربية نحو الشمال يرتكز سهل من الأرض الخصبة على شكل قوس عظيم تتجاوز الصحراء طرفيه وتتعمق فى قلبه ، بينما تحيط به الجبال من ورائه على شكل قوس ، فيبدو كالهلال المقلوب

---

(١) تكوين ١٧ : ٧ - ٨ .

مما دعا العلامة المصريولوجى « برستد » لأن يطلق عليه اسم الهلال الخصيب[1] فيعرف بذلك من بعد وتصبح هذه التسمية علمًا عليه .

وينتهى الطرف الغربى للهلال الخصيب فى جنوب شرق البحر الأبيض المتوسط بينما يرتكز طرفه الشرقى على الخليج العربى وبذلك تقع العراق فى نطاقه الشرقى حيث أينعت حضارة سومر وازدهرت مملكتا بابل وآشور على مدى قرون من تاريخ العالم القديم فى حين تحتل سوريا قلبه حيث قامت حضارتا الآرلميين والحيثيين وامتدّ ملكهما حتى طوى الجزء الأكبر من بلاد سوريا الحديثة . أما فى نطاقه الغربى فتقع لبنان فى الشمال حيث قامت حضارة الفينيقيين وفلسطين فى الجنوب حيث استقرّ الكنعانيون والفلسطينيون فى الزمن القديم .

وكان الهلال الخصيب وما زال إلى اليوم منطقة صراع عنيف بين سكان الصحراء وسكان الجبال يتنازعون عليها ، كلٌّ يريد امتلاك ما يسدّ حاجته منها ، تلك الحاجة التى دفعتهم من قلب الصحراء أو حافتها أو من سفوح الجبال لانتجاع تلك الأرض الخصبة المليئة بالخير والمرعى[2] .

وكثيرًا ما كان يستقرّ هؤلاء النازحون فى الأرض الجديدة فيقيمون ملكًا حتى تنزو عليهم أفواج أخرى من سكان الصحراء أو الجبال فيجلونهم عن أماكنهم أو يشاركونهم الإقامة والانتجاع .

وليس تاريخ هذه المنطقة إلاّ تاريخًا للصراع الحادّ بين سكانها وسكان الصحراء والجبال ، بل إن هذا الصراع ليشكل طورًا من أطوار الحياة الإنسانية فى هذا الإقليم إن لم يكن أهم أطوارها جميعًا ، فإن هذا الصراع وإن كان صراعًا على الماء والمرعى إلاّ أنه كان فى كثير من الأحيان

---

(١) J.H. Breasted : Ancient Times. C.IV.

(٢) برستد وترجمة أحمد فخرى : انتصار الحضارة ص ١٠١ .

صراعًا بين مذاهب وعقائد وأديان وثقافات وحضارات طبعت الحياة الإنسانية فى هذا الإقليم بطابع فريد كان له أعظم الأثر فى سير الحضارة العالمية وتطوّرها . ففى هذا الإقليم التقت الأديان السماوية الثلاثة اليهودية والنصرانية والإسلام كما التقت حضارات التاريخ الأولى .

وكثيرًا ما كان هذا الصراع يتخذ شكلاً آخر فليس هو صراعًا على الماء والمرعى أو بين الموجات البشرية المندفعة من حافة الصحراء أو من قبلها وبين سكان السهل ، بل هو صراع بين حضارتين وقوتين كان الهلال الخصيب مركز الصدام بينهما . فحضارة مصر القديمة وحضارة سومر وبابل وآشور تلاقت جميعًا فوق أديمه كما تلاقت حضارات الفرس والإغريق والرومان والعرب ، وكان هذا اللقاء بين الحضارات العديدة يترك آثارًا بعيدة المدى فى حياة الإقليم لا تقلّ عمّا تركه الصدام العسكرى بين هذه الدول المتجاورة على أرضه وبين شعوبه من الناحيتين الاجتماعية والسياسية .

فمن الناحية الاجتماعية لا نجد فى هذا الإقليم منذ أبعد عصور تاريخه حضارةً متميزةً انفردت بسمات أصيلة كالحضارة الفرعونية أو الهيلينية أو الرومانية ، بل كان كلّ ازدهار فى هذا الإقليم يستقى ينابيعه من الحضارات المجاورة ، وكلّ ما انفرد به سكان الهلال الخصيب من سمات أصيلة هو احتفاظهم إلى حدٍّ ما ببعض تقاليدهم وعباداتهم وأسلوب حياتهم القبلية القديمة ، بل إن عبادتهم كثيرًا ما تأثرت بالطقوس والعبادات المجاورة . فمما لا ريب فيه أن الشريعة الموسوية قد تأثرت إلى حدٍّ كبير بشريعة حمورابى وأن الديانة اليهودية تنم عن أصل صحراوى[1] وأن طقوسها قد شابها كثير من الطقوس الفرعونية والبابلية ، وأنها كانت

---

(١) فؤاد حسنين على . دكتور : التوراة عرض وتحليل ص ٩ .

تمتص على الدوام من مراسم الديانات التى جاورتها وعقائدها فأخذت فكرة المسيح المخلص عن الزراداشتية وفكرة المعبد عن البابلية وفكرة الخلود والبعث والعالم الآخر عن الفرعونية إذ لم تشر إليها التوراة من قبل ، وتشربت بعض فلسفة الإغريق والرومان ، هذا بالرغم من أنها ديانة محافظة ، إلاّ أنها كانت تمتاز على كلّ تلك الديانات بفكرة الإله الواحد تلك الفكرة التى تبلورت فى عبادة آتون فى اخيتاتون أو تلّ العمارنة على يد الفرعون إخناتون أو امنحتب الرابع .

ومن الناحية السياسية لم تقم فى هذا الإقليم أمة موحّدة متماسكة تصهر فى أتونها هذه القبائل أو الشعوب العديدة ، ولم يقم كيان سياسى لدولة استطاعت أن تعيش طويلًا أو أن تسيطر على بقاعه سيطرةً كاملة لأكثر من جيل أو جيلين ، بل عاشت هذه الشعوب فى وحدات شبه سياسية لم تعْدُ أن تكون دويلات صغيرة ظلّت تحتفظ بطابعها القبلى القديم رغم ما بلغته من حضارة وازدهار . ولم يحدث أن توحدت بلاد الهلال الخصيب إلّا فى ظلّ العرب وفى نطاق الدولة الإسلامية الكبرى مما يعدّ مصداقًا لعهد الرب لنبيه إبراهيم بأن يرث نسله تلك الساحة وهم أصحابها وهم نسل إبراهيم

وينتسب سكان هذا الإقليم منذ أقدم العصور إلى الجنس السامى ، وكان هؤلاء الساميون قد أخذوا يفدون من الصحراء إلى الهلال الخصيب فى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد[1] تقريبًا ، وكان السومريون قد سبقوهم إلى انتجاع الطرف الشرقى من الهلال الخصيب قبل ذلك بعدّة قرون ، ومن المحتمل أنهم قد بدأوا فى تجفيف المستنقعات حول رأس

---

(١) جواد على . الدكتور : تاريخ العرب جـ ١ ص ١١

الخليج العربى قبل موجة النزوح السامى بخمسمائة عام[1] ولا يعرف على التحقيق أصل هؤلاء السومريين[2] ولكنهم ليسوا من الجنس السامى ، وجاءت نسبتهم إلى البلاد التى كانت لهم السيادة عليها من أرض الرافدين والتى عرفت باسم سومر وتحدثت عنها التوراة باسم سهل « شنعار » وعرفت فيما بعد باسم بابل [3] . ومن المحقق أن أقدم حضارات الهلال الخصيب هى الحضارة السومرية . ولم يكوّن السومريون دولةً متحدةً بل كوّنوا عدة دويلات قويّة تجاورت واقتتلت فلم تتمتع بالأمن والسلام إلّا فترات قصيرة من تاريخها ، غير أن أصولها وتقاليدها ودياناتها وحضاراتها كانت واحدة .

وجاءت هزيمة السومريين على يد فاتح سامى اسمه « سرجون » قاد رجاله الأكديين المسلّحين بالقسى من جبال عيلام الشرقية فى القرن السادس والعشرين ق.م. وحلّ بهم على الدويلات السومرية فتغلّب عليها وجعل من نفسه سيدًا على سهل شنعار بأكمله[3] .

وكان سرجون أوّل زعيم سامى وأوّل حاكم يؤسس ملكًا كبيرًا فى غرب آسيا ، امتدّ من عيلام فى الشرق إلى البحر الأبيض المتوسط فى الغرب وإلى أعالى الرافدين .

وقد اختلط هؤلاء الأكديون الساميون بالسومريين فاقتبسوا حضارتهم وعاشوا بينهم وكان نتاج هذا الاختلاط تكوّن أمة جديدة عرفت باسم « سومر وآكد » ازدهرت حضارتها تحت زعامة مدينة « أور » لثلاثة قرون تلاها قرنان من التدهور والخمول . والحضارة البابلية هى ثمرة هذا

---

(١) انتصار الحضارة ص ١٥٨ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ص ١٥٧ .

(٣) المصدر السابق ص ١٧٧ .

الامتزاج بين الحضارتين السومرية والآكدية وتعدّ أعظم مظهر لتطور حياة الإنسان فى سهل شنعار .

ولم ينس الناس روعة هذه الحضارة ولا عظمة مدينة « أور » فيما بعد، فحين أخذ العبريون بأسباب الاستقرار والحياة فى فلسطين كانوا يفخرون بأن أباهم إبراهيم عاش فى مدينة أور قبل أن ينحدر منها بأمر الرب إلى أرض كنعان[1] .

وقضت دولة « سومر وآكد » حين غزاها ساميون جدد فى نهاية القرن الثالث والعشرين ق. م، عندما اجتاح العيلاميون المدن السومرية من الشرق وأسروا آخر ملوك « أور » واجتاح العموريون بلاد آكد من الغرب وتمكن أحد زعمائهم من أن ينصب نفسه ملكًا على بابل فى منتصف القرن الحادى والعشرين ق.م، وأديل من مدينة أور إلى مدينة بابل فى السيادة على سهل شنعار القديم الذى عرف منذ ذلك الوقت باسم بلاد بابل وكان ذلك حين تمكن « حمورابى » من أن يقهر الحاكم العيلامى الذى كانت له السيادة والزعامة على مدن سومر وآكد فى الجنوب .

وبلغت حضارة بابل أوجها تحت حكم حمورابى ، وكان حمورابى حاكمًا قويًا ومشرّعًا عظيمًا ، فظل ذكره يتردّد فى بقاع الهلال الخصيب إلى ما بعد موته بألف عام وبقيت شريعته إلى يومنا هذا علمًا عليه كأقدم شريعة تنظم علاقات البشر وأحوالهم ومعاملاتهم .

ولم تعمر بابل طويلًا بعد حمورابى فقد تعرضت لموجة بشرية جديدة جاءت إليها من الشرق من جانب قوم عرفوا بالكاسيين ، وقد أخذ هؤلاء الكاسيون ينطلقون فى دفعات متعاقبة إلى أرض بابل لم يستطع البابليون دفعها ، وعلى خلاف هجرة الكاسيين الذين استقروا فى بابل نجد غارة

---

(١) تكوين ١٢ : ١ – ٦ .

أخرى تندفع إليها من الشمال الغربى يقوم بها الحيثيون ، نهبت بابل وسلبتها وغنمت ما فيها وعادت إلى بلادها بعد أن قضت على آخر ملك من نسل حمورابى ، ولم يجد الكاسيون بعد ذلك جهدًا فى فرض سيادتهم على بابل فهوت وانحدرت إلى الزوال حتى ظهرت كلديا على مسرح التاريخ .

ونجد مركز الثقل فى الهلال الخصيب ينتقل بعد سقوط بابل إلى الشمال الشرقى حيث قامت دولة آشور ، وفى تلك البقاع الشمالية من الهلال الخصيب يظهر على مسرح الحوادث إلى جوار الساميين أقوام غير ساميّى الأصل ممن اصطلحنا على تسميتهم بالشعوب الهندو أوربية وهم الذين انحدروا إلى أوربا فيما بعد ووصلت موجاتهم التى قامت من الهند إلى الجزر البريطانية . وكانت أشور هى مركز الالتقاء بين الساميين وهؤلاء الأقوام غير الساميين ، فإلى الشمال نرى أن المراكز الأمامية المتقدمة للأجناس الهندو أوربية كانت فى مملكة خيتا فى آسيا الصغرى وفى بلاد الميتانى فى أعالى الفرات بينما وصل الساميون فى توسعهم إلى الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط وشمال أفريقيا وبعض جهات أوربا الجنوبية الغربية وبذلك سار التوسع السامى والآرى فى خطين متوازيين مع بعضهما على وجه التقريب .

وكان على دولة أشور أن تواجه خطر القوى المجاورة التى تحول بينها وبين التفوق والظهور . وكان أعظم ما يهددها منها دولة الميتانى فى الفرات وخيتا فى آسيا الصغرى ومصر التى مدّت ذراعيها إلى الهلال الخصيب واشتبكت مع خيتا فى صراع عنيف على امتلاكه ، كما كان عليها أن تواجه خطر قوى جديدة نجمت عن موجة أخرى من موجات النزوح السامى فى غرب آسيا فإلى الغرب من أشور كان الآراميون قد بدأوا ينزحون إلى

سهل البقاع الخصيب وما وافى القرن .الثانى عشر ق.م حتى رأيناهم قد أسسوا عددًا من المدن الزاهرة فى سوريا استطاعت أن تتمثل كثيرًا من سمات الحضارتين المصرية والحيثية ، وإلى الجنوب من سوريا وفدت القبائل العبرية وأخذت تحتل الأرض وتتوطنها وأخذ الاثنان يقيمان سدًّا منيعًا أمام تقدّم الأشوريين إلى البحر ، وكانت القوّتان الغربيتان - مصر وخيتا - قد انسحبتا من الميدان عام ١١٥٠ ق.م . بعد أن انتابهما الضعف ولم تقو دولة الميتانى على البقاء فانتهى أمرها قبل ذلك بزمن ولم يبق فى الميدان غير أشور لترث ملك الشرق . فما أن أهلّ القرن التاسع ق.م . حتى أخذت القوات الأشورية تشقّ طريقها إلى الغرب فسقطت دمشق عام ٨٣٢ ق.م . وبعد ذلك بعشر سنوات سقطت السامرة حاضرة مملكة إسرائيل الشمالية بعد حصار دام ثلاث سنوات[١] . ثم نزل الأشوريون على المدن الفينيقية فما لبثت أن تهاوت واحدةً بعد الأخرى أمامهم وأخذوا يتقدمون جنوبًا إلى مصر فاجتاحهم وباء الملاريا فى وادى الأردن وحال بينهم وبين التقدم إلى وادى النيل ، وهو الوباء الذى اجتاح قوات اللنبى بعد ذلك بسبعة وعشرين قرنًا عند عبورها لوادى الأردن لمهاجمة شرق الأردن بعد استيلائها على بيت المقدس ، كما اجتاح من قبل جيش نابليون الذى كان يحارب فى تلك البقاع وارتدّ أمام عكّا وهو الوباء الذى أشارت إليه التوراة فيما نزل بجيش سنحاريب بقولها « إن ملاك الرب خرج وضرب من جيش أشور مائة ألف وخمسة وثمانية ألفا . ولما بكروا صباحًا إذا هم جميعًا جثث ميتة »[٢] .

ولم تنج بابل من فتك الأشوريين واستمرت تقضّ مضاجعهم بثوراتها

---

(١) H. Wheeler Robinstien : The History of Israel.C.IV.P.9s.

(٢) الملوك الثانى ١٩ : ٣٥ .

ولم يجد سنحاريب بأسًا من أن يمحوها من الوجود ففتح عليها مياه القنوات لتغمر أطلالها بعد أن فرّ عنها أهلها ، أما مصر فقد اجتاحها حفيده بعد أن عزّت على جدّه فأصبح لفترة من الزمن سيد النيل الأدنى[1] .

وما أن أهلّ القرن السادس ق.م . حتى كان الأشوريون سادة الهلال الخصيب على أنه لم يمض جيل واحد حتى سقطت أشور تحت ضغط الكلدانيين من الجنوب والميديين من الشمال عام ٦١٢ ق.م . وورث الكلدانيون سادة بابل الجدد ملك الأشوريين وأصبح الهلال الخصيب بأسره تحت إمرتهم واكتفى الميديون وهم من الأقوام الهندو أوربية بحكم الجبال الشمالية ، وأعاد الكلدانيون بناء بابل وأفسح نبوخذ نصر أعظم ملوك الكلدانيين فى مساحتها وبنى لحراستها الأسوار والبروج الحصينة وجعل منها أعظم مدن الهلال الخصيب .

وقد هزم نبوخذ نصر جيوش الغرب المتحالفة ضدّه فى معركة « قرقميش » عام ٦٠٥ ق.م . ثم قام بحملات تأديبية على البلاد التى ثارت عليه انتهت بالقضاء على مملكة يهودا وتحطيم أورشليم وتدمير الهيكل ، وحمل اليهود سبايا إلى أرض بابل عام ٥٨٦ ق.م .

ولم تعمر دولة بابل طويلًا فما أن مات نبوخذ نصر عام ٥٦١ ق.م حتى انحدرت البلاد إلى مهاوى الضعف والاضمحلال وأخذت تفسح مكانها لظهور أقوام جدد لم يكونوا من الساميين فى هذه المرة وإنما كانوا من العناصر الهندوأوربية التى بدأت تعلو وتظهر فى الشرق والغرب وتسود العناصر السامية فى غرب آسيا لألف سنة جديدة لم تنته إلّا بظهور العرب على مسرح التاريخ فى القرن السابع بعد الميلاد فأعادوا سيطرة الجنس

---

(١) انتصار الحضارة ص ٢١٦ .

السامى على الهلال الخصيب واكتسحوا فى طريقهم غربًا وشرقًا تلك العناصر الهندوأوربية وتوسعوا على حسابها فقامت الدولة الإسلامية وامتدت من سدّ الصين فى الشرق إلى سيف الأوقيانوس وجزر الآزور فى الغرب وطوت تحت ظلّها كثيرًا من الشعوب الهندوأوربية التى اعتنقت الإسلام وشاركت فى بناء الحضارة الإسلامية وبلغت ما لم تبلغه دولة الإغريق أو الرومان قديمًا وما لم تصل حتى إليه الإمبراطورية البريطانية أو الروسية فى العصر الحديث . وتحققت فيهم لأوّل مرّة نبوءة إبراهيم بأن يكون من نسله أمم وملوك منه يخرجون وأن ترث ذريته أرض الهلال الخصيب .

سقطت بابل عام ٥٣٨ ق.م . تحت ضربات الفرس الذين ساروا بقيادة ملكهم كورش أوّل فاتح عظيم من الجنس الهندوأوربى يجتاحون غرب آسيا ويحاربون أبناء عمومتهم الهندوأوربيين فى ليديا وبلاد الإغريق ويقضون على سيادة الجنس السامى فى بابل ومصر والهلال الخصيب .

وعندما قام الإغريق ومن بعدهم الرومان فى الغرب اشتبكوا فى صراع مرير على احتلال مراكز الصدارة فى العالم القديم كالصراع الذى قام من قبل بين الشعوب السامية لنفس السبب .

ولم ينته هذا الصراع بين الشعوب الهندوأوربية إلاّ بقيام العرب الساميين ليوجّهوا قوتهم الفتيّة ضدّ الفرس والرومان فى وقت واحد .

هذا هو تاريخ النزوح السامى إلى الهلال الخصيب واستقرار الشعوب السامية فى أرضه وما صحب هذا الاستقرار من صراع عنيف على العيش وآخر على السيادة والملك ، هذا الصراع الذى شكلته البيئة ودفعت إليه طبائع الحياة فى إقليم كالهلال الخصيب ومازالت بذور هذا الصراع كامنة فى تربته يورى ضرامها فى زمننا هذا انحدار اليهود إلى بقاعه حالمين بعودة مملكة يهودا .

ومن تاريخ الشعوب السامية فى الهلال الخصيب لا نجد للعبريين إلَّا خطًّا ضئيلاً يرد فى ثنايا سطوره بينما يكتب العرب ملحمته الرائعة .

فأين هم العرب والعبريون من تاريخ الهلال الخصيب وأين هم من العناصر السامية وكيف كان كلٌّ منهما من الآخر .

هذا هو موضوع الفصل التالى .

الفصل الثانى
العرب والعبريون فى التاريخ

من نسل إبراهيم كانت العرب العدنانية التى تمثّلت بطون العرب الأخرى وصهرتها فى بوتقتها ومن ذريته كان العبريون الذين تمثلتهم على مرّ التاريخ شعوب عديدة وصهرتهم فى بوتقتها حتى لم يعد يربطهم باليهود القدامى غير الديانة اليهودية وأسفار التوراة .

ففى المتناثر من الروايات أن العرب ينتهى نسبهم كما ينتهى نسب العبريين إلى سام بن نوح وإلى سام بن نوح نسب « شلوتسر »[1] هذه المجموعة من الشعوب التى أطلق عليها اسم الشعوب السامية والتى يرى الدكتور جواد على أن يطلق عليها اسم الشعوب العربية بدلاً من السامية لدلالة هذا المصطلح ودقته العلمية فى التعريف بها[2] .

فالسامية مصطلح حديث قد سبقه إلى الوجود مصطلح العربية وهو الاسم الذى عمّ وشاع للدلالة على هذه الشعوب التى ينتهى نسبها إلى سام بن نوح إذا أخذنا برواية التوراة أو التى كانت تتكلم لغات أو لهجات يبدو أنها مشتقة من أصل واحد إذا أخذنا بطرائق البحث العلمى فى الاستقراء والتعريف .

وقد أدى استعمال هذا المصطلح – مصطلح السامية – إلى خطأ وقع

---

(١) 1 — August Ludwig Schlozer.

(٢) جواد على . الفصل الثالث من الجزء الأول .

فيه علماء الأجناس حين تكلموا عن السامية كجنس له خصائصه ومميزاته البدائية وأخذوا يفرّقون بينه وبين الجنس الآرى على هذا الاعتبار بينما أن شلوتسر لم يقصد ذلك مطلقًا بل كان يعنى به شعوبًا تتكلم لغات متقاربة تنتهى إلى أصل لغوى واحد كما تنتهى اللغات الأوربية الحديثة إلى اللغة اللاتينية ، وسواء اعتبرنا السامية دلالة لغويةً أو جنسية فمن المسلم به أن نسبتها إلى سام بن نوح يعنى أن هذه الشعوب تنتهى نسبًا إليه أما إذا فضلنا أن ننسبها إلى مهدها وهو الجزيرة العربية فنقول الشعوب العربية بدلاً من الشعوب السامية ، فمعنى ذلك أننا نأخذها بالنسبة إلى وطنها الأصلى ولا نشذّ عن المتعارف والمتداول منذ ألفى عام حتى الآن حين أخذ لفظ عربى وعربية يعمّ ويطوى ما عداه من أسماء الشعوب والقبائل التى عاشت فى الجزيرة العربية أوفى الهلال الخصيب وأصبح علمًا على قومية متميزة بلغتها وسماتها العقلية والبيئية وقدر لهذه القومية بعد حقبة امتدت إلى ألف عام منذ بدأ لفظ عربى يعمّ ويشيع أن تتأصل وتمتد إلى رحاب أبعد مدى من الجزيرة العربية والهلال الخصيب حين بدأت موجة الفتوح العربية والإسلامية تكتسح ما أمامها من سدود وحدود فتتوطن قبائل عربية بأكملها بقاعًا جديدةً فى شمال أفريقيا وتصبح تلك الساحة من بلاد الرافدين إلى شواطئ الأقيانوس وطن العرب وأرض العروبة .

وتهدينا هذه الحقيقة إلى حقيقة أخرى ظلّت مطويةً فى غمار الجهل وهى أن هذه الشعوب التى أطلق عليها اصطلاحًا اسم الشعوب السامية كالأشوريين والبابليين والفينيقيين والآراميين والكنعانيين والكلدانيين والعبريين والمصريين ليست فى الأصل إلاّ سلالة واحدة هى السلالة العربية لها سماتها الجنسية والحضارية المشتركة إن تباينت قليلاً أو كثيرًا فلتباين البيئات الإقليمية ولدواعى العزلة التى كانت عاملاً هامًّا من عوامل الانفصال والتباين ، فهذه العزلة الإقليمية هى التى تحمل على

الظنّ أن تلك الشعوب العديدة فى مصر والهلال الخصيب هى غير الشعوب العربية التى تقطنها اليوم .

ويكشف لنا هذا عن صفحة مطوية أو مجهولة من صفحات القومية العربية وتطورها على الزمن تطورًا له مقوّماته وسماته المشتركة .

فالعرب إذن هم أصحاب هذه الساحة الواحدة التى تعرف بالوطن العربى أو وطن الأمة العربية منذ أبعد عصور التاريخ .

والعربية هى اللغة الكبرى التى تتمثل المجموعة اللغوية السامية قديمة كانت أم حديثة وهى أوسع لغة سامية باقية على وجه الأرض .

أما العبريون فهم جيران العرب وأبناء عمومتهم الأقربون ، ففلسطين أقرب بقاع الهلال الخصيب إلى الجزيرة العربية وإن كانت الجزيرة العربية والهلال الخصيب إقليمًا جغرافيًّا واحدًا ، فأرض الرافدين والبادية ليست إلّا امتدادًا طبيعيًّا لجزيرة العرب ، وهم أقرب الشعوب نسبًا إلى العرب ، كما أظهر البحث العلمى الحديث أن أصول الديانة اليهودية تنم عن أصل صحراوى .

وإذا جارينا التوراة فى رواية الأنساب لقلنا إن العرب والعبريين هم على رأيها من سلالة سام بن نوح وهو ما يعنينا فى بحثنا هذا عن نبوءات التوراة ودعوى اليهود فى فلسطين أو ادعاء أرض الميعاد .

وتعترف التوراة[1] بنسبة العرب القحطانية إلى سام بن نوح فهم أبناء يقطان بن عامر بن شالح بن أرفكشاد بن سام وهم بذلك أقدم عهدًا من الإسرائيليين كما تعترف بأن إسمعيل جدّ الإسماعيليين هو الابن الأكبر لإبراهيم من هاجر المصرية ومن نسل إسمعيل كانت العرب العدنانية ومن نسل إسحق ولده من سارة كان بنو إسرائيل . وكان القحطانيون

---

(١) تكوين ١٠ : ٢١ – ٣١ .

أصحاب حضارة ومدنية يعيشون فى المدن فى الوقت الذى كان فيه الإسرائيليون بدوًا أعرابًا يتجوّلون فى البادية قبل أن يستقر بهم الترحال فى فلسطين ويعيشوا على فلاحة الأرض .

وتذكر التوراة[1] زوجةً لإبراهيم دعتها قطورة تزوّجها بعد وفاة سارة وولدت له ستّة من البنين هم زمران ويفشان ومدان ومديان ويشباق وشوما ، ومن أبناء يفشان شباوددان ومن أبناء مديان عيفة وعفر وحنوك وأبيداع والدعه . وبنوددان هم أشوريم ولطوشيم ولأميم ومن بطون أولاد إبراهيم لقطورة خرج ست عشرة قبيلة يقول علماء التوراة إنها قبائل عربية[2] وليس لهذه القبائل ذكر عند النسابين ولم يرد عنها شىء فى بحوث المستشرقين وعلماء التوراة إلاّ أننا نستطيع أن نقول إن قبيلة مدين التى أصهر إليها موسى هى من ولد مديان بن إبراهيم من زوجته قطورة .

وينتهى نسب إبراهيم الجدّ الأعلى للعرب العدنانية ولبنى إسرائيل إلى سام فهو إبراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح ويكون عابر آخر جدّ تتلاقى فيه القحطانية والعدنانية وبعد عابر ينفصلان فمن يقطان ولد عابر ينحدر القحطانيون ومن فالج ولد عابر ينحدر العدنانيون على ما يقول النسابون وتجرى رواية التوراة .

وإبراهيم أو أبرام أحد إخوة ثلاثة من أبيهم تارح هم غير أبرام – ناحور وحاران – ولد فى أور الكلدانيين فى جنوب العراق لألفى عام ق.م – على ما يقال – وينتمى آل إبراهيم إلى عشيرة بدوية انحدرت من الجزيرة العربية وأخذت تتنقل شمالاً وجنوبًا لفترة من الزمن

---

(١) ٢٥ : ١ – ٤ .

(٢) Hitti : History of The Arabs : P. 40.

فى أرض حاران شمال العراق [1] وفى التوراة أن تارح نزح بأبرام ولوط ابن حاران وساراى كنته امرأة ابنه إبراهيم من أور يريد أرض كنعان فعرجوا على حاران وأقاموا بها وفى حاران مات تارح عن مائتى وخمس سنين من عمره [2] .

ومن حاران نزح أبرام بأمر الرب إلى أرض كنعان ومعه ذخائره وعبيده وماشيته واختار مقامه من شكيم إلى بلوطة ممرا حيث تقوم مدينة نابلس الآن [3] ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقى بيت آيل ونصب خيمته وله بيت آيل من المغرب وعاى من المشرق [4] . ثم كانت مجاعة فارتحل إلى مصر وحلّ بها زمنًا ثم ارتحل عنها عائدًا إلى حيث أقام خيمته بين بيت آيل وعاى وكان برفقته لوط ابن أخيه حاران الذى صحبه إلى مصر . وشاء أبرام أن يفترق عن لوط فترك له الخيار فى الأرض التى يسكنها « إذا ذهبت شمالا فأنا يمينًا وإن يمينًا فأنا شمالاً » وارتحل لوط شرقًا ونقل خيامه إلى حبرون عند بلوطات ممرا حيث أقام مذبحًا للرب [5] .

ولا ندرى أكانت تتغير أرض الميعاد فيها لو اختار لوط الرحيل غربًا وأقام فى أرض كنعان وترك الشرق لأبرام أم أن الأرض المقدسة هى كلّ ما انتجع أبرام وذووه سواء كانت له أو للوط فإنا نجد أبرام يتشفّع لأهل سدوم لمقام لوط بينهم « فتقدم إبراهيم وقال أفتهلك البار مع الأثيم . عسى أن يكون خمسون بارًّا فى المدينة . أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين بارًّا الذين فيه . حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت

---

(١) Learsi Rufus : Israel. P. 3.

(٢) تكوين ١١ : ٢٧ – ٣٢ .

(٣) العقاد : أبو الأنبياء ص ١٨ هامش .

(٤) تكوين ١٢ : ٥ – ٨ .

(٥) تكوين ١٣ : ٨ – ١٣ – وحبرون هى الخليل الحالية .

البارّ مع الأثيم فيكون البار كالأثيم »[١] .

ثم نجد موسى يحذّر قومه من العدوان على أرض أدوم فى خروجهم إلى أرض كنعان « أنتم مارون بتخم إخوتكم بنى عيسو الساكنين فى سعير فيخافون منكم فاحترزوا جدا . لا تهجموا عليهم لأنى لا أعطيكم من أرضهم ولا وطأة قدم لأنى لعيسو قد أعطيت جبل سعير ميراثًا[٢] .

ولما لم تلد ساراى دفعت زوجها أبرام للدخول بجاريتها المصرية هاجر فولدت له إسمعيل فكان أكبر أبنائه رزق به وقد بلغ من العمر ستًا وثمانين سنة ، وفى التاسعة والتسعين من عمره وكان إسمعيل ابن ثلاث عشرة سنة عقد الرب مع أبرام عهد الختان وفيه دعى بإبراهيم ودعيت ساراى بسارة وبشر بابنه إسحق من سارة واختتن إبراهيم وجميع آل بيته من ذكر وليد البيت والمبتاع بفضة وكان إسمعيل أوّل من ختن من نسل إبراهيم[٣]

وانتقل إبراهيم من مقامه جنوبًا وأقام بين قادش وشور وتغرب فى جرار[٤] وولدت سارة إسحق وقد أوفى إبراهيم على المائة وختن إسحق ابن ثمانية أيام[٥] .

وغضبت سارة على هاجر « فقالت لإبراهيم : اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن الجارية لا يرث مع ابنى إسحق فقبح الكلام جدا فى عينى إبراهيم »[٦] .

---

(١) تكوين ١٨ : ٢٣ – ٣٣ .
(٢) تثنية ٣ : ٤ – ٥ .
(٣) تكوين ١٧ : ٢٣ – ٢٧ .
(٤) تكوين ٢٠ : ١ .
(٥) تكوين ٢١ : ٢ – ٤ .
(٦) تكوين ٢١ : ٩ – ١١ .

« وقال الله لإبراهيم لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك فى كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها . لأنه بإسحاق يدعى لك نسل وابن الجارية أيضًا سأجعله أمة لأنه نسلك[1] .

فبكّر إبراهيم صباحًا وأخذ خبزًا وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعًا إياهما على كتفها والولد وصرفها . فمضت وتاهت فى برية بئر سبع . ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار . ومضت وجلست مقابله بعيدًا نحو رمية قوس . لأنها قالت لا أنظر موت الولد . فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت . فسمع الله صوت الغلام . ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك يا هاجر . لا تخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو . قومى واحملى الغلام وشدّى يدك به لأنى سأجعله أمة عظيمة . وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء . فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام . وكان الله مع الغلام فكبر ، وسكن فى البرية ، وكان ينمو رامى قوس . وسكن فى برية فاران وأخذت أمه له زوجة من أرض مصر[2] .

ولم تعرض التوراة لذكر إسمعيل بعد ذلك إلّا فى موضعين حين ذكرت وفاة إبراهيم فدفنه ابناه إسحق وإسمعيل[3] . وحين ذكرت بنى إسمعيل بأسمائهم حسب مواليدهم « نبايوت بكر إسمعيل وقيدار وأدبئيل ومبسام ومشماع ودومة ومسا وحدار وتيما وبطور ونافيش وقدمة . هؤلاء هم بنو إسمعيل وهذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم اثنى عشر رئيسًا حسب قبائلهم »[4] .

---

(١) تكوين ٢١ : ١٢ - ١٣ .
(٢) تكوين ٢١ : ١٤ - ٢١ .
(٣) تكوين ٢٥ : ٨ - ٩ .
(٤) تكوين ٢٥ : ١٢ - ١٦ .

ولا نحب أن نعرض لرواية التوراة عن الأرض التى نزلت هاجر بابنها إسمعيل ولا عن زوجه المصرية التى زوجته أمه هاجر فإن القرآن والتاريخ يقصّ من أمرهما ما يختلف فى تفاصيله مع رواية التوراة فإن إبراهيم قد خلف هاجر وولدها فى واد يبعد كثيرًا عن برية بئر سبع نحو الجنوب وكان نبع زمزم فى ذلك الوادى البعيد ولكن هل كانت برية بئر سبع تمتد حينذاك فتشمل كل بلاد العرب الشمالية ؟ وليس فى ذلك غرابة إذ أن برية بئر سبع هى الامتداد الطبيعى نحو الشمال للصحراء العربية وفى هذا الطريق المار بمكة وبرية بئر سبع كانت ترتحل قوافل التجارة بين الشمال والجنوب .

ومن ولد إسمعيل كانت العرب العدنانية ومن نسل إسحق كان بنو إسرائيل وقد ولد لإسحق توءمان « خرج الأوّل أحمر كله كفروة شعر الرأس فدعوا اسمه عيسو . وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعى اسمه يعقوب[1] .

ونال يعقوب بركة أبيه إسحق دون أخيه عيسو . وارتحل يعقوب إلى فدان آرام بالعراق ليتزوج من بنى خؤولته وفى عودته من العراق بعد عشرين عامًا وفى بعض وحدته خرج عليه إنسان « وصارعه حتى طلوع الفجر . ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب فى مصارعته معه . وقال أطلقنى لأنه قد طلع الفجر فقال لا أطلقك إن لم تباركنى . فقال ما اسمك فقال يعقوب . فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت »[2] .

وأصبح يعقوب يدعى إسرائيل فكانت نسبة بنى إسرائيل إليه

---

(١) تكوين ٢٥ : - ٢٦ .

(٢) تكوين ٣٢ : ٢٤ - ٢٨ .

ومسماهم بعد ذلك . أما عيسو فأصهر إلى بنى إسمعيل وأخذ محلة بنت إسمعيل بن إبراهيم أخت نبايوت زوجةً له على نسائه ، ومن نسل عيسو كان الأدوميون سكان جبل سعير شرقى العربة التى سميت بأدوم[1] .

فإبراهيم إذن هو الجد الأعلى للإسماعيليين والقطوريين والإسرائيليين وقد نزح إبراهيم كما قلنا من أور الكلدانيين إلى أرض كنعان فدعى بالعبرى أى الذى جاء عبر الفرات[2] ودعى آله بالعبريين ، وفى تعليل آخر أن عبرى معناها ساكن البادية أو الصحراء[3] وجاءت فى مدوّنات تل العمارنة بمعنى القبائل الرحل وكان منها من يحترف الجندية ويصبح من الجنود المرتزقة[4] .

وعلى ذلك نستطيع أن نقول إن العبريين هم أحد الفروع العربية التى نزحت إلى الهلال الخصيب فى أزمنة متفاوتة وأن نسب كل من هذه الفروع العربية النازحة التى استقرت وتحضرت إلى أقرب آبائها أو للمناسبة التى نزحت فيها أو للمدينة التى سكنتها فعرفوابهذه الأسماء العديدة التى تطالعنا للقبائل والشعوب العربية فى الهلال الخصيب أو فى الجزيرة العربية ذاتها فإن هذا لا يغير من حقيقة أنها كلها تنتسب إلى أصل واحد وأنها انحدرت جميعًا من الجزيرة العربية ، وإن لم يطلق عليها مسمّى عرب فلأن كلمة عرب لم تكن تطلق إلاّ على الأعراب أو سكان البادية ، ولو كانت تطلق بالمعنى الشامل الذى تطلق به الآن لعرفت هذه الشعوب كلها كما تعرف اليوم باسم العرب ولأصبحت كلمة عرب دليلاً على المعنى القومى الذى يراد لها الآن .

---

(١) قاموس الكتاب المقدس ١ - ٥٣ .

(٢) Learsi, Rufus : P.4

(٣) إسرائييل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص ٧٧ .

(٤) العقاد : أبو الأنبياء ص ١٦٢ .

والعبرى واليهودى كلمتان لا تعنيان أصلاً واحدًا ، فاليهودية نسبة إلى اليهود وتعنى الذين يدينون باليهودية كدين وهى فى الأصل نسبة إلى دولة يهودا وكان الفرس أوّل من أطلقها على الإسرائيليين حين نسبوهم إلى دولتهم وليس إلى يعقوب الذى سماه ملاك الرب إسرائيل ومن صلبه خرج الأسباط الاثنتى عشرة كل سبط أصبح أصلا لقبيلة من قبائل إسرائيل والعبرية من عبرى ولا تعنى كاليهودية دينًا كما لا تعنى جنسية معينةً ، وقد أطلقها الكنعانيون على إبراهيم وذويه ثم أصبحت تعنى من يدين باليهودية كما تعنى اللغة التى يتكلمها الإسرائيليون ، إلاّ أن اللغة العبرية لم تكن فى الأصل لغة إبراهيم بل كانت لغة الكنعانيين . فقد كان إبراهيم يتكلم لغة يقال إنها السريانية حتى غدت العبرية لغة اليهود مقدسة تثير فى نفوسهم من ذكريات الماضى البعيد ما تثيره أرض الميعاد وأورشليم والمعبد فيحفظون تراثها ويحيون آدابها ويربطون بينها وبين ماضيهم ويصبح إحياء اللغة العبرية كالعودة إلى أرض الميعاد أمل اليهود المقدس ولبّ الدعوة الصهيونية فى خرافة القومية اليهودية .

فالعرب والعبريون أبناء عمومة ينحدرون من صلب واحد صلب سام بن نوح ومن صلب إبراهيم وأبنائه انحدرت شعوب عربية كثيرة كما انحدر بنو إسرائيل أحفاد يعقوب .

وما يجرى على إسرائيل من وعود الرب يجرى على غيرهم من أبنائه وأحفاده فإذا تحيّف اليهود على التوراة وقصروا وعود الرب عليهم فهو اجتراء على تفسير الوعود بغير ما قصدت ومارمت إليه وإذا كان لبنى إسرائيل ميزة على أبناء عمومتهم العرب فهى الميزة التى كانت لسارة ولولدها إسحق لدى إبراهيم وهى الميزة التى اغتصبها يعقوب وكانت حقًا لعيسو عند أبيهما إسحق فقد كان فى نية إسحق أن يخلف ابنه عيسو وكان يؤثره على يعقوب ولكن حب أمهما ليعقوب جعلها تحتال له لينال بركة أبيه

بدل عيسو . ونرى أن المرأة لعبت دورها فى كلا الحالين على غير هوى الرجل فسارة هى التى حملت إبراهيم على طرد هاجر وابنها إسمعيل ، ورفقة زوجة إسحق هى صاحبة الحيلة التى احتال بها يعقوب على أبيه والإيثار كان لحمل الدعوة والسير بالنبوة ولم يكن إيثارًا بالإرث والملك والزعامة .

الفصل الثالث

الوعد المقدس

إبراهيم أب العرب وأب الأنبياء جميعًا ، وهو إبرام قبل أن يدعى إبراهيم بأمر الرب[1] ، ولد فى أورالكلدانيين ونشأ بها ونزح منها مع أبيه وابن أخيه لوط إلى حاران[2] حتى عبر منها بأمر الرب إلى كنعان[3] فدعى بالعبرى ودعى قومه بالعبريين وظلّ إبراهيم يتجوّل فى أرض كنعان غريبًا فيها وانحدر منها إلى مصر حين أصابت البلاد مجاعة ونال فيها خيرًا « فصار له غنم وبقر وحمير وإماء وأتن وجمال »[4] ثم صعد من مصر إلى أرض كنعان إلى حيث أقام مذبح الرب ونصب خيمته فى البداية بين بيت أيل وعاى[5] .

وكان أوّل وعد الرب لإبراهيم حين أمر بالعبور إلى كنعان « وقال الرب لإبرام اذهب من أرضك وعشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك . فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك . وتكون بركة . وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه . وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض[6] .

---

(١) تكوين ١٧ : ٥ .
(٢) تكوين ١١ : ٢٧ – ٢٩ .
(٣) تكوين ١١ : ٣١ ، ١٢ : ١ – ٩ .
(٤) تكوين ١٢ : ١٦ .
(٥) تكوين ١٣ : ٣ .
(٦) تكوين ١٢ : ١ – ٢ .

وحق وعد الله فكان من نسل إبراهيم أمة هى أمة العرب كما كان بنو إسرائيل بعض نسله ، وكان منه الأنبياء والرسل ، وبورك اسمه فى كل دين ، ومن رسالته أهلت كل رسالات السماء ، اليهودية والنصرانية والإسلام .

ولم يلعن من آل إبراهيم غير اليهود فقد ضلّوا هديه ، وامتهنوا رسالته ، وحوروها عنصرية هوجاء ماكرة ، فاستباحوا فيها كل فضائل البشر .

ثم كان وعد الرب لإبراهيم بالأرض التى هو عليها وكانت أرض كنعان ، فلسطين ، وكان هذا أوّل وعد بأن تكون فلسطين لذرية إبراهيم . « وظهر الرب لإبرام وقال لنسلك أعطى هذه الأرض . فبنى هناك مذبحًا للرب الذى ظهر له[1] .

والمعنى واضح فى « نسلك » فإنها تشمل كلّ نسل إبراهيم لا بعضه كما يريد اليهود لها أن تكون .

وكان هذا الوعد قبل أن يرزق إبراهيم ولدا أو ذرية ولم يكن إسماعيل وإسحاق قد ولدا بعد .

وتكرر الوعد قبل مولدهما أيضًا وكان ذلك حين اعتزل إبراهيم لوطا واختار لوط لنفسه كل دائرة الأردن وارتحل شرقًا . واعتزل كلاهما الآخر . إبراهيم سكن فى أرض كنعان ولوط سكن فى مدن الدائرة ونقل خيامه إلى سدوم « وقال الرب لإبرام بعد اعتزال لوط عنه . ارفع عينيك وانظر من الموضع الذى أنت فيه شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا ؛ لأن جميع الأرض التى أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد . واجعل نسلك كتراب الأرض . حتى إذا استطاع أحد أن يعد تراب الأرض فنسلك أيضًا يعد . قم امش فى الأرض طولها وعرضها لأنى لك أعطيها . فنقل إبرام

(١) تكوين ١٣ : ٧ .

خيامه وأتى وأقام عند بلوطات ممرا التى فى حبرون . وبنى هناك مذبحًا للرب[1] .

وفى هذا الوعد تخرج كل دائرة الأردن شرقًا من أرض الميعاد ويقف الوعد بأرض الميعاد عند حدود الأرض التى يراها إبراهيم فى جهاتها الأربع .

وحين بشر إبراهيم بالإرث لنسله ولمن « يخرج من أحشائه[2] » كان إسمعيل أوّل من ولد له بعد ما طلبت منه زوجه سارة أن يدخل بجاريتها هاجر حتى يكون له منها نسل بعد أن ظلت عقيمًا ، وجاء الوعد بهذا الإرث محددًا « فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقًا قائلاً . لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات . القينيين والقنزيين والقدمونيين . والحيثيين والفرزيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين[3] .

واقتران الوعد هنا بمولد إسمعيل أو البشرى بمولده وبالإرث لإبراهيم من صلبه يعنى أن الوعد كان لإسمعيل والإرث له فإذا عم الإرث أبناء إبراهيم جميعًا فمعنى ذلك أنه ليس لإسحق أو لنسله من يعقوب أو (إسرائيل) وحدهم بل هو للعرب أيضًا وهم نسل إبراهيم .

وفى رواية التوراة مصداق ذلك وتوكيد له ففى الكثرة التى يشير بها الرب إلى نسل إبراهيم ما ينطبق على نسل إسمعيل دون نسل إسحق ، فقد أصهر أبناء إسمعيل إلى أبناء أخيه إسحق حين تزوج عيسو شقيق يعقوب وابن إسحق من محلة ابنة إسمعيل أما يعقوب فقد أصهر إلى أبناء

(١) تكوين ١٣ : ١٤ - ١٨ .
(٢) تكوين ١٥ : ٤ .
(٣) تكوين ١٥ : ١٨ - ٢٠ .

خؤولته من الكلدانيين وبعدت نسبة الإرث من إبراهيم إليه بينما اقتربت بزواج عيسو بن إسحق من محلة ابنة اسمعيل .

واجتمع فى نسلها أكثر أبناء إبراهيم وكانوا هم الكثرة وأبناء يعقوب وهو إسرائيل القلة وكانت كثرتهم مصداق ما بشرّ به الرب إبراهيم « وقال إبرام أيضًا إنك لم تعطنى نسلًا وهو ذا ابن بيتى وارث لى . فإذا كلام الرب إليه قائلًا . لا يرثك هذا . بل الذى يخرج من أحشائك هو يرثك . ثم أخرجه إلى خارج . وقال انظر إلى السماء وعد النجوم إن استطعت أن تعدها . وقال له هكذا يكون نسلك[1] » .

ثم دخل إبراهيم بهاجر لتلد له بِكْره إسمعيل ويقترن هذا الوعد بمولده ويكثر أبناؤه حتى يصبحوا عدد نجوم السماء كما وعد الرب وتكون منهم أمة العرب التى امتدت وملأت بقاع تلك الساحة الرحيبة التى تعرف بالعالم العربى اليوم ، وذهب أبناء إسحق من الإسرائيليين قلّة ، بددًا فى كلّ صقع من أصقاع الأرض .

وكان عهد الختان ، ختان إسمعيل ، ولم يكن إسحق قد ولد بعد ، ولا يمكن أن ترتبط النبوءة بمن كان فى ضمير الغيب لا يعلم عنه أبوه شيئًا ولا تعلم أمّه سارة أن الله سيفكّ عسرتها ويأسو عقمها لتلد إسحق وقد نيف إسمعيل على الثالثة عشرة من عمره « ولما كان إبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لإبرام وقال له أنا الله القدير . سر أمامى وكن كاملًا . فاجعل عهدى بينى وبينك وأكثرك كثيرًا جدًّا . فسقط إبرام على وجهه . وتكلم الله معه قائلًا . أما أنا فهو ذا عهدى معك وتكون أبًا لجمهور من الأمم . فلا يدعى اسمك بعد إبرام بل يكون اسمك إبراهيم ؛ لأنى أجعلك أبًا لجمهور من الأمم . وأثمرك كثيرًا جدًّا وأجعلك

---

(١) تكوين ١٥ : ٣ – ٥ .

أممًا وملوك منك يخرجون . وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهدًا أبديًّا لأكون إلهًا لك ولنسلك من بعدك . وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكًا أبديًّا ، وأكون إلههم »[1] .

ثم يعاهده الله على الختان « هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك . يختن منكم كل ذكر . فتختتنون فى لحم غرلتكم ، فيكون علامة عهد بينى وبينكم . ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر فى أجيالكم ، وليد البيت والمبتاع بفضه من كل ابن غريب ليس من نسلك . يختن ختانا وليد بيتك والمبتاع بفضتك ، فيكون عهدى فى لحمكم عهدًا أبديًّا . وأما الذكر الأغلف الذى لا يختن فى لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها . إنه قد نكث عهدى [2]» .

وفى عهد الختان هذا ، يبشر الله إبراهيم بحمل سارة ومولد إسحق « وقال الله لإبراهيم ساراى امرأتك لا تدعو اسمها ساراى بل اسمها سارة . وأباركها وأعطيك أيضًا منها ابنا . أباركها فتكون أمما وملوك شعوب منها يكونون »[3] .

ونرى من سياق الوعود والعهود ، أن الوعد بأرض كنعان لنسل إبراهيم قد سبق بشراه تعالى لإبراهيم بحمل سارة ومولد إسحق ، ثم كان عهده بعد ذلك لأبناء سارة « أباركها فتكون أمما وملوك شعوب منها يكونون » ما يؤكد أن عهد الختان كان لإسمعيل وحده وإلّا ما كان هناك عهد جديد لإسحق إذا كان عهد الختان يشمل ذرية إبراهيم جميعًا من ولد

---

(١) تكوين ١٧ : ١ - ٨ .
(٢) تكوين ١٧ : ١٠ - ١٤ .
(٣) تكوين ١٧ : ١٥ - ١٦ .

ومن لم يولد بعد من هاجر أو سارة أو قطورة ، وإن كانت كلمة نسل لا تعنى التحديد والتخصيص بل الجمع والشمول .

ولا يمكن القول بأن ولادة إسحق قد مسّت حقّ إسمعيل أو أن ارتحال هاجر بولدها إسمعيل عن أرض كنعان نحو الجنوب قد حرمه من إرث النبوءة أو الوعد أو نسخ عهد الختان ، فإن كان الرب قد استجاب لسارة ففى التفريق بينها وبين هاجر لا فى حرمان إسمعيل من إرث أبيه إبراهيم « ورأت ساره ابن هاجر المصرية الذى ولدته لإبراهيم يمزح ، فقالت اطرد هذه الجارية وابنها ، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحق ، فقبح الكلام جدًّا فى عينى إبراهيم لسبب ابنه . فقال الله لإبراهيم لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك . فى كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها . لأنه بإسحق يدعى لك نسل . وابن الجارية أيضًا سأجعله أمة لأنه نسلك[1] » .

والمعنى واضح فى ثبوت حق الغلامين قبل إبراهيم فكلٌّ منهما سيكون له نسل ينسب إلى أبيهما إبراهيم أما إسمعيل فقد تميّز بأن سيكون من نسله أمة وتعنى الجمع أو الكثرة ثم نسبة هذه الأمة إلى إبراهيم لأنه نسله ، وأما كلمة النسل فتعنى التحديد أو القلة ، وقد كان من إسمعيل أمّة هى أمة العرب وكان من إسحق نسل هم بنو إسرائيل .

ولا تعرض إشارة الرب فى تلك الآيات إلى أرض الميعاد التى وعد الرب بها إبراهيم من قبل بل ولا يتكرر الوعد بعد ذلك فيما تلا من حياة إبراهيم ، وظلّ عهد الختان جماع الوعد المقدس بأرض الميعاد .

وقد ادعى الإسرائيليون من أبناء إسحق بعد ذلك أن ذرية إبراهيم

---

(١) تكوين ٢١ : ٩ – ١٧ .

تعنيهم وحدهم مع أن الختان الذى عقد عليه العهد بين الرب وإبراهيم كان ختان إسمعيل ، لا إسحق .

ولم يحدث تفريق بين إسمعيل وإسحق حين مات إبراهيم فقد اشتركا معًا فى دفنه « ودفنه إسحق وإسمعيل ابناه فى مغارة المكفيلة فى حقل عفرون بن صوحر الحثى الذى أمام ممرا »[1] . ولما ذكر سفر التكوين أبناء إسمعيل ذكر بعدهم أبناء إسحق[2] .

ويغفل العهد القديم بعد ذلك ذكر إسمعيل إلاّ أنه لا يذكر فى أى سفر من أسفاره بعد ذلك ما يفيد أو يشير إلى حرمان إسمعيل أو ذريته من عهد الرب مع إبراهيم كما لا يذكر العهد القديم بعد ذلك أيضًا ما يفيد حرمان إسمعيل من عهد الرب مع إبراهيم وكل إشارة إلى إسرائيل بأرض الميعاد جاءت قرينة العهد الذى عاهد الرب عليه أباهم إبراهيم فقد كانت كلها من قبيل التذكير بوعد الرب لإبراهيم وذريته وكانت جميعًا قاصرة على أرض الكنعانيين وجيرانهم من الحيثيين والفرزيين واليبوسيين[3] ولم يرد ما يشير إلى تخوم أرض الميعاد وامتدادها من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات إلاّ إشارات مبهمة تصعد حينًا إلى لبنان وأحيانًا إلى قادش والأردن وبحور وأنهار مجهولة وحين أشير إلى نوع من الحدود كانت تلك الحدود من « بحر سوف إلى بحر فلسطين ومن البرية إلى النهر »[4] وهى حدود لا شك غامضة .

ولا نجد فى سفر التكوين ما يشير إلى وعد من الرب لإسحق بأرض الميعاد بل حين ظهر له الرب بعد سنين من وفاة إبراهيم لم يمنحه غير

---

(١) تكوين ٢٥ : ٩ .
(٢) تكوين ٢٥ : ١٢ - ٢٦ .
(٣) خروج ٣٣ : ١ - ٢ . .
(٤) خروج ٢٣ : ٣١ .

البركة « فظهر له الرب فى تلك الليلة وقال أنا إله إبراهيم أبيك . لا تخف لأنى معك وأباركك وأكثر من نسلك من أجل إبراهيم عبدى »[1] ولم يزد الوعد ليعقوب عن الأرض التى هو مضطجع عليها « فخرج يعقوب من بئر سبع وذهب نحو حاران . وصادف مكانًا وبات هناك لأن الشمس كانت قد غابت . وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه فاضطجع فى ذلك المكان . ورأى حلمًا وإذا سلم منصوبه على الأرض ورأسها يمس السماء . وهو ذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها . وهو ذا الرب واقف عليها فقال أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحق . الأرض التى أنت مضطجع عليها لك ولنسلك . ويكون نسلك كتراب الأرض وتمتد غربًا وشرقًا وشمالاً وجنوبًا . ويتبارك فيك وفى نسلك جميع قبائل الأرض[2] » .

ولا يفيد الامتداد غربًا وشرقًا وشمالاً وجنوبًا نوعًا من التملك بل قد لا يعدو معنى الرحيل ، أما كثرة النسل فهى كثرة نسبية فإن الإسرائيليين كانوا على الدوام قلة إذا قيسوا بذرية إبراهيم من إسماعيل ومن أبنائه الآخرين الذين أصهروا إلى الإسماعيليين ، وليس لمسيحى أو مسلم أن ينكر بركة إسرائيل فقد تقدس إبراهيم وكل ذريته فى المسيحية والإسلام .

ويتكرر الوعد مرّة أخرى ليعقوب فى صورة تكاد تكون محدّدة ولكنها لا تعنى حرمان غيره من ذرية إبراهيم من إرث أبيهم « وقال له الله أنا الله القدير أثمر وأكثر . أمة وجماعة أمم تكون منك . وملوك سيخرجون من صلبك . والأرض التى أعطيت إبراهيم وإسحق لك أعطيها . ولنسلك من بعدك أعطى الأرض »[3] فإن يعقوب نفسه حين حضرته الوفاة لم يسوّ بين أبنائه فى نوال بركته وجعل لكل منهم وهم الذين عرفوا بأسباط إسرائيل

---

(١) تكوين ٢٦ : ٢٣ – ٢٤ .

(٢) تكوين ٢٨ : ١٠ – ١٤ .

(٣) تكوين ٣٥ : ١١ – ١٢ .

الاثنى عشر من بركته على قدر ما رأى فيهم[1] .

وحين اختار الله موسى نبيًا لبنى إسرائيل ليقودهم من مصر إلى أرض كنعان وهو من نسل لاوى من يعقوب ، وكان يعقوب قد حرم ابنه لاوى من بركته « شمعون ولاوى أخوان . ألات ظلم سيوفهما . فى مجلسهما لا تدخل نفسى . بمجمعهما لا تتحد كرامتى لأنهما فى غضبهما قتلا إنسانا وفى رضائهما عرقبا ثورا . ملعون غضبهما فانه شديد وسخطهما فإنه قاس . أقسمهما فى يعقوب وأفرقهما فى إسرائيل[2] » . ولا نجد تفسيرًا لحرمان لاوى من بركة أبيه ثم تكون الرسالة بعد ذلك فى عقبه أمًا وأبًا . « وذهب رجل من بيت لاوى وأخذ بنت لاوى . فحبلت المرأة وولدت ابنا[3] » وكان هذا الولد موسى كما تجرى الرواية بذلك ، ولا نجد تفسيرًا لحرمان لاوى من بركة يعقوب ثم انتهاء البركة إليه بولادة موسى ، إلّا أن يكون بعض ما جاء على لسان يعقوب قد حرف تحريفًا شديدًا ، بل إن هناك من يقول إن وعد الرب ليعقوب بوراثة إبراهيم وإسحق كان لتبرير اغتصاب يعقوب بحيلة أمه لحق أخيه عيسو .

ثم إن موسى نفسه فى رحيله إلى مدين (مديان) فارًا من وجه فرعون قد أصهر إلى كاهنها يثرو وهو رجل عربى عرف فى التوراة باسم « يثرون » وفى القرآن باسم شعيب وإلى يثرو يعزى أكثر ما نال موسى من نجاح . فإذا كانت هناك بركة لإسرائيل أو إرث ، فقد شارك فيهما عربى من غير إسرائيل بل لعله من ذرية إبراهيم أولاد قطورة الذين ارتحلوا جنوبًا أو من نسل مديان بن إبراهيم من قطورة بالذات .

---

(١) تكوين ٤٩ : ١ – ٣٣ .
(٢) تكوين ٤٩ : ٥ – ٧ .
(٣) خروج ٢ : ١ – ٢ .

ولما تجلّى الرب لموسى فى طور سيناء وحمله رسالة الخروج بإسرائيل من أرض مصر إلى أرض كنعان لم يرد فى كلام الرب ما يفيد أن الصعود إلى أرض كنعان كان يعنى ملكيتهم لها ، بل كان الصعود للتحرر من استعباد المصريين لهم والخلاص من ظلمهم « أما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان . فساق الغنم إلى وراء البرية وجاء إلى جبل الله حوريب . وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة . فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق . فقال موسى أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم . لماذا لا تحترق العليقة . فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه الله من وسط العليقة وقال موسى موسى . فقال هأنذا . فقال لا تقترب إلى ههنا . اخلع حذاءك من رجليك . لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة .

ثم قال أنا إله أبيك إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب ، فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله . فقال الرب إنى قد رأيت مذلّة شعبى الذى فى مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخّريهم . إنى علمت أوجاعهم . فنزلت لأنقذهم من أيدى المصريين وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة . إلى أرض تفيض لبنًا وعسلاً . إلى مكان الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين[1] » .

فإذا تتبعنا ما جاء من تذكير الرب لموسى وقومه بأرض الميعاد نجد أن

---

(١) خروج ٣ : ١ - ٨ .

- لعل من المناسب فى هذا المقام أن نذكر ما جرت به آيات القرآن عن ذلك :

(وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى نارًا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارًا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودي ياموسى . إنّى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إنّنى أنا الله لا إله إلاّ أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى . إنّ الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى .) (طه : ٩ - ١٥) .

المعنى يختلف عما أراد بنو إسرائيل من تفسير الوعد تفسيرًا ماديًا يقوم على التملك والإرث ولا شيء سواهما ، بينما الدلالة بينة على معنى آخر . هو القداسة والكهانة وطاعة الرب والإرث للطاعة وليس الإرث لمن يضل كائنًا ما كان شأنه فى بنى إسرائيل . فالقداسة هى قداسة الله الواحد الأحد والكهانة هى خدمة الله فى محاريبه والقيام على وصاياه وتعاليمه والإرث فى نعم الله هى لمن يطيع الله فى أوامره ونواهيه ، وقد كانت الرسالة لإبراهيم فى ذريته ومات عنها وبركته مشاع بين بنيه ، فلما حملها إسحق من بعده كان يحب أن تكون بركته لبكره عيسو دون يعقوب ، ولكن أمهما رفقة كانت تحب يعقوب أكثر مما تحب عيسو احتالت حتى تحل البركة فى يعقوب بدل عيسو « وحدث لما شاخ إسحق وكلّت عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له يابنى . فقال هأنذا . فقال إننى قد شخت ولست أعرف يوم وفاتى . فالآن خذ عدتك جعبتك وقوسك واخرج إلى البرية وتصيد لى صيدًا . واصنع لى أطعمة كما أحب وائتنى بها لآكل حتى تباركك نفسى قبل أن أموت .

وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحق مع عيسو ابنه . فذهب عيسو إلى البرية كى يصطاد صيدًا ليأتى به . وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة إنّى سمعت أباك يكلّم عيسو أخاك قائلًا ائتنى بصيد واصنع لى أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتى . فالآن يابنى اسمع لقولى فيما أنا آمرك به . اذهب إلى الغنم وخذ لى من هناك جديين جيّدين من المعزى فاصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب . فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته »[1]

وتمضى الرواية فتقول إن يعقوب خشى أن يكشف أبوه حيلته فتحلّ به

---

(١) تكوين ٢٧ : ١ - ١١ .

اللعنة بدل البركة ولكن رفقة شجعته وطمأنته وأعدّت له من ثياب عيسو ما يخفيه ومن سمة التنكر ما يجعله شبيهًا بعيسو ، ودخل يعقوب على أبيه فى هيئته الجديدة فأطعمه ونال بركته ولم يكن عيسو قد آب من صيده[1] .

فالإرث هو إرث البركة أو الرسالة وليس إرث الأرض ، والأرض للمؤمنين من عباد الله والاختيار لمن اختارهم الله لعبادته ، وقد اختار الله بنى إسرائيل من ذرية إبراهيم لتكون رسالة إسحق ويعقوب وموسى إليهم ، حتى إذا حلّت الرسالة فى المسيح عيسى بن مريم نسخت ميزة الاختيار عن إسرائيل وأصبحت الرسالة للناس كافةً وأضحى ملكوت الله لكل من عبد الله على الأرض من ذرية إبراهيم أو غير ذريته ، ومريم هى ابنة عمران وينتهى نسب عمران إلى إبراهيم أيضًا ، ثم كانت رسالة محمد للناس كافّةً فنسخت إلى الأبد حقّ الاختيار والميزة التى كانت لذرية إبرهيم على غيرهم ولم يعد لعربىٍّ فضل على عجمىٍّ إلّا بالتقوى ، ومحمد من ذرية إبراهيم ينتهى نسبه إلى إسمعيل .

فإذا كان بنو إسرائيل هم شعب الله المختار فقد كان هذا حين كانت رسالة الأنبياء إليهم وحدهم ، وحين عمّت الرسالة انسحب الاختيار إلى كلّ من آمن بالله واليوم الآخر إسرائيليًّا كان أم مسيحيًّا أم مسلمًا . والمختار هو المختار للرسالة وليس للتميز أو التفضيل على البشر .

أما إبراهيم وذريته فقد ظلّ إرث البركة أو الرسالة فيهم وحدهم حتى محمد آخر الأنبياء وأصبحت أرض البركة أو أرض الرسالة أو أرض الميعاد وهى قدس الأديان السماوية جميعًا ، هى إرث المؤمنين من عباد الله لا إرث إسرائيل وحدها ، وحين خصّ الله بها بنى إسرائيل على غيرهم من الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين فلأنهم

---

(١) تكوين ٢٧ : ١٢ – ٣٨ .

هم وحدهم من خصهم الله بعبادته فى ذلك الوقت ولم يرد الله لأرض قدسه أن تكون لغير المؤمنين فأصعد إليها بنى إسرائيل لتكون لهم أرضًا وسكنًا بدل شعوب أو قبائل تعبد الأصنام من دونه تعالى ، وحرّم عليهم عشرة أهلها حتى لا تعدو عليهم الوثنية بعد عبادة الله ، « لا تقطع معهم ولا مع آلهتهم عهدًا . لا يسكنوا فى أرضك لئلّا يجعلوك تخطئ إلى . إذا عبدت آلهتهم فإنه يكون ذلك فخا[1] »

وأوصاهم الرب بطاعته والخضوع لشريعته فمن ضلّ منهم يقطع من شجرته ويذهب ملعونًا فى الأرض « احفظ ما أنا موصيك اليوم . ها أنا طارد من قدامك الأموريين والكنعانيين والحيثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين . احترز من أن تقطع عهدًا مع سكان الأرض التى أنت آت إليها لئلا يصيروا فخا فى وسطك . بل تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم . فإنك لا تسجد لإله آخر . لأن الرب اسمه غيور . إله غيور هو . احترز من أن تقطع عهدًا مع سكان الأرض . فيزنون وراء آلهتهم ويذبحون لآلهتهم فتدعى وتأكل من ذبيحتهم . وتأخذ من بناتهم لبنيك . فتزنى بناتهم وراء آلهتهن ويجعلن بنيك يزنون وراء آلهتهن[2] .

وفى اللاويين « بكل هذه لا تتنجسوا لأنه بكل هذه قد تنجس الشعوب الذين أنا طاردهم من أمامكم . فتنجست الأرض . فأجتزى ذنبها منها فتقذف الأرض سكانها . لكن تحفظون أنتم فرائضى وأحكامى ولا تعملون شيئا من جميع هذه الرجسات لا الوطنى ولا الغريب النازل فى وسطكم . لأن جميع هذه الرجسات قد عملها أهل الأرض الذين قبلكم فتنجست الأرض فلا تقذفكم الأرض بتنجيسكم إياها كما قذفت الشعوب

---

(١) خروج ٢٣ : ٢١ – ٢٣ .

(٢) خروج ٣٤ : ١١ – ١٨ .

التى قبلكم . بل كل من عمل شيئًا من جميع هذه الرجسات تقطع الأنفس التى تعملها من شعبها . فتحفظون شعائرى لكى لا تعملوا شيئا من الرسوم الرجسة التى عملت قبلكم ولا تتنجسوا بها . أنا الرب إلهكم[1] » .

وإذا كان الله قد أنعم عليهم وفضلهم على العالمين فإن نذيره إليهم بالعذاب شديد إن خالفوا وصاياه ، وضلّوا عهده . « لكن إن لم تسمعوا لى ولم تعملوا كل هذه الوصايا وان رفضتم فرائضى وكرهت أنفسكم أحكامى فيا عملتم كلٍ وصاياى بل نكثتم ميثاقى فإنى أعمل هذه بكم . أسلط عليكم رعبًا وسلًا وحمّى تفنى العينين وتتلف النفس وتزرعون باطلًا زرعكم فيأكله أعداؤكم . وأجعل وجهى ضدكم فتنهزمون أمام أعدائكم ويتسلط عليكم مبغضوكم وتهربون وليس من يطردكم[2] .

ويستمر نذير الرب فيقول : « وإذا كنتم بذلك لا تسمعون لى بل سلكتم معى بالخلاف . فأنا أسلك معكم بالخلاف ساخطًا وأؤدبكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم . فتأكلون لحم بنيكم . ولحم بناتكم تأكلون . وأخرب مرتفعاتكم وأقطع شمساتكم وألقى جثثكم على جثث أصنامكم وترذلكم نفسى . وأصير مدنكم خربة ومقادسكم موحشة ولا أشتم رائحة سروركم . وأوحش الأرض فيستوحش منها أعداؤكم الساكنون فيها . وأذريكم بين الأمم وأجرد وراءكم السيف فتصير أرضكم موحشة ومدنكم خربة .. والباقون منكم ألقى الجبانة فى قلوبهم فى أراضى أعدائهم فيهزمهم صوت ورقة مندفعة فيهربون كالهرب من السيف ويسقطون وليس طارد . ويعثر بعضهم ببعض كما من أمام السيف وليس طارد ولا يكون لكم طارد ولا يكون لكم قيام أمام أعدائكم . فتهلكون بين

---

(١) لاويين ١٨ : ٢٤ - ٣٠ .

(٢) لاويين ٢٦ : ١٤ - ١٧ .

الشعوب وتأكلكم أرض أعدائكم . والباقون منكم يفنون بذنوبهم فى أراضى أعدائكم . وأيضًا بذنوب آبائهم معهم يفنون[1] .

فوعد الرب لم يكن مطلقًا من كل قيد أو شرط بل العهد على الإيمان والمحبّة وطاعة الله واتباع سواء السبيل ، فلمّا ضلّوا حلّ عليهم العذاب وحاقت بهم اللعنة فتاهوا فى البرية سنين عددا وحلّ بهم القحط والوباء « فى هذا القفر تسقط جثثكم جميع المعدودين منكم حسب عددكم من ابن عشرين سنة فصاعدًا الذين تذمروا على . لن تدخلوا الأرض التى رفعت يدى لأسكنكم فيها ما عدا كالب بن يفنة ويشوع بن نون . وأما أطفالكم الذين قلتم يكونون غنيمة فإنى سأدخلهم فيعرفون الأرض التى احتقرتموها . فجثثكم أنتم تسقط فى هذا القفر .وبنوكم يكونون رعاةً فى القفر أربعين سنة ويحملون فجوركم حتى تفنى جثثكم فى القفر . كعدد الأيام التى نجستم فيها الأرض أربعين يومًا للسنة يوم تحملون ذنوبكم أربعين سنة فتعرفون ابتعادى . أنا الرب قد تكلمت لأفعلن هذا بكل هذه الجماعة الشريرة المتفقة على . فى هذا القفر يفنون وفيه يموتون [2] » .

فأرض الميعاد هى لمن آمن بالله واليوم الآخر والإرث فيها للمؤمنين ، والاختيار هو للأرض وليس للشعب . والأرض هى الأرض المقدسة لا تنصب فيها أزلام أو أنصاب لعبادتها من دون الله ، وقد اختار الله من ذرية إبراهيم ليسكنوا تلك الأرض المقدسة لأن الرسالةكانت لإبراهيم ثم للمختارين من ذريته ؛ ولأن الله أراد لتلك الأرض أن تكون مطهرة طهورًا ، فاختار لها المطهرين ولم يكن غير بنى إسرائيل فى تلك الحقب من حظوا برسالة الرب ، حتى إذا انتقلت الرسالة إلى غيرهم من بطون

---

(١) لاويين ٢٦ : ٢٧ - ٣٣ ، ٣٦ - ٤٠ .

(٢) عدد ١٤ : ٢٩ - ٣٥ .

إبراهيم انتقلت إليهم الحظوة وأصبحوا هم المختارين ، وقد ادّعى اليهود الاختيار لأنفسهم فقالوا إنهم شعب الله المختار وكان ذلك حقًّا حين لم يكن غيرهم من يعبد الله ولكن الاختيار كان للإيمان برسالة الله ، أما الاختيار الأبديّ فهو للأرض المقدسة ، تلك الأرض التى غدت قدسًا ومحرابا لكل أديان السماء .

وقد وعد الله ألا يدخل إلى الأرض المختارة من بنى إسرائيل إلاّ كل من آمن واتقى وعمل صالحًا أما المرتدّون فقد أفناهم قبل أن تطأها أقدامهم ، بل إن غضب الرب الذى لحق بهم قد لحق بموسى نفسه فلم يدخل الأرض المختارة ومات وهو على أبوابها . « وغضب الرب على بسببكم وأقسم أنى لا أعبر الأردن ولا أدخل الأرض الجيدة التى الرب إلهك يعطيك نصيبا . فأموت أنا فى هذه الأرض . لا أعبر الأردن . وأما أنتم فتعبرون وتمتلكون تلك الأرض الجيدة . احترزوا من أن تنسوا عهد الرب إلهكم الذى قطعه معكم وتصنعوا لأنفسكم تمثالا منحوتا صورة كل ما نهاك عنه الرب إلهك ؛ لأن الرب إلهك هو نار آكله إله غيور[1] » .

فاختيار إسرائيل كان اختيارًا موقوتًا بالرسالة فلما خرجت الرسالة منهم زال الاختيار عنهم ، وليس فى عبارة « لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد[2] » وهى التى يستند إليها الإسرائيليون دليلاً على أبديّة ملك إسرائيل ، ما يفيد معنى الأبدية أو الاستمرار فكلمة « أولام » العبرية لا تعنى إلى الأبد وإنما تحمل معنى القدم وتعنى الزمن الطويل ، هذا إذا أخذنا بتفسير الإسرائيليين لوعد الرب المقدس وأنه لإسرائيل من دون ذرية إبراهيم وليس لكل ذرية إبراهيم .

---

(١) تثنية ٤ : ٢١ - ٢٤ .

(٢) تكوين ١٣ : ١٥ .

وثمة حقيقة أخرى تبرز من ثنايا المقارنة بين ما وعد الله به إبراهيم فى عهد الختان وبين ما وعد به يعقوب وموسى من أنبياء إسرائيل ، ففى عهد الختان تمتدّ أرض الميعاد من « نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » بينما لم يزد الوعد ليعقوب وموسى وأنبياء إسرائيل على أرض كنعان وما حواليها من أراضى الحيثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين مما يقع على ضفتى الأردن أو يمتد أحياناً ليضم بقاعًا من لبنان وفلسطين وبعض بلاد سورية ولكنه لا يشمل كل هاتيك البقاع كاملة . فقد انتشر أبناء إبراهيم وذريته فى كل تلك البقاع قبل أن يصعد الإسرائيليون إلى أرض كنعان إلى الغرب من الأردن ، فارتحلت هاجر بولدها إسمعيل إلى الجنوب من برية فاران وتكاثر نسل إسمعيل فكانت منه العرب العدنانية ، وسكن أولاد قطورة فيما يبدو إلى الجنوب من فلسطين وإلى أحد بطونهم أصهر موسى . أما أبناء عيسو فكان من نسلهم الأدوميون سكان جبل سعير ، غرب العربة أو بلاد العرب ، ولم يبق غير بنى إسرائيل من ذرية إبراهيم بعيدًا عن الأرض التى وعد الله بها أباهم إبراهيم ، فقد ارتحلوا إلى مصر بأبيهم يعقوب ليقيموا فى حمى أخيهم يوسف بعد أن أمنه فرعون مصر على خزائنه وأمواله وأقوات شعبه وأصبح له من الجاه والسلطان فى حمى فرعون ما لفرعون نفسه . وأقام بنو إسرائيل فى مصر زمنًا ، اثنا عشر سبطا لأبيهم يعقوب أو إسرائيل ، وطاب نسلهم وتكاثرت ذريتهم ، ثم استرقهم المصريون وساموهم سوء العذاب ، حتى كتب الله لهم الخلاص على يد موسى فصعد بهم إلى الأرض التى وعد الله بها أباهم إبراهيم ، أرض كنعان التى « تفيض لبنًا وعسلًا » ، ليجتمع فى أرض الميعاد كلُّ ذرية إبراهيم فلا يبقى منهم نزيل فى أرض غريبة ، وليكون وعد الله حقًا على المؤمنين .

وقد قسمت الأرض على أسباط بنى إسرائيل[1] كما لو كانت أرض نتفاع يقيمون فيها ويزرعونها ويعيشون على خيرها ولم يكن لأىّ سبط منها حق على أرض غيره من الأسباط الآخرين ، بل إن التقسيم كان بقصد الانتجاع والاستقرار كما استقرت ذرية إبراهيم الآخرون فى بقاع أخرى ، ولم يكن فى هذا الانتجاع والاستقرار ما يعنى إقامة دولة أو ملك فقد عاشت إسرائيل عيشة قبلية حتى بعد أن اختاروا لأنفسهم ملوكًا من بينهم ، ولم يحدث أن ملكت إسرائيل كل أراضى كنعان أو الفلسطينيين ولم يتح للملك إسرائيل أن يمتدّ ليسع بعض هذه البقاع إلاّ فى عهد داود وسليمان فقد وصل ملك داود إلى دمشق وعقد معاهدة صداقة مع حيرام ملك صور . وقبل أن ينتهى عهد سليمان أخذ ملكه فى التقلّص وعادت البلاد إلى أهلها وظلّ ملك إسرائيل يتهاوى حتى لم يبق من مملكة سليمان إلاّ بضع مئات من الأميال المربعة حول بيت المقدس استولى عليها البابليون عام ٥٨٦ ق. م .

فصعود إسرائيل إلى أرض كنعان كان إتمامًا لوعد الرب حتى تجتمع ذرية إبراهيم فى صعيد واحد من أرض الميعاد وليكون لإسرائيل ما كان لأبناء عمومته من نصيب فى الأرض المقدسة . وليس هناك ما يدعو إلى احتمال الظن بأن الصعود ببنى إسرائيل إلى أرض كنعان كان حقًا لهم بالاختيار والتميز والتفضيل ، وإنما كان حقًا لهم للخلاص من ربقة فرعون واسترقاق المصريين وللمساواة بأبناء عمومتهم الذين استقرّوا ببعض تلك البقاع من قبل ، لذلك حذّر الرب إسرائيل فى صعودها إلى أرض كنعان من التعرّض لأرض سعير التى يسكنها أبناء عمهم عيسو ولأرض مؤاب التى اعطاها الرب لبنى لوط[2] . ولم يعرض التحذير لأراضى الإسماعيليين

---

(١) يشوع من ١٣ إلى ٢٣ .

(٢) تثنية : ٤ - ٢٥ .

فقد كان مسارهم بعيدًا عنها ، مما يؤيد أن الأرض كانت للانتفاع لا لإقامة دولة أو ملك ، فلو كانت الأرض لإقامة دولة أو ملك لما قسمت من قبل على أبناء إبراهيم ولما قسمت أرض إسرائيل بين أسباطهم ، وحين قام ملك إسرائيل واختاروا من بينهم ملكًا كان ذلك منهم بقصد التشبّه بغيرهم من الشعوب الأخرى[1] وكان ملك إسرائيل حتى فى عهد داود وسليمان أشبه بزعيم قبيلة منه بملك على أمة .

وتقصّ التوراة أن ملك إسرائيل خرج من بنى سليمان عقابًا له على معصية الرب ، ولم يبق لرحبعام بن سليمان غير سبط واحد من أسباط إسرائيل هو سبط يهوذا يملك عليه فى أورشليم ، أما بقية أسباط إسرائيل فملك الرب عليها يربعام عبد سليمان[2] . وخرج كل من رحبعام ويربعام على مشيئة الرب وعبدا الأوثان .

« وأما رحبعام بن سليمان فملك فى يهوذا . وكان رحبعام ابن إحدى وأربعين سنة حين ملك وملك سبع عشرة سنة فى أورشليم المدينة التى اختارها الرب لوضع اسمه فيها من جميع أسباط إسرائيل . واسم أمّه نعمة العمونية . وعمل يهوذا الشر فى عينى الرب وأغاروه أكثر من جميع ما عمل آباؤهم بخطاياهم التى أخطئوا بها . وبنو هم أيضًا لأنفسهم مرتفعات وأنصابًا وسوارى على كلّ تلّ مرتفع وتحت كلّ شجرة خضراء . وكان أيضًا مأبونون فى الأرض . فعملوا حسب كلّ أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل[3] .

---

(١) صموئيل الأول ٢ : ٤ - ٦ .
(٢) الملوك الأول ١١ : ٢٦ - ٤٣ .
(٣) الملوك الأول ١٤ : ٢١ - ٢٤ .

وحاق بإسرائيل ما حاق بيهوذا بعد أن ضلّوا وضلّلهم يربعام « ويضرب الرب إسرائيل كاهتزاز القصب فى الماء ويستأصل إسرائيل عن هذه الأرض الصالحة التى أعطاها لآبائهم ويبددهم إلى عبر النهر لأنهم عملوا سواريهم وأغاظوا الرب . ويدفع إسرائيل من أجل يربعام الذى أخطأ وجعل إسرائيل يخطئ[1] .

ويؤيد انقسام إسرائيل إلى مملكتين ، حقيقة ما يعنيه الوعد الإلهى لإبراهيم بأرض الميعاد ، فلو أن الوعد كان لإسرائيل وحدها دون ذرّية إبراهيم لما أراد الله لبنى إسرائيل أن يتفرّقوا فيكون منهم عشرة أسباط فى مملكة إسرائيل أو سمارايا أو السامرة وسبط وبعض السبط فى يهوذا ، ولما أراد الله أن تقع الحرب وتمتد بين المملكتين حتى يقضى عليهما واحدة بعد الأخرى ، ولما أراد الله أن يقضى على هذه الأسباط العشرة فلا يقصّ التاريخ عنها خبرًا بعد ذلك ، فقد شتّتهم سرجون الأشورى بعد سقوط السامرة عام ٧٢١ ق.م وحمل يهود السامرة أو الإسرائيليين إلى بقاع شتّى من مملكته ونقل إليها غيرهم ولم تعد السامرة إلّا ذكرى عابرة فى تاريخ اليهودية ، أما يهوذا فقد غزاها نبوخذنصر البابلى عام ٥٨٦ ق.م . وحمل اليهود سبايا إلى بابل وخرّب الهيكل فلم يذره إلّا حطامًا وأطلالًا ولم تستطع المملكتان حتى وهما فى أوج عزّهما أن تستوليا على كل فلسطين[2] .

وكان ذلك ختام ما كان لإسرائيل من نصيب فى الوعد الإلهى لإبراهيم كما يقصّ علينا تاريخهم وإن ظلّ حلم العودة إلى أرض الميعاد يراودهم ، إلّا أنه كان حلمًا شابته عواطف هى خليط من التعصب العنصرى والقومى

---

(١) الملوك الأول ١٤ : ١٥ - ١٦ .

(٢) جواد على : جـ ٢ ص ٣٦٠ .

والديني نمتها الغربة وأذكاها ذلّ السبي ومرارة الاستعباد وترانيم الشعراء . وظهرت ترنيمة لشاعر مجهول بقيت في الأبد تلهب عواطفهم المكبوتة وتوري حمى قسوتهم وأنانيتهم وكراهيتهم للبشرية جمعاء وكانت في عذوبتها وعمقها رجع الصدى لنفوسهم الكليمة فظلّت فكرة الدولة اليهودية وحلم العودة إلى أرض الميعاد حيّة في ترنيمة هذا المزمور كما يقول مؤلف كتاب « ثمن إسرائيل »[1] .

« على أنهار بابل جلسنا ، وبكينا عندما تذكرنا صهيون »
« على الصفصاف في وسطها علقنا أعوادنا ، لأنه هناك »
« سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ، ومعذبونا سألونا »
« فرحا قائلين : رنموا لنا من ترنيمات صهيون »
« كيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريبة »
« إن نسيتك يا أورشليم تنسى يميني »[2] .

ويتعلّل بنو إسرائيل في العودة إلى أرض الميعاد بحلم نبيٍّ من أنبيائهم يصوّر إسرائيل يعود مطهرًا وقد خلص من دنسه وأرجاسه . ففي حزقيال « هكذا قال السيد الرب . هأنذا آخذ بني إسرائيل من بين الأمم التي ذهبوا إليها وأجمعهم من كل ناحية وآتي بهم إلى أرضهم . وأصيرهم أمة واحدة على الأرض على جبال إسرائيل وملك واحد يكون ملكًا عليهم كلهم ولا يكونون بعد أمتين ولا ينقسمون بعد إلى مملكتين . ولا يتنجسون بعد بأصنامهم ولا برجاساتهم ولا بشيء من معاصيهم بل أخلصهم من كل مساكنهم التي فيها أخطأوا وأطهرهم فيكونون لي شعبًا وأنا أكون لهم إلهـا[3] » .

---

(١) Alfred Lilienthal : C. I,P.I
(٢) المزامير ١٣٧ : ١ - ٤ .
(٣) حزقيال ٣٧ : ٢١ - ٢٣ .

ويلح عليهم الحلم فيتخيلون إله إسرائيل وقد عاد بهم إلى أورشليم المدينة المقدسة ، بفرحة النصر ومثوبة الخلاص ، كما فى أشعياء « استيقظى استيقظى البسى عزك يا صهيون البسى ثياب جمالك يا أورشليم المدينة المقدسة لأنه لا يعود يدخلك فيها بعد أغلف ولا نجس. انتفضى من التراب قومى واجلسى يا أورشليم انحلّى من ربط عنقك أيتها المسبية ابنة صهيون . فإنه هكذا قال الرب مجانا بعتم وبلا فضة تفكون » ثم يقول « تطهروا ياحاملى آنية الرب . لأنكم تخرجون بالعجلة ولا تذهبون هاربين . لأن الرب سائر أمامكم وإله إسرائيل يجمع ساقتكم[1] »

وفى أرميا « وأنت فلا تخف ياعبدى يعقوب ولا ترتعب يا إسرائيل لأنى هأنذا أخلصك من بعيد ونسلك من أرض سبيهم فيرجع يعقوب ويطمئن ويستريح ولا مخيف . أما أنت يا عبدى يعقوب فلا تخف لأنى أنا معك لأنى أفنى كل الأمم الذين بددتك إليهم . أما أنت فلا أفنيك بل أؤدبك بالحق ولا أبرئك تبرئة[2] » .

ويأملون فى بعث المسيح المخلص الذى يفكّ أسارهم ويعود بهم إلى أرض الميعاد فيراه أشعياء رجل أحزان وأوجاع يحمل كل أوزار إسرائيل « لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها ونحن حسبناه مصابا ومضروبا من الله ومذلولا . وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا تأديب سلامنا عليه وبجبره شفينا »[3] ويراه زكريا ملكًا وديعًا عادلاً منصورًا يجىء راكبا على حمار وعلى جحش ابن أتان فيقول « ابتهجى جدا يا ابنة

---

(١) أشعياء ٥٢ : ١ - ٣ ، ١١ - ١٢ .

(٢) أرميا ٤٦ : ٢٧ - ٢٨ .

(٣) أشعياء ٥٣ : ٤ - ٦ .

صهيون يابنت أورشليم . هو ذا ملكك يأتى إليك هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان . وأقطع المركبة من افرايم والفرس من أورشليم وتقطع قوس الحرب . ويتكلم بالسلام للأمم وسلطانه من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصى الأرض . وأنت أيضًا فإنى بدم عهدك قد أطلقت أسراك من الجب الذى ليس فيه ماء . أرجعوا إلى الحصن يا أسرى الرجاء . اليوم أيضًا أصرح أنى أرد عليك ضعفين[1] » ويتخيله حزقيال ملكا من نسل داود « وداود عبدى يكون ملكا عليهم ويكون لجميعهم راع واحد فيسلكون فى أحكامى ويحفظون فرائضى ويعملون بها . ويسكنون فى الأرض التى أعطيت عبدى يعقوب إياها التى سكنها آباؤكم ويسكنون فيها هم وبنوهم وبنو بنيهم إلى الأبد وعبدى داود رئيس عليهم إلى الأبد . وأقطع معهم عهد سلام فيكون معهم عهدا مؤبدا وأقرهم وأكثرهم وأجعل مقدسى فى وسطهم إلى الأبد . ويكون مسكنى فوقهم وأكون لهم إلهًا ويكونون لى شعبا . فتعلم الأمم أنى أنا الرب مقدس إسرائيل إذ يكون مقدسى فى وسطهم إلى الأبد[2] » .

ولا نستطيع أن نرقى بهذه الأحلام والأمانى إلى مقام العهد الإلهى لإبراهيم أو الوعود المقدسة لإسحق ويعقوب وموسى صلوات الله عليهم فقد كانت النبوة فى إسرائيل أمرًا مألوفًا وكان أنبياء إسرائيل كقديسىِ المسيحية وفقهاء الإسلام يتميزون بالصلاح والتقوى والاجتهاد فتارةً ينكشف عنهم الحجاب كبعض المتصوّفة فيلهمون الصواب أو تغلق قلوبهم فيضلّ تفكيرهم ويخطئ تقديرهم . وقد أشار العهد القديم إليهم ففى التثنية على لسان الرب إلى موسى يقول : « أقيم لهم نبيا من وسط

---

(١) زكريا ٩ : ٩ - ١٢ .

(٢) حزقيال ٣٧ : ٢٤ - ٢٨ .

إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به . ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه . وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاما لم أوصه أن يتكلم به أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى . وإن قلت فى قلبك كيف نعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب . فما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب بل بطغيان تكلم به النبى فلا تخف منه[1] » ومعنى هذا أن النبوة كانت أمرًا مألوفًا فى إسرائيل ليحفظ هؤلاء الأنبياء شعائر الرب وهم فى هذه الصورة أشبه بفقهاء الإسلام أو بعض المتصوّفة والنساك من أولياء الله المسلمين أو قديسى المسيحية ، وقد قال صلوات الله عليه : « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل[2] » .

ومصداق ما يقول أنبياء إسرائيل صدق قولهم ومعنى ذلك أن كلامهم ليس حجةً ولا يمكن أن يرقى إلى قدر العهود أو الوعود المقدسة ولا يعدو كونه حلمًا جميلاً أو أمنية عذبةً لم تتحقق ، ومادامت لم تتحقق فهى ليست من كلام الرب كما جاء فى العهد القديم . أما إذا قال البعض إن بعض هذه النبوءات قد تحقق بعودة اليهود من الأسر البابلى إلى أورشليم وبناء المعبد من جديد فليس فى هذا ما يدل عل تكرار العودة أو أن لإسرائيل عودة أخرى إلى أرض الميعاد يحققها الرب ويرعاها فلم يشر الأنبياء إلى عودة أخرى غير العودة من الأسر البابلى والنبوءة لا تتكرر أكثر من مرة[3] .

---

(١) تثنية ١٨ : ١٨ - ٢٣ .

(٢) راجع عبقرية المسيح للعقاد ص ١٥ - ١٩ .

(٣) بروفسور جيليوم : الصهيونيون والتوراة ص ٨ .

أما الوعد الإلهى لإبراهيم فقد تحقق فى المسيحية وفى الإسلام وكان فيهما ختام النبوءة ومصداق العهد الإلهى كما ندلّل عليهما فى الفصول التالية .

الفصل الرابع
المسيحية والوعد المقدس

وصدق وعد الله فكان من إبراهيم أمة وكان من أعقابه نسل كعدد نجوم السماء وانتشرت ذريته شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا ، سكن الاسماعيليون أبناء إسماعيل بن إبراهيم أو العرب العدنانية كما يعرفون عند مؤرخى العرب فى شمال الجزيرة العربية واتصلوا بأبناء عمومتهم العرب القحطانية فأصهروا إليهم وصاهروهم وقيل عن الإسماعيلية أنهم العرب المستعربة أى الذين استعربوا أو أصبحوا كالعرب سكان الجزيرة الأصليين وتكلموا إحدى اللهجات المنتشرة حينذاك فى شبه الجزيرة العربية فأصبحت لغتهم وهى اللهجة التى تطورت على مر الزمن فكانت لهجة عدنان التى تبلورت فأصبحت لغة قريش وعمت حتى غلبت على غيرها من اللهجات العربية الأخرى فى الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام ببضع مئات من السنين .

ومن الثابت أن إبراهيم حين نزح بامرأته هاجر وابنه إسماعيل إلى الجنوب وتفجرت بئر زمزم قد أقام بيتا للرب إلى جوار البئر كالبيت الذى أقامه للرب فى بيت ايل (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) .

ويبدو أن دين إبراهيم قد عمّ بين سكان الجزيرة العربية فقد أقام

إبراهيم البيت على محطٍّ للرواحل بين الشمال والجنوب ولعله فى اختياره لتلك البقعة كان يقصد أن يكون البيت منتجع قبائل العرب ومهوى أفئدتهم وأن تنتشر ديانته بين العرب من قاصدى البيت أو المارين به . فالمعروف أن الكعبة قبل ظهور الإسلام بزمن طويل قد أصبحت بيتاً مقدساً لدى العرب أجمعين ، وكان لكل قبيلة عربية وثن أو صنم يقيمونه فيها ويتقربون بإقامته إلى الله فى رحابها . وليس غريباً أن تتسرّب الوثنية إلى دين إبراهيم فقد تسربت أيضاً إلى إسرائيل فأقام الإسرائيليون الأنصاب والأزلام فى الهيكل وقربوا لها القرابين وسجدوا لها من دون الله كما هو ثابت فى أسفار العهد القديم بل إنهم اتخذوا من سبائك الذهب عجلاً عبدوه وهم فى التيه حين غاب عنهم موسى فى صعوده إلى الجبل لمناجاة الله[1] .

ومن ولد إبراهيم أيضاً أبناؤه من قطورة وهم آباء ست عشرة قبيلة يقول علماء التوراة إنها قبائل عربية خالصة[2] . ويقال إن قطوراهم هى قطوراء فى رأى النسابين وهم أبناء عم جرهم ، أقبلوا ظعناً من اليمن وأقاموا بمكة ، على جرهم مضاض بن عمرو وعلى قطوراء السميدع ، واتصلوا بالعدنانيين أبناء إسماعيل وعاشوا بينهم ، إلاّ أننا لا نجد فيما ذكره النسابون مايدلّ على أصل قبيلة قطوراء وإن ذكر ابن خلدون أن قطورا هى بنت يقطان ، وفى سيرة ابن هشام أن قطوراء هو أوّل من تكلم بالعربية عند تبلبل الأفكار .

ويقال إن سدانة الكعبة كانت لجرهم قبل أن تنتزعها منهم خزاعة وتنتقل من خزاعة إلى قريش . وجرهم هذه هى جرهم الثانية وقد ظهرت

---

(١) خروج ٣٢ : ١ - ٦ .

(٢) جواد على : جـ ١ ص ٢٨٣ .

بعد هلاك جرهم الأولى ، وفى جرهم الثانية هذه نشأ إسماعيل ، خلفه أبوه بينهم بعد أن قام ببناء الكعبة وآب إلى أرض كنعان .

ولعل تلك الصلة الجديدة بين إبراهيم وجرهم هى التى أدّت إلى زواج إبراهيم من ابنة عمهم قطورة . ويبدو أن القبائل التى تنسب إلى أبناء إبراهيم من قطورة قد انتشرت فى شمال الجزيرة العربية وامتد هذا الانتشار أحياناً إلى بادية الشام وطور سيناء كما يظهر ذلك فى المدوّنات الأشورية وغير الأشورية التى تشير إليهم ، وأنهم كانوا يقيمون على طريق الرواحل بين اليمن والشام ، وهناك من يقول كالعلامة « جليسر »[1] : إن كلمة قطورة تعنى البخور مما يؤيد أنهم كانوا يقيمون على طريق الرواحل التى تحمل البخور ،

ويرجع علماء التوراة أصل قبائل شبا ودادان ومدين إلى قطورة ومن المعروف أن موسى أصهر إلى يثرون كاهن مدين فى ابنته صفوره مما يؤيد اتصال نسب إسرائيل بقطورة .

أما ولدا إبراهيم من سارة – عيسو ويعقوب – فقد انقسما على بعضهما فارتحل عيسو إلى جبل سعير وهو مرتفع من الأرض بين برية « صين » إلى الغرب وبلاد العرب إلى الشرق ويشمل كل تخوم كنعان الجنوبية من البحر الميت إلى خليج العقبة ويعرف ببلاد « أدوم »[2] وإليها ينسب الأدوميون أبناء عيسو وكانت لهم مملكة تداولها ملوكهم قبل أن يكون لإسرائيل مملكة بزمن طويل[3] وظلّوا سادة الطرق التجارية بين الجنوب والشمال حتى أديل منهم إلى النبط .

وقد اتصلت كراهية عيسو لشقيقه يعقوب فيهم فوقفوا دون عبور

---

(١) Glaser. Skisse 2. P. 449

(٢) جواد على : جـ ٢ ص ٣٥٧ .

(٣) تكوين ٣٦ : ٣١

إسرائيل إلى فلسطين وحالوا بينهم وبين المرور فى أراضيهم « فقال له أدوم لا تمر بى لئلا أخرج للقائك بالسيف . فقال له بنو إسرائيل . فى السكة نصعد وإذا شربنا أنا ومواشى من مائك أدفع ثمنه . لا شىء . أمر برجلى فقط . فقال لا تمر . وخرج أدوم للقائه بشعب غفير وبيد شديدة . وأبى أدوم أن يسمح لإسرائيل بالمرور فى تخومه فتحوّل إسرائيل عنه »[1] ..

وامتدت عداوة أدوم لإسرائيل حتى وقعت الحرب بينهما فى عهد « شاءول » ومن جاء بعده ، بالرغم من أن الإسرائيليين قد جهدوا دون جدوى فى إرضاء الأدوميين والظفر بمودّتهم فكانوا يذكرونهم بما بينهما من قربى وأن أباهما واحد إلا أن لهيب العداوة فى نفس الأدوميين للعبريين ظلّ حاميًا فحالفوا أعداءهم عليهم .

ولا يبقى بعد هؤلاء من ذرية إبراهيم غرباء مشردين لا يملكون أرضًا غير بنى إسرائيل وكان وعد الرب لإبراهيم أن يكون نسله كعدد نجوم السماء وأن تملك ذريته تلك الأرض التى تمتد من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات وأن يكون منهم أمم وملوك . فإذا كان الوعد بالإرث للأرض وليس للرسالة أو البركة - رسالة إبراهيم وبركته - فقد ملكت ذرية إبراهيم أكثر هذه الأرض ولم يكن لإسرائيل مبرك بعير فيها كما رأينا ، فإذا أراد الله لإسرائيل أن تخرج من مصر وتصعد إلى أرض كنعان فلكمال الوعد . وليجتمع نسل إبراهيم فى صعيد واحد . وكان وحى الرب لموسى وأنبياء إسرائيل من بعده بالصعود إلى أرض كنعان وامتلاكها تحقيقًا لاكتمال العهد ، إلّا أن بنى إسرائيل قد جهدوا عبثًا أن يملكوا أرض كنعان فما استطاعوا حتى بعد أن وصل ملكهم فى عهد داود وسليمان إلى أقصى مداه ، مما يؤيد أن الوعد بالإرث لم يكن للأرض وإنما كان للبركة

---

(١) عدد ٢٠ : ١٨ - ٢١ .

والرسالة فحيثما آمنت ذرية إبراهيم برسالته حلّت فيهم البركة وحقّ لهم الوعد ، وحيثما جحدوها وتنكروا لها لم يكن لهم فى بركته نصيب وأصبحت أرض الميعاد حرامًا عليهم ، وفى أسفار العهد القديم ما يشير إلى أن الله قد شرّد بنى إسرائيل وشتتهم بين شعوب الأرض أذلاء مستضعفين حتى لا ينجسوا أرض ميعاده وبيته المقدس .

« ولكن إن لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحرص أن تعمل بجميع وصاياه وفرائضه التى أنا أوصيك بها اليوم تأتى عليك جميع هذه اللعنات وتدركك . ملعونا تكون فى المدينة ملعونا تكون فى الحقل . ملعونة تكون سلتك ومعجنك . ملعونة تكون ثمرة بطنك وثمرة أرضك نتاج بقرك وإناث غنمك . ملعونا تكون فى دخولك وملعونا تكون فى خروجك . يرسل الرب عليك اللعن والاضطراب والزجر فى كل ما تمتد إليه يدك لتعمله حتى تهلك وتفنى سريعًا من أجل سوء أفعالك إذ تركتنى . يلصق بك الرب الوباء حتى يبيدك عن الأرض التى أنت داخل إليها لكى تمتلكها . يضربك الرب بالسل والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول فتتبعك حتى تفنيك . وتكون سماؤك التى فوق رأسك نحاسًا والأرض التى تحتك حديدًا . ويجعل الرب مطر أرضك غبارًا وترابًا ينزل عليك من السماء حتى تهلك . يجعلك الرب منهزما أمام أعدائك فى طريق واحدة تخرج عليهم وفى سبع طرق تهرب أمامهم وتكون قلقًا فى جميع ممالك الأرض[1] .

« ويبددك الرب فى جميع الشعوب من أقصاء الأرض إلى أقصائها وتعبد هناك آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك من خشب وحجر . وفى تلك الأمم لا تطمئن ولا يكون قرار لقدمك بل يعطيك الرب هناك قلبًا مرتجفًا

---

(١) تثنية ٢٨ : ١٥ – ٢٥ .

وكلال العينين وذبول النفس ، وتكون حياتك معلقة قدامك وترتعب ليل نهار ولا تأمن على حياتك ، فى الصباح تقول ياليته المساء وفى المساء تقول ياليته الصباح من ارتعاب قلبك الذى ترتعب ومن منظر عينيك الذى تنظر . ويردك الرب إلى مصر فى سفن فى الطريق التى قلت لك لا تعد تراها فتباعون هناك لأعدائك عبيدًا وإماء وليس من يشترى[1] » .

وفى أرميا « ولم يستطع الرب أن يحتمل بعد من أجل شر أعمالكم من أجل الرجاسات التى فعلتم فصارت أرضكم خربة ودهشا ولعنة بلا ساكن كهذا اليوم »[2] .

فلو كان الوعد بالإرث للأرض وليس للرسالة والبركة لما كان هناك قيد أو شرط لامتلاك الأرض أما الأرض ، أرض البركة والرسالة ، فلابدّ وأن تكون لمن يمتازون بالبركة والرسالة من ذرية إبراهيم ، ولعل فى اختيار ذرية إبراهيم بالذات ما يقصد به إعلاء شأن الرسالة والنبوة ، وقد كانت النبوة فى إسرائيل حتى قام بها المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فنسخ حق إسرائيل فى البركة والرسالة معًا . ثم كان محمد ﷺ فصدّق بإبراهيم وموسى وعيسى وختم رسالة السماء وحلّت فيه بركة إبراهيم ورسالته .

والاختيار للأرض وليس للشعب فالأرض هى الأرض المباركة التى قدستها اليهودية والمسيحية والإسلام على السواء وقد اختار الله تلك الأرض وسطًا فى دنيا العالم القديم ، حيث شعّت أولى حضارات التاريخ وأشرقت شمس المدنية ، وهى اليوم كما كانت بالأمس ملتقى الحضارات والأفكار وهى على الطريق من عالمنا الحاضر ترد إليها وتصدر عنها كلّ تيارات العالم السياسية والفكرية وتتلاحم على أديمها كل صنوف الأمم .

---

(١) تثنية ٢٨ : ٦٤ – ٦٨ .

(٢) أرميا ٤٤ : ٢٢ .

وكان اختيار الله لتلك الأرض التى باركها وقدّسها لتكون قدس أنبيائه وموطن رسالته إلى البشر ، حتى تكون رسالته إلى كل العالمين طرًّا فليس هناك من مكان يتوسط العالم كفلسطين حيث يمكن للرسالة أن تجتاز أربعة أركان الدنيا وتعمّ البشر أجمعين .

ومادام الاختيار الإلهى قد وقع على تلك الأرض لتصدر عنها رسالات السماء - اليهودية والمسيحية والإسلام - فلابدّ وأن يقع الاختيار أيضًا على أولئك الذين يضطلعون برسالات السماء لتكون لهم الأرض دون غيرهم ، وقد حلّت بركة السماء فى إبراهيم وذريته فكان منهم الأنبياء والمرسلون ، وكانت الأرض له ولذريته من بعده .

وقد عبر إبراهيم بأمر الرب إلى أرض كنعان ووعد بأن تكون له ولذريته تلك الأرض من الفرات إلى النيل ولكن إبراهيم مات دون أن يملك شبرًا واحدًا فى تلك الأرض وحين اختار مكان قبره وقبر سارة زوجته وآل بيته فى مغارة المكفيلة أمام ممرا وكانت على طرف حقل لعفرون ابن صوحر الحثى ، ابتاع المكان من صاحبه . ولعله لم يملك فى فلسطين غير سكنه وقبره هذا .

وقد مرت بضع مئات من السنين دون أن يكون لإبراهيم أو لأحد من ذريته مكان فى فلسطين إلا أن ذريته من الإسماعيليين والقطوريين والأدوميين قد انتشروا كما رأينا فى بقاع أخرى من أرض الميعاد وملكوا عليها قبل أن يصعد بنو إسرائيل إلى فلسطين حتى إذا صعدوا بعد خروجهم من مصر ، أقاموا ملكاً لم يسع كل بلاد فلسطين فى يوم من الأيام . ولم تملك ذرية إبراهيم أرض الميعاد إلاّ فى ظل الإسلام فكانت للعرب مقاماً وملكاً إلى يومنا هذا وتحقق فى العرب الإسماعيلية وعد الله لإبراهيم كما لم يتحقق فى أحد من ذريته الآخرين وحلّت فيهم بركة العهد

وبركة الرسالة وكانت لهم أرض الميعاد مصداق ما عاهد عليه الرب نبيه إبراهيم .

وليست فلسطين وحدها هى أرض الميعاد كما يدعى اليهود فى تفسيرهم للتوراة فإن عبارة « من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » تضم بقاعاً وتخوماً تمتدّ إلى ما وراء فلسطين وما بعدها ، هى طور سيناء وما يواجهها شرقاً من بلاد العرب الشمالية وكل بادية الشام والأردن وفلسطين ولبنان وسوريا حتى أعالى الفرات وقد أقام إبراهيم بيتين للرب فى أرض ميعاده ، أشارت التوراة إلى أحدهما ولم تشر إلى الآخر ، بيت ايل فى أرض كنعان والبيت المحرم (الكعبة) إلى جوار جرهم فى العرب الشمالية مما يدلّ دلالة قاطعة على أن أرض الميعاد ليست هى فلسطين وحدها كما أنها ليست لبنى إسرائيل وحدهم دون البقية من ذرية إبراهيم أو الإسماعيليين على وجه أدق إذا عرفنا أن القطوريين والأدوميين قد اندمجوا فى العرب الإسماعيلية بعد ذلك لطول ما كان بينهم من جيرة وصلات ، ويقصّ العهد القديم أن المديانيين كانوا مع الإسماعيليين حين بيع يوسف[1] والمديانيون كما قلنا هم نسل إبراهيم من قطورة ويرى « حتى » أن أرضهم تقع فى بلاد العرب[2] .

والثابت تاريخياً أن الشريعة الموسوية قد تأثرت إلى حدٍّ بعيد بعبادة أهل مدين أو المديانيين وهى عبادة « يهوه » إله قبيلة مدين وبعض بلاد العرب الشمالية وقد شاعت هذه العبادة بين العبريين[3] وهذا ما يحمل بعض المؤرخين على القول بأن الدين اليهودى ينم عن أصل صحراوى .

---

(١) تكوين ٣٧ : ٢٧ - ٢٨ .

(٢) Hitti, P. 40.

(٣) جواد على جـ ٢ ص ٣٥٢ .

وليس لدينا من تفسير لذلك إلاّ أنْ ديانة إبراهيم قد انتشرت فى بعض بلاد العرب الشمالية أو كلّها مما يدلّ على أن بركة إبراهيم ورسالته لم تكن لإسحق وحده وإنما كانت لإسمعيل أيضاً ، فإذا كان الإرث للبركة والرسالة ، فإن رسالة إبراهيم قد شملت بعض بلاد العرب الشمالية وامتدت إلى أرض كنعان بعد نزول بنى إسرائيل إليها مما يقطع بأن أرض الميعاد ليست أرض كنعان وحدها وإنما هى تلك البلاد الفسيحة التى تمتد من مصر إلى أعالى الفرات .

وينسب العهد القديم قصة فداء يفسرها علماء التوراة أنها لإسحق[1] كما يقص القرآن قصة فداء ينسبها المسلمون لإسمعيل أو أن الفداء كان لكلٍ منهما ويكون فداء إسمعيل قد سبق فداء إسحق فقد اكتمل إسماعيل صبياً حين حمله أبوه إلى برية فاران مع أمه ، وكان إسحق طفلاً فى فطامه[2] مما يوحى بأن بركة إبراهيم كانت لإسمعيل وإسحق على حد سواء . إلاّ أن عبادة إبراهيم قد تبلورت فى شريعة موسى ورسالته ، وكانت رسالة موسى إلى بنى إسرائيل تمهيداً لرسالة السماء الكبرى فى المسيحية والإسلام ، ففى ظلّ المسيحية والإسلام ينطوى البشر أجمعون ، من ذرية إبراهيم ومن غير ذريته ، وليس فى قصر رسالة موسى على إسرائيل ما يفيد معنى الاختيار أو التميز فقد كانت رسالة إبراهيم إلى أهله وبنيه ، وكان كلّ رسول يبعث إلى قومه ، وكانت رسالة موسى إلى بنى إسرائيل هى آخر رسالة لنبى إلى قوم بعينهم فقد جاءت المسيحية مبشرة بملكوت السماء للبشر جميعاً وجاء الإسلام هدى للناس كافة لا فضل فيه لعربىٍّ على عجمىٍّ إلاّ بالتقوى فإذا تميّز بنو إسرائيل بالاختيار فهو الاختيار

---

(١) تكوين ٢٢ : ١ - ١٤ .

(٢) تكوين ٢١ : ٨ - ٢١ .

الذى كان لغيرهم من الأقوام التى سبق إليها الرسل والأنبياء ، وهو الاختيار الذى يقوم على الإيمان بالرسالة ولا يقوم على أفضلية العنصر أو الجنس ، وهو الاختيار الموقوت بزمن الرسالة ، فإذا حلّت رسالة أخرى محلّها فقد زال عنهم الاختيار وما يصحبه من تميز المؤمن على الوثنى لا تميز العنصر على العناصر الأخرى .

وقد جاءت المسيحية لتصحح فهم الإسرائيليين لمعنى الاختيار ولتجدد نقاء اليهودية بعد أن تسربت إليها أباطيل العنصرية والتميز والانحراف عن مبادئ إبراهيم وتعاليمه . فالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام هو أحد فروع تلك الشجرة المباركة التى تنسب إلى نبى الله إبراهيم عليه السلام ، فهو « يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم . إبراهيم ولد إسحق ، وإسحق ولد يعقوب . ويعقوب ولد يهوذا وإخوته . ويهوذا ولد فارص وزارح من ثامار . وفارص ولد حصرون . وحصرون ولد أرام . وأرام ولد عمينا داب . وعميناداب ولد نحشون ، ونحشون ولد سلمون . وسلمون ولد بوعز من راحاب . وبوعز ولد عوبيد من راعوث . وعوبيد ولد يسى ، ويسى ولد داود الملك . وداود الملك ولد سليمان من التى لاوريا . وسليمان ولد رحبعام . ورحبعام ولد أبيا . وأبيا ولد آسا . وآسا ولد يهو شافاط . ويهو شافاط ولد يورام . ويورام ولد عزيا وعزيا ولد يوثام ويوثام ولد أحاز . وأحاز ولد حزقيا وحزقيا ولد منسى . ومنسى ولد آمون . وآمون ولد يوشيا . ويوشيا ولد يكنيا وأخوته عند سبى بابل . وبعد سبى بابل يكنيا ولد شالتئيل . وشالتئيل ولد زربابل . وزربابل ولد أبيهود . وأبيهود ولد الياقيم . والياقيم ولد عازور . وعازور ولد صادوق . وصادوق ولد أخيم . وأخيم ولد اليود . واليود ولد اليعازر واليعازر ولد متان . ومتان ولد يعقوب . ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التى ولد منها يسوع الذى يدعى المسيح . فجميع الأجيال من إبراهيم إلى داود أربعة

عشر جيلاً ، ومن داود إلى سبى بابل أربعة عشر جيلاً . ومن سبى بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلاً »[1] .

وقد أبرز المسيح منذ البداية أنه ما جاء لينقض دين إبراهيم وشريعة موسى بل جاء ليكمل « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل . فإنى الحق أقول لكم ، إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يتم الكل[2] » مما يدل على أن رسالة إبراهيم كانت بداية تطور تكمل فى غايته رسالة السماء ، وأن أنبياء إسرائيل ليسوا سوى لبنات فى سلم التطور العام للأديان السماوية وأن شريعة موسى ورسالة المسيح لم يكونا سوى مرحلتين من مراحل التطور الهام للرسالة التى بدأت بإبراهيم وختمت بمحمد .

وفى قول المسييح « إن لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات[3] » دليل هذا التطور فى تعاليم الديانة المسيحية ، فلو لم تأت المسيحية بجديد على شريعة موسى لكانت تكرارًا لما قبلها ولو لم تزد المسيحية على تعاليم اليهودية لما كانت هناك حاجة إليها ، فعملية التطور والارتقاء قد صاحبت نموّ الأديان ، فالصور المادية الساذجة فى أسفار العهد القديم كالتجسد الإلهى وظهور الإله والملائكة فى صور بشرية كانت ولا شكّ توائم مستوى الارتقاء العقلى والفكرى فى عصرها ، وكثير من الطقوس الدينية فى الشريعة الموسوية تستثير سذاجتها تفكير إنسان القرن العشرين ولكنها فى وقتها كانت تمثل مرحلة ارتقاء فى التفكير البشرى ، وإذا قارنا تعاليم المسيحية وطقوسها بالتعاليم الموسوية

---

(١) متى ١ : ١ - ١٧ .

(٢) متى ١٥ : ١٧ - ١٨ .

(٣) متى ٥ : ٢٠ .

وطقوسها بدت متقدّمة عليها من حيث التطور والارتقاء ، ولعلّ قصة الفداء فى التوراة والقرآن تمثل مرحلة من مراحل تطوّر العقيدة وارتقائها ، فالقربان البشرى قد افتدى بقربان من الحيوان ، بل إن قصة عروس النيل وما كان من موقف عمر بن الخطاب منها حين استشير فى أمرها ، فأشار بأن تبقى الطقوس على حالها وأن تلقى عروس من الطفل بدل العروس البشرية إلى النيل هى خير ما يهدينا إلى حقيقة هذا التطور فى عقيدة من العقائد . فالثورة على التقاليد البالية قد يحملها إلى رجعى بغيضة وتعصب مقيت ، أما التطور فهو عملية ارتقاء غير محسوس تحقق فى هدوئها ما لا تحققه الثورة فى عنفها ، وحين يكتمل التطور ويصبح العقل البشرى معدًّا لقبول التغيير تغدو الثورة ضرورة حتميّة لإتمام التغيير ، والثورة هنا هى مواجهة الواقع فى شجاعة تعوز المتردّدين ، ففى بعض مراحل التقدم الإنسانى تقف مرحلة التطور عند الخوف من التغيير الشامل أو الحذر من الجديد وحينئذ تتمثل الشجاعة فى مواجهة الواقع والتسليم بحكمة التطور ، والثورة هنا ليست قلبًا للأوضاع أو زلزلة للنظام الاجتماعى ولكنها جرأة على مواجهة التطوّر الذى يحسّه ويسلم به كل فرد ولكنه لا يجرؤ على الجهر به ، فمما لا شك فيه أن ظهور المسيح قد صاحب استعدادًا عامًّا لقبول رسالته حين غدا التفكير الإنسانى أكثر سعةً وشمولاً ، وأصبح الإنسان أكثر استعدادًا لقبول التغيير الجديد .

وتبرز قصة المسيح المنتظر مدى التطور فى العقيدة اليهودية والرجاء الذى كان يعقده اليهود أو بعض طوائفهم بالذات على ظهور النبى المخلص أو الهادى .

فبعد أن سقطت يهودا وحمل اليهود سبايا إلى أرض بابل أخذوا يحلمون بقيام ملك من نسل داود يقود الجند ويجتاح بهم مدن أعدائهم ويعيد

ملك داود وسليمان وكانوا يسمونه مسيحًا لأنهم كانوا يمسحون ملوكهم بالزيت المقدس فيقال له مسيح الرب .

وتجدّد أملهم فى المسيح المنتظر بعد أن دالت دول أعدائهم من البابليين والمصريين وظنوا أن نجم إسرائيل قد آذن بالارتفاع ، ولكنهم وقعوا فى ربقة الدولة الرومانية ففقدوا كلّ أمل فى مجد القوة وغدا خلصاؤهم والصالحون منهم يأملون الخلاص بالهداية والتطهر أكثر مما يرجون الخلاص فى القوة والسلطان ورأوا فى المسيح المنتظر هاديًا ومبشرًا بالتوبة والتطهير ، وبعد أن كانوا يصفونه بالقوة والبأس والجبروت وشهوة السلطان والفتح أخذوا يصفونه بالوداعة والرضى والرحمة والحنان يجفو صهوات الجياد ويركب « حمارًا ابن أتان » .

وكان ظهور يوحنّا المعمدان أو يوحنا المغتسل – وقد ذكر فى القرآن باسم يحيى بن زكريا – بشيرًا باقتراب موعد ظهور المسيح المنتظر . وقد أخذ يوحنا يدعو إلى التوبة والتطهر من الذنوب ويبشر باقتراب « ملكوت الله » أو ملكوت السماء ، وجاشت بدعوته كل بطاح الأردن وعلى يديه تتلمذ المسيح عيسى بن مريم عليه السلام .

فالتطور فى فكرة المسيح المنتظر هو التطور فى العقيدة الدينية ، التطور من عالم المادة إلى عالم الروح ومن عالم الحس إلى عالم الضمير ومن المراسيم والطقوس الحسية إلى الحقائق المعنوية المجردة .

وجاء المسيح مبشرًا بملكوت السماء فعلم الناس أن ملكوت الله قائم فيهم وأنه موجود فى كل زمان ومكان ، وجاء بشيرًا للناس كافة لا لجماعة بعينها ولا لقوم دون الآخرين . وجاء يدعو إلى المحبة فى عالم اجتاحته الأثرة والأنانية وحب الذات والاستعلاء واستعباد الضعفاء .

وعاش فى عالم لا حاجة به إلى تشريع أو قانون فقد حجبت التشريعات الرومانية كلّ تشريع آخر وانتظم قانونها كلّ رعاياها ولكنه فى حاجة إلى الحب فبشّر بالحب ودعا إليه ، فكانت المسيحية رسالة المحبة والغفران والسمو بالنفس الإنسانية إلى أعلا عليين ، وخطت بذلك أعظم خطوات التطور الدينى نحو الكمال المطلق فى الإسلام وبذا ختمت رسالة السماء التى بدأت بإبراهيم وانتهت بمحمد ، فاكتملت صورة الوحدانية وحد الفاصل بين الخير والشر والثواب والعقاب والفضيلة والرذيلة وعرفت موازين الخلق وحدود الشرائع وقومت الحياة الإنسانية خير تقويم يتفق وواقع الحياة وخير البشر وصلاحهم .

ولا حاجة بنا فى هذا المقام إلى تفصيل مراحل هذا التطور الدينى وبيان صوره فإن كل ما يعنينا أن الأديان السماوية كلّ متكامل فى هذا الوجود الإنسانى تطورت بتطوّره ونمت إلى الكمال بنماء هذا الوجود الإنسانى نحو الكمال ، ولا يعنى هذا أن تطوّر الفكرة الدينية قد وقف عند رسالة محمد عليه الصلاة والسلام فإن مظاهر الإسلام مازالت تقبل التأويل والتفسير لتساير تطور الوجود الإنسانى نحو الكمال ، ومعجزة الإسلام أنه دين يساير كلّ زمان ومكان ويتطور بتطور الفكر الإنسانى وتقدمه ، وكل ما يقف عنده الإسلام فلا يقبل فيه تفسيرًا أو تأويلًا هو الجوهر وليس العرض فالوحدانية هى جوهر الإسلام لا تقبل تأويلًا أو تفسيرًا أما المظاهر العامة للعبادات والتشريعات الاجتماعية فهى قابلة للتأويل والتفسير وقد تناولها المجتهدون منذ البداية بتفسيرات شتّى ووضعوا لها حدودًا متباينة ولكنها فى تباينها لا تمسّ جوهر العقيدة أو تلمسها بتفسير أو تأويل ، وقد ظنّ علماء الإسلام أن باب الاجتهاد قد أقفل على الأئمة الأربعة حتى ظهر « ابن تيمية » ففتح باب الاجتهاد من جديد وجاء بعده مجتهدون آخرون منهم من أخذ بسنّة السلف ومنهم من جدّد وكان الشيخ

الإمام محمد عبده آخر المجددين فى هذا المضمار .

فإذا كانت الأديان السماوية كلًا متكاملًا تتصل بهذا الوجود الإنسانى فى تكاملها فإن قصر عقيدة منها على أمة أو شعب أو عنصر دون الآخرين هو افتئات على جوهر العقيدة وشذوذ فى وحدة الوجود الإنسانى .

وقد بعث موسى إلى بنى إسرائيل كما بعث صالح إلى ثمود وشعيب إلى مدين وهود إلى قوم عاد ، ولا يمكن أن نعدّ فى هذا الرعيل الأوّل من الأنبياء، أنبياء إسرائيل بعد موسى فقد كانوا كما قلنا من قبل كأولياء الله فى الإسلام والقديسين فى المسيحية ، وكان ذلك حين كانت رسالة كلّ نبى إلى شعبه حتى إذا عمّت الرسالة نسخت حقّ هؤلاء الأنبياء جميعًا بما فيها الديانة اليهودية ، إذا أراد بنو إسرائيل أن تكون رسالة موسى لهم وحدهم لا يشاركم فيها غيرهم ولا يبشرون بها لغيرهم كما جرت سنتّهم ، أما إذا أرادوها رسالةً للبشر عامة وبشّروا بها بين الناس فإن ذلك ينسخ دعواهم فى التميز والاختيار على غير ما يريدون ويدحض ما يدّعونه من حق فى أرض الميعاد على غير ما يحبّون ، وهم على هذه الوتيرة من تأويل الوعد المقدس لإبراهيم ، ينسخون فى الوقت ذاته دعواهم فى أرض الميعاد بظهور المسيح المنتظر الذى بشرّوا به من قبل ، فقد جاء المسيح كما بشّر به النبى زكريا بقوله : « ابتهجى جدا يا ابنة صهيون اهتفى يابنت أورشليم هو ذا ملكك يأتى هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان[1] » وحين صعد المسيح إلى أورشليم صعد إليها كما قال زكريا على ظهر « حمار ابن أتان » – « ولما دنوا من أورشليم وجاءوا إلى بيت فاجى عند جبل الزيتون حينئذ أرسل يسوع تلميذين قائلًا لهما : اذهبا إلى القرية التى أمامكما فللوقت تجدان أتانًا مربوطةً وجحشًا معها

---

(٢) زكريا ٩ : ٩ .

فحلّاها وأتيا لى بها ، وإن قال لكما أحد شيئًا فقولا الرب محتاج إليهما . فللوقت يرسلها . فكان هذا كلّه لكى يتم ما قيل بالنبى القائل . قولوا لابنة صهيون هو ذا ملكك يأتيك وديعًا راكبًا على أتان وجحش ابن أتان . فذهب التلميذان وفعلا كما أمرهما يسوع . وأتيا بالأتان والجحش ووضعا عليهما ثيابهما فجلس عليهما . والجمع الأكثر فرشوا ثيابهم فى الطريق . وآخرون قطعوا أغصانا من الشجر وفرشوها فى الطريق . والجموع الذين تقدموا والذين تبعوا كانوا يصرخون قائلين أوصنا لابن داود . مبارك الآتى باسم الرب . أوصنا فى الأعالى . ولما دخل أورشليم ارتجّت المدينة كلّها قائلة من هذا ؟ فقالت الجموع هذا يسوع النبى الذى من ناصرة الجليل[1] » .

فالأمل الذى راود بنى إسرائيل بظهور المسيح المنتظر قد تحقق بقيام عيسى عليه السلام برسالته ثم إن قدومه إلى أورشليم فى الصورة التى تخيّلوها قبل مجيئه لا شكّ يحقق أملهم فيه فليس هو المسيح القادر القاهر الذى يقود الجند ويحطم الدساكر ويجتاح القلاع والحصون يخضع له الملوك وتدين الأمم لسلطانه كما صوره أوائلهم ، وليس هو المسيح الذى ينزله الرب نقمةً على أعدائهم كما دعوا كورش ملك الفرس عندما خلّصهم من السبى البابلى وردّهم إلى أورشليم « هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذى أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمما وأحقاد ملوك أحل لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق [2] » وليس هو المسيح المحتقر المخذول من الناس رجل الأوجاع والأحزان كما ذكر أشعياء وليس هو زربابل والى يهودا من قبل دارا ملك الفرس لأنه أعاد بناء الهيكل فقالوا عنه المسيح

---

(١) متى ١١ : ١ - ١١ .
(٢) أشعياء ٤٥ : ١ .

المنتظر ، وإنما هو المسيح العادل المنصور الوديع الذى يجفو صهوات الجياد ويركب « حمارًا ابن أتان » .

جاء المسيح عليه السلام إلى أورشليم وبشّر برسالته فى بنى إسرائيل ولم يأت لينقض بل جاء ليكمل فدعا إلى ملكوت السماء وقال إن ملكوت السماء يسع كل من دخل فيه . « أدعو الذى ليس شعبى شعبى والتى ليست محبوبة محبوبة[1] وإلى هذا يشير الرسول بولس بقوله : « لأنه فى المسيح يسوع ليس فى الختان ينفع شيئًا ولا الغرلة بل الخليقة الجديدة . فكل الذين يسلكون بحسب هذا القانون عليهم سلام ورحمة وعلى إسرائيل الله[2] » ومعنى ذلك أن الإسرائيليين الحقيقيين ليسوا هم الذين ينحدرون من صلب يعقوب أب الأسباط فحسب بل يشملون جميع المؤمنين المتحدين بالمسيح اتحادًا روحيًا والحاصلين على نعمة التجديد سواء أكانوا يهودًا أم أممًا .

ويؤيد ذلك ما قلناه من قبل من أن الوعد بالإرث ليس للأرض بل للرسالة والبركة ، وأن الاختيار ليس للشعب بل للأرض ، فالأرض هى الأرض المقدسة كما قلنا لم تتجاوزها القداسة إلى غيرها ، أما الرسالة والبركة فقد حلّت فيمن وقع عليه الاختيار الإلهى ، وكان يسوع المسيح عليه السلام هو الموعود بالبركة والرسالة حينذاك وقد حلّت بركته فى كل من اتحد به اتحادًا روحيًا وهذا ما يعنيه الرسول بولس بقوله : « لأن ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون . ولا لأنهم من نسل إبراهيم هم جميعًا أولاد ، بل بإسحاق يدعى لك نسل ، أى ليس أولاد الجسد هم

---

(١) روميه ٩ : ٢٥ .
(٢) غلاطية ٦ : ١٥ - ١٦ .

أولاد الله بل أولاد الموعد يحسبون نسلاً[1] » .

ويرى كثير من المسيحيين أن الوعود قد تحققت فى تلك البقية التى أشار إليها النبى أشعياء وهى التى أشار إليها الرسول بولس بقوله : « فكذلك فى الزمان الحاضر أيضًا قد حصلت بقية حسب اختيار النعمة . فإن كان بالنعمة فليس بعد بالأعمال . وإلّا فليست النعمة بعد نعمة . وإن كان بالأعمال فيلس بعد نعمة . وإلّا فالعمل لا يكون بعد عملاً . فماذا ، ما يطلبه إسرائيل ذلك لم ينله . ولكن المختارون نالوه[2] » فهذه البقية هى المختارة وهى التى اتحدت بالمسيح اتحادًا روحيًّا وتكوّنت منها كنيسة العهد الجديد ، وهى التى تتسع لتشمل الأمم جميعًا كما جاء فى وصية السيد المسيح لحوارييه : « فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس .[3] »

فرسالة المسيح قد نسخت حق بنى إسرائيل فى الاختيار ، حتى لو كان هذا الاختيار لبنى إسرائيل دون الأمم ولم يكن للأرض المقدسة كما نقول ، كما جبّت حقّهم فى البركة والرسالة بعد أن صارت الرسالة للأمم جميعًا وليست لبنى إسرائيل وحدهم ، وحلّت البركة فى عيسى ليضفيها على كلّ من اتحد به اتحادًا روحيًّا ودخل فى ملكوت الله .

كما نسخ بعثه رؤيا بنى إسرائيل فى قدوم المسيح المنتظر الذى يعيد مملكة داود ويجدّد بناء الهيكل ويعيد مجد أورشليم ، فقد قال بأنه المسيح المنتظر « أما يوحنا فلما سمع فى السجن بأعمال المسيح أرسل اثنين من تلاميذه . وقال له أنت هو الآتى أم ننتظر آخر . فأجاب يسوع وقال لهما

---

(١) روميه ٩ : ٦ – ٨ .
(٢) روميه ١١ : ٥ – ٧ .
(٣) متى ٢٨ : ١٩ .

اذهبا وأخبرا يوحنا بما تسمعان وتنظران . العمى يبصرون والعرج يمشون والبرص يطهرون والصم يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشرون وطوبى لمن لا يعثر فى[1] » .

ولم يعد بعد مسيحًا منتظرًا « حينئذ إن قال لكم أحد هو ذا المسيح هنا أو هناك فلا تصدقوا [2] » ولن تكون عودة المسيح إلا يوم الدينونة حين يجتمع الخلق جميعًا فى صعيد البعث والنشور . « والوقت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس والقمر لا يعطى ضوء والنجوم تسقط من السماء وقوات السماء تتزعزع . وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان فى السماء . وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض ويبصرون ابن الإنسان آتيًا على سحاب السماء بقوّة ومجد كثير . فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه من الأربع الرياح من أقصاء السموات إلى أقصاها[3] » ثم يتحدث عن يوم الساعة فيقول ما تتفق عليه المسيحية والإسلام « وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد ولا ملائكة السماء إلّا أبى وحده [4] » وهو ما ردّده القرآن فى مواضع كثيرة منها (إن الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدًا وما تدرى نفس بأىّ أرض تموت إنّ الله عليم خبير[5]) .

ويربط بنو إسرائيل بين بعث المسيح المنتظر وعودتهم إلى فلسطين ويشايعهم فى هذا الاعتقاد بعض المسيحيين الذين يتوقعون عودة اليهود إلى فلسطين ليؤمنوا بالمسيح حين يعود إلى الأرض فيملؤها عدلاً وبرًّا

---

(١) متى ١١ : ٢ – ٦ .

(٢) متى ٢٤ : ٢٣ ..

(٣) متى ٢٤ : ٢٩ – ٣٠ .

(٤) متى ٥٤ : ٣٦ .

(٥) لقمان آية ٣٤ .

وسلامًا . وهم إذ يؤمنون بذلك يخطئون فى فهم مدلول الوعد الإلهى فإن ما يعنيه هذا الوعد هو عودة إسرائيل الروحى لا إسرائيل بحسب الجسد ، وأنه يشمل كلّ من يؤمن بالمسيح سواء أكان من اليهود أم من غيرهم من الأمم . ولن تكون عودة إسرائيل الروحى إلاّ يوم القيامة كما جاء فى سفر حزقيال « هأنذا » أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبى وآتى بكم إلى أرض إسرائيل . فتعلمون أنى أنا الرب عند فتحى قبوركم وإصعادى إياكم من قبوركم يا شعبى . وأجعل روحى فيكم فتحيون وأجعلكم فى أرضكم فتعلمون أنى أنا الرب تكلمت وأفعل يقول الرب[1] » .

وهو ما يتفق وتعاليم السيد المسيح إلى حوارييه عن عودته وعلامات تلك العودة مما سبقت الإشارة إليه ، فليست هناك عودة أخرى للمسيح إلاّ يوم القيامة . وليست هناك عودة بالتالى لإسرائيل إلى فلسطين إلا عودتهم الروحية يوم القيامة ، أما العودةالتى أشارت إليها أسفار العهد القديم فهى عودتهم من السبى البابلى ولا تتكرر العودة مرة ثانية .

وخلاصة ما تقدم أن الإرث فى إبراهيم هو إرث البركة والرسالة ، وأن الاختيار للأرض وليس للشعب مما يدحض أسطورة شعب الله المختار وما يدعيه بنو إسرائيل من حق فى فلسطين أو أرض الميعاد ، وأن بركة إبراهيم تحلّ فيمن يختار للرسالة وأن المختارين هم المختارون للهداية أى من يبعث فيهم نبى أو رسول .

وقد حلّت بركة إبراهيم فى أنبياء إسرائيل كما حلّت فى غيرهم من الأنبياء الذين بعثوا إلى الأقوام الآخرين فالمعروف أن الأنبياء جميعًا هم من نسل إبراهيم ، وقد نسخت رسالة المسيح ما قبلها من الرسالات

(١) حزقيال ٣٧ : ١٣ - ١٤ .

فحلّت فيه بركة إبراهيم ورسالته كما نسخت حق إسرائيل فى الرسالة بشيوع رسالة المسيح إلى الأمم جميعًا من كان من إسرائيل أو من غير إسرائيل .

وأما الأرض فهى الأرض المختارة اختارها الرب فى الأزمنة القديمة لينحدر إليها إبراهيم لأنها بموقعها الذى يتوسط رقعة العالم القديم أصلح مكان لنشر دعوة الإيمان والتبشير بها فى العالم الوثنى المحيط ، وخصّ بها أصحاب البركة والرسل من نسل إبراهيم سواء أكان من إسمعيل أم من إسحق ، وقدّسها فى كلّ دين وفى كلّ زمان ومكان وخصّها بالمؤمنين من عباده

الفصل الخامس

الإسلام والوعد المقدس

وجاء محمد ﷺ مصدّقاً لمن قبله من الرسل ، مصدّقاً بآيات إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، لم يجب ما قبله ولم ينسخ ما سبق ولكن أتم مرحلة التطور فى كمال الأديان السماوية . (قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسمعيل وإسحٰق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون[1]) .

ولقد ذكرت هذه الأديان السماوية فى القرآن الكريم بأنها الإسلام وأن أتباعها ومعتنقيها والمؤمنين بها مسلمون (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون)[2] وعن إبراهيم عليه السلام (ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين[3]) .

فالإسلام هو عقيدة السماء منذ بعث الأنبياء على وجه الأرض وكانت رسالة الله إلى عباده على لسان أنبيائه منذ نوح حتى محمد عليهم السلام أجمعين (إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين

---

(١) آل عمران آية ٨٤ .

(٢) المائدة آية ١١١ .

(٣) آل عمران آية ٦٧ .

ذريةً بعضها من بعض والله سميعٌ عليمٌ[١]) وجاء كلّ نبى مصدقاً لمن قبله من الأنبياء والرسل (إنا أنزلنا التوراة فيها هدًى ونورٌ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربّانيّون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون[٢]) .

وفى لوقا « وقال لهم هذا هو الكلام الذى كلمتكم به وأنا بعد معكم أنه لابدّ أن يتم جميع ما هو مكتوب عنى فى ناموس موسى والأنبياء والمزامير[٣] » وفى أعمال الرسل « أيها الرجال الإخوة بنى جنس إبراهيم والذين بينكم يتقون الله إليكم أرسلت هذا الخلاص ؛ لأن المساكين فى أورشليم ورؤساءهم لم يعرفوا هذا . وأقوال الأنبياء التى تقرأ كلّ سبت تمحوها إذ حكموا عليه[٤] » .

فالمسيح عيسى بن مريم قد بعث إلى بنى إسرائيل كما بعث إلى الناس جميعاً لا فرق بين يهودى وأممى « وأن يكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدئاً من أورشليم[٥] » ، كما بعث محمد إلى قومه وعشيرته أوّلا ثم كانت رسالته إلى العالم أجمع (وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل إنّى برىء ممّا تعملون[٦]) .

والإسلام كما ذكر فى القرآن هو دين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى

---

(١) آل عمران آية ٣٣ - ٣٤ .
(٢) المائدة آية ٤٤ .
(٣) لوقا ٤٤ : ٤٤ . .
(٤) أعمال الرسل ١٢ : ٢٦ - ٢٧ .
(٥) لوقا ٢٤ : ٤٧ .
(٦) الشعراء آية ٢١٤ - ٢١٦ .

ومحمد وكلّ الأنبياء ومن تبعهم من الناس ، وليس فى التوراة أو الإنجيل ما ينقض ذلك . فالإسرائيليون نسبة إلى إسرائيل وهو يعقوب وقد دعى بإسرائيل أى المجاهد فى سبيل الله تكريماً له ، واليهود نسبة إلى دولة يهودا وكان الفرس أوّل من أطلقها على الإسرائيليين حين نسبوهم إلى دولتهم فهى لا تعنى ديناً وإن غدت تعنى كلّ من يدين بالشريعة الموسوية ، والعبرية من عبرى ولا تعنى كاليهودية ديناً كما لا تعنى جنسيةً معينةً وكان الكنعانيون أوّل من أطلقها على إبراهيم وذريته كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

والمسيحية هى أيضاً نسبة إلى المسيح والنصرانية نسبة إلى الناصرة حيث ينسب السيد المسيح وقد وردت فى القرآن صفة لأتباع المسيح وشاعت فى اللغة العربية على هذا المعنى ، ويشيع اصطلاح مسيحى ومسيحية فى اللغات الأوربية ولا تعرف هذه اللغات مصطلح نصرانى ونصرانية ، أما القبطية والأقباط فتطلق على كلّ من يدينون بالمسيحية فى مصر ، وهم فى الأصل أتباع المذهب اليعقوبى وإن تجاوزتهم إلى غيرهم من أتباع المذاهب المسيحية الأخرى فى مصر جوازاً ، وعلى هذا القياس نسب الأوربيون الإسلام إلى محمد فقالوا المحمدية وقالوا عن المسلمين المحمديين .

ولم يرد فى التوراة مسمّى للعقيدة اليهودية وكلّ ما جاء قريباً من هذا المعنى أنها بركة الرب التى حلّت فى إبراهيم وذريته ويبدو أنها بركة الرسالة على ما يظهر من قصة يعقوب وعيسو مع أبيهما أسحٰق حين أراد إسحٰق أن تكون بركته لعيسو واحتالت امرأته ليعقوب حتى تكون له بركة أبيه بدل أخيه عيسو . وذكرت فى سفر الخروج على أنها عهد الرب إلى بنى إسرائيل « وأخذ موسى الدم ورش على الشعب وقال هوذا دم العهد الذى

قطعه الرب معكم على جميع هذه الأقوال[1] » وليس فى هذا ما يدل على صفة أو اسم .

وفى المسيحية أنها ملكوت السموات وملكوت الله وأنها العمادة باسم الآب والابن والروح القدس وأنها التكريز باسم الرب وكلّ هذه صفات وليست مسمّيات ، أما فى الإسلام فقد جاءت التسمية صريحةً قاطعةً للعقيدة فهى الإسلام أو الدين الإسلامى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً)[2] .

فالإسلام ليس ديناً جديداً يبشّر به محمد ﷺ وإنما هو الدين الذى بعث به إبراهيم وموسى وعيسى ، دين عبادة الله وحده لا شريك له ، الوحدانية المطلقة المنزهة عن كل شرك وهى آخر مرحلة من مراحل التطور فى إدراك حقيقة الله ، تلك المراحل من التطور التى مرّت بها رسالة السماء منذ بعث نوح حتى محمد عليهما السلام .

(إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسمٰعيل وإسحٰق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً[3]) .

ففى محمد ﷺ انتهت بركة إبراهيم ورسالته كما انتهت من قبل إلى إسماعيل وإسحٰق ويعقوب وموسى عليهم السلام .

وقد جبت رسالة يسوع كما قلنا دعوى إسرائيل فى التميز والاختيار ونسخت أن تكون الأرض المقدسة أو أرض الميعاد لغير المؤمنين بملكوت السموات فاللعنة تحلّ بإسرائيل كغيرهم من الأمم حين يضلّون « ياأورشليم ياأورشليم ياقاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها كم مرة أردت

---

(١) خروج ٢٤ : ٨ .

(٢) المائدة آية ٣ .

(٣) النساء آية ١٦٣ .

أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا . هوذا بيتكم يترك خراباً ، لأنى أقول لكم إنكم لا تروننى من الآن حتى تقولوا مبارك الآتى باسم الرب[1] » .

واللعنة تلاحقهم فى القرآن بكفرهم وضلالهم كما لاحقتهم من قبل فى الإنجيل (ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجّداً وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً . فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حقٍّ وقولهم قلوبنا غلفٌ بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلّا قليلاً . وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً.وقولهم إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسولَ الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم وإنّ الذين اختلفوا فيه لفى شكٍّ منه مالهم به من علم إلّا اتّباع الظنّ وما قتلوه يقيناً . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً . وإن من أهل الكتاب إلّا ليؤمننَّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً . فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلّت لهم وبصدّهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الرِّبا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال النّاس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً[2]) .

والإرث كما قلنا هو إرث البركة والرسالة والاختيار للأرض المقدّسة وليس للشعب . ووجه الاختيار للشعب أى شعب أنه اختصّ بالرسالة كما اختص بنو إسرائيل برسالة موسى والأنبياء ولن تحلّ فى الشعب المختار بركة العهد وبركة الرسالة مالم يؤمن ، ولن تكون له الأرض الموعودة ما لم تحلّ فيه بركة العهد وبركة الرسالة معاً ، فإذا تجاوزتاه فقد حرم منها إلى الأبد ، فإذا اختص بنو إسرائيل بالرسالة فقد حلّت فيهم بركة العهد

---

(١) متى ٢٣ : ٣٧ - ٣٩ .
(٢) النساء آية ١٥٤ - ١٦١ .

وكانت لهم الأرض الموعودة ما ظلّوا قائمين على العهد ، فإذا تجاوزوه وتجاوزتهم الرسالة لم يكن لهم فى الأرض الموعودة نصيب ولن تكون لهم عودة إليها .

أما العودة التى أشار إليها أنبياؤهم فقد كانت قبل ظهور المسيح حين خلّصهم كورش الفارسى من سبى بابل وعاد بهم إلى أورشيم فأقاموا جدرانها وأعادوا بناء الهيكل ولم تشر التوراة إلى عودة ثانية لإسرائيل ، إلّا عودتهم الروحية يوم القيامة وهى التى يشير إليها حزقيال كما تشير إليها آية الإنجيل « أنكم لا تروننى من الآن حتى تقولوا مبارك الآتى باسم الرب » وكانت تلك الآية حين أخذ المسيح عليه السلام يخبر حوارييه ويتنبأ لهم بعزم اليهود على صلبه . وفى هذه العودة يتساوون بغيرهم فهى عودة البعث والنشور . وإلى تلك العودة الروحية لإسرائيل يشير القرآن بقوله : (وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً)[1] .

ولقد قلنا من قبل إن الاختيار للأرض المقدسة وليس للشعب وهى الأرض التى باركها الله لتكون قدس أنبيائه وإشراقة رسالاته إلى العالمين وهى أرض الميعاد ، التى وعد الله بها الصالحين من عباده وآثر بها إبراهيم وذريته من بعده كما آثرهم بالبركة والرسالة حتى تكون الأرض المقدسة طهوراً ومن عليها مطهرين . (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين[2]) وينقضى هذا الإيثار بشيوع الرسالة بين العالمين من كانوا من ذرية إبراهيم أو من غير ذريته ، فالأرض قد باركها الله للعالمين جميعاً لا لإبراهيم ولا لذريته وحدهم ولكنها الأرض المقدسة عند كل من آمن

---

(١) الإسراء آية ١٠٤ .

(٢) الأنبياء آية ٧١ .

برسالات السماء (ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكلّ شىءٍ عالمين[1]) .

وجبَّ القرآن كالمسيحية فى ذلك ما أدعت إسرائيل من تميزّ على أبناء إبراهيم الآخرين ومن استعلاء على غيرهم من الخلق فكل أبناء إبراهيم أمّة واحدة (إنّ هذه أمتكم أمّةً واحدةً وأنا ربُّكم فاعبدون[2]) بل صان الدين الإسلامى أتباعه ومعتنقيه عن التمايز والاستعلاء (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم[3]) .

وفسّر البيضاوى تلك الآية الكريمة بقوله : « أى خلقناكم من أب وأم فالكل سواء فى ذلك فلا وجه للتفاخر بالنسب ، وقيل الشعوب بطون العجم والقبائل بطون العرب ، ليعرف بعضكم بعضاً لا للتفاخر بالآباء والقبائل » .

والإسلام دعوة التوحيد إلى الناس كافة لا فرق بين عربى وعجمى أو أسود أو أبيض ، أو من ذرية إبراهيم أو غير ذريته كقوله تعالى : (وماأرسلناك إلّا كافّة للناس بشيراً ونذيراً ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون[4]) وقوله عليه السلام « بعثت إلى الناس كافة » وقوله « أنا رسول من أدركت حيًّا ومن ولد بعدى »[5] . وعن أبى هريرة « قيل يارسول الله من أكرم الناس ؟ قال : أتقاهم . فقالوا : ليس عن هذا نسألك . فقال : فعن معادن العرب تسألونى ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم

---

(١) الأنبياء آية ٨١ .
(٢) الأنبياء آية ٩٢ .
(٣) الحجرات آية ١٣ .
(٤) سبأ آية ٢٨ .
(٥) الأحاديث فى كتاب الطبقات الكبير لابن سعد جـ ١ ص ١٢٧ - ١٢٨ .

فى الإسلام إذا فقهوا ، وإن كان الله تعالى قد حكم بأن الأكرم هو الأتقى ولو أنه ابن زنجية لغية ، وأن العاصى الكافر محطوط الدرجة ولو أنه ابن نبيين[1] » .

وقال عليه السلام فى حجة الوداع « يأيها الناس إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربىٍّ على عجمىٍّ فضل إلّا بالتقوى » .

والناس فى الإسلام سواء وذلك أسمى ما يصل إليه الارتقاء الإنسانى فى سلم التطّور الحضاري وما كان الرسول عليه السلام إلّا ليسوّى بين الناس جميعاً لا يؤثر أحداً على أحد أو يتيه بإنسان على إنسان ، وفى قصّة ابن أم مكتوم ما يبرز هذا المعنى الجليل فقد أتى رسول الله وعنده صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام ، فقال : يارسول الله علمنى مما علمك الله . وكرر ذلك ولم يعلم تشاغله بالقوم ، فكره رسول الله قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه ، فنزلت هذه الآيات (عبس وتولّى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعلّه يزّكى . أو يذّكّر فتنفعه الذكرى . أمّا من استغنى . فأنت له تصدى . وما عليك ألّا يزكّى . وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تلهى[2]) . فكان رسول الله يكرم ابن أم مكتوم ويقول إذا رآه « مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى ! » واستخلفه على المدينة مرتين[3] .

والإسلام فى شعائره عنوان المساواة التامّة بين الناس جميعًا فالناس فى الصلاة يقفون صفوفًا إلى جوار بعضهم البعض كلٌّ فى مكانه . الذى قدم عليه لا ينزعه إلى غيره ، ولا يتقدّم سوى الإمام ومن عساه يكون من

(١) مقدمة كتاب الأنساب لابن حزم الأندلسى ص ١ .
(٢) عبس آية ١ — ١٠ .
(٣) تفسير البيضاوى .

رجال العلم ، والناس يوم الحج الأكبر يقفون بعرفة فى أردية واحدة يدعون ويبتهلون لا فرق بين صغيرهم وكبيرهم فالكلّ فى عقيدة السماء سواء .

والتميز الذى ادعاه بنو إسرائيل واتخذوا من آى التوراة دليلاً عليه هو تميّز الإيمان والتقوى لا تميز العنصر أو النسب فهم كعادتهم قد فسّروا التوراة تفسيراً ماديًّا وجعلوا من عهود الرب صفقةً تجاريةً . كما يقول « ويلز » عقدها الرب مع أبيهم إبراهيم لصالحهم . وهو التميز الذى أنكرته المسيحية كما أنكره الإسلام ، بل إن السيد المسيح ليوغل فى دحض هذا التميز والاستعلاء إلا فى التقوى ومحبّة الله « الحق أقول لكم لم أجد ولا فى إسرائيل إيماناً بمقدار هذا ، وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحٰق ويعقوب فى ملكوت السموات . وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجة[1] » .

والإنسان بعمله لا بنسبه « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون . فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه وافعلوه . ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون[2] » والناس بأعمالهم لا بأقدارهم «وأكبرهم يكون خادماً لكم ، فمن يرفع نفسه يتّضع ومن يضع نفسه يرتفع[3] » .

فالفضل والتميز اللذين لبنى إسرائيل هما فضل البركة وتميز الرسالة مما لا ينكره الإنجيل كما لا ينكره القرآن . (يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنّى فضّلتكم على العالمين)[4] .

---

(١) متى ٨ : ١٠ – ١٢ .
(٢) متى ٢٣ : ٢ – ٣ .
(٣) متى ٢٣ : ١١ – ١٢ .
(٤) البقرة آية ١٢٢ .

ويزول ذلك الفضل وذاك التميز بانتقال البركة منهم إلى غيرهم وتجاوز الرسالة قومهم إلى أقوام آخرين ، بل إنهما ليزولا عنهم إذا ما ضلّوا عن ذكر ربّهم وكفروا بأنعمه وخالفوا وصاياه ، بذلك قالت التوراة وبه قال الإنجيل والقرآن .

وقد ضلّ بنو إسرائيل قبل أن يبعث فيهم المسيح وظلّوا على كفرهم وبهتانهم بعد أن بعث إليهم وازدادوا كفرًا وبهتانًا قبل رسالة محمد وبعد رسالته ، بل إن كفرهم وبهتانهم كانا على حياة أنبيائهم ، لم تُرغْهم المعجزات ولم تَزغْهم كرامة الأنبياء . (ولقد آتينا موسى الكتاب ، وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيّدناه بروح القدس أفكلّما جاءكم رسولٌ بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقاً كذّبتم وفريقاً تقتلون)[1] . ثم يمارون في الحق ويخدعون إيمانهم (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أُنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحقّ مصدّقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين . ولقد جاءكم موسى بالبيّنات ثم اتّخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون)[2] .

بل إنا لنعتقد أن بنى إسرائيل كانوا عبرة للعالمين ضرب الله بهم مثلاً وجعل منهم موعظةً للناس ، فليس بعد من كرم بالنسب كرامتهم وليس بعد من اختير للرسالة وخصّ بالبركة قبلهم ولكنهم ضلّوا وهم ذرية إبراهيم وكفروا وهم من أرسل إليهم إسحٰق ويعقوب وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء فكان جزاء ضلالهم عذاب الدنيا والآخرة وكان جزاء كفرهم هوان الحياة طوال الحياة ولهم فى الآخرة جهنم وبئس المصير ، ليكونوا عظةً وعبرةً لمن لم يشرفوا بنسب ولم يكن لهم فضل الإيثار ، فإذا

---

(١) البقرة آية ٨٧ .

(٢) البقرة آية ٩١ - ٩٢ .

كان الله جلّت قدرته قد أنزل عذاب الدنيا والآخرة ببنى إسرائيل وهم ذرية إبراهيم ومن آثرهم الله بنعمة البركة والرسالة فلا ريب من عذاب شديد يحيق بكلّ من كفر وضلّ سبيل الله حتى ولو كان ابن نبيين فالناس فى ملكوت السموات سواء ولا فضل لعربىٍّ على عجمىٍّ إلّا بالتقوى .

ولقد ضرب القرآن ببنى إسرائيل مثلاً فى كثير من السور والآيات فهم من أنعم الله عليهم وفضّلهم على العالمين يكفرون بنعمة الله ويقتلون أنبياءهم فتحيط بهم اللعنة وينزل بهم عذاب شديد ، كذلك كان فى التوراة والإنجيل حتى لا يكون للناس من بعد عذر فى تقوى الله وطاعته .

ويجمع الإنجيل والقرآن على نعت بنى إسرائيل بالنفاق وتحريف الكلم عن مواضعه ففى متى « ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون » وفى القرآن (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريقٌ منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون)[1] .

ومن قبيل هذا التحريف ادعاء أرض الميعاد حقا لهم وميراثاً عن أبيهم إبراهيم وادعاء التميز على شعوب الأرض وأن الله آثرهم وحدهم بالاختيار بتفسير التوراة على هواهم فممّا لا يقبله عقل أو منطق أن يؤثر الله قوماً من عباده على آخرين ما لم تكن هناك حكمة فى هذا الإيثار ومما لا يقبله عقل أو منطق أن يكون الإيثار الالهى ماديًّا بعقار أو جاه تنتفى معه الحكمة والتأويل . فالإيثار الذى كان لبنى إسرائيل الذى يجمع عليه القرآن والإنجيل هو الإيثار الروحى لذرية إبراهيم وهو إيثار البركة والرسالة لا الصلة والانتماء ، وأرض الميعاد هى أرض البركة والرسالة وهى لمن حلّت فيهم البركة واهتدوا بهدى الرسالة ، وهذا هو ما عنته التوراة وما يعنيه الوعد الإلهى لإبراهيم .

---

(١) البقرة الآية : ٧٥ .

ولم تشر أسفار العهد الجديد إلى هذا العهد الإلهى الذى ردّدته أسفار العهد القديم إلاّ بأن الوعد هو للموعودين بملكوت السموات سواء أكانوا من بنى إسرائيل أم من غير بنى إسرائيل .

ولم يشر القرآن إلى أرض موعودة لبنى إسرائيل يتوارثونها جيلاً بعد جيل أبد الآبدين ولم يذكر غير قصّة خروجهم من مصر وكيف أرسل إليهم موسى نبيًّا ورسولاً ليخلّصهم من ظلم المصريين وليصعد بهم إلى الأرض التى « باركنا فيها للعالمين » وكيف عصوا موسى وعبدوا العجل فضرب عليهم التيه فى بيداء سيناء أربعين عاماً ثم كيف كان ضلالهم وكفرهم بأنبيائهم فحقّ عليهم العذاب الموعود . ويضرب القرآن بذلك مثلاً لمن بغى وكفر بأنعم الله .

ومن خلال سور القرآن وما أنزل فيه عن إبراهيم وغيره من الأنبياء نرى تلك الصلة الوثيقة بين الرسالة التى بعث بها محمد ورسالات من سبقه من الأنبياء ، فمحمد قد بعث ليتم رسالة السماء ويكمل كما قلنا مرحلة التطور فى كمال الأديان السماوية ، تلك الأديان التى أشار إليها القرآن باسم الإسلام ، وكلمة الإسلام من التسليم لله ، والمسلم من كان إيمانه بالله ، ولله يسلم بذلك تسليماً لا تشوبه شائبة من شك ، أو شرك .

ويسهب القرآن فى ذكر من سبق من الأنبياء والرسل وكيف كان كلّ نبى منهم داعيًا إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له وكيف كان كلٌّ منهم مسلماً لله يدعو قومه إلى الإسلام وكيف كان موقف هؤلاء الأقوام ممن بعثوا إليهم من الأنبياء وكيف كان عذاب الله لمن لا يؤمن من هؤلاء الأقوام فلم يكن الله ليمهل تلك الأقوام إلى أجل الآخرة ، بل يفجأهم بالعذاب الشديد وهم عنه غافلون جزاء ما أساءوا إلى أنبيائه ورسله ، كقوم ثمود وعاد ولوط وبنى إسرائيل أنفسهم (وما كنّا معذّبين حتى نبعث رسولا) .

وترتقى صور هذا العذاب وتتطور بتطور العقيدة الدينية وارتقائها ، فصور العذاب المادى الدنيوى قد انقلبت إلى عذاب الآخرة حيث تجزى كلّ نفس بما كسبت ، فجاءت المسيحية تبشر بالتوبة وغفران الذنوب وجاء الإسلام بالرحمة ، وأن رحمة الله تسع كلّ شيء . وكانت فاتحة الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقد اتّخذ الوعد والوعيد قبل المسيحية والإسلام صوراً دنيويةً خالصةً ، فالوعد بالتملك أو إكثار النسل والبركة فى الحياة الدنيا والانتصار على الأعداء يقابلها الوعيد بالذل والعبودية والجوع والمرض والهزيمة والفناء ، ولعل ذلك كان سبباً فى تفسير اليهود لمرامى دينهم تفسيراً ماديا خالصا ارتبط فى أذهانهم بالتفوق والاختيار والحكم والسيطرة وامتلاك الأرض وقيام الدولة وبناء الهيكل والالتصاق بالأرض التصاقاً اختلطت فيه العقيدة الدينية بالآمال الدنيوية .

ولهذا خلا الإنجيل وخلا القرآن من تلك الصور المادية للثواب والعقاب الدنيوى وإن حفلا وعلى الأخصّ القرآن بالصور المادية لنعيم الآخرة فإن الذهن البشرى لم يكن ليتصوّر عذاباً أو بؤساً أو شقاءً إلا متصلاً بحياته على الأرض ، وما كان ليتصوّر النعيم إلّا فى تلك الصور البراقة التى تراود أحلامه وأمانيه فى حياته القائمة ، ثم ارتقى الذهن البشرى ليدرك أن حياة الأرض هى حياة فانية تعقبها حياة مخلدة فانفصلت صور الثواب والعقاب عن تلك الحياة الفانية لترتبط بالحياة المخلدة الباقية وأصبح الثواب ثواب الآخرة والعقاب عقاب الآخرة أيضاً وإن لبسا تلك الصور المادية للثواب والعقاب الدنيوى فقد أعدّت جهنم للكافرين والجنّة للمؤمنين ، ولا يعدو وصف جهنم والجنة ما نتصوره من مظاهرهما المادية ، ولعلّ الذهن البشرى فى ارتقائه الدائب إلى الكمال

يستطيع أن يفسر تلك الصور المادية تفسيراً آخر يتفق مع جلالها وعظيم خطرها . فالأديان السماوية قد خضعت لناموس التطور الذى خضعت له الحياة منذ الأزل حتى فى البرهان الذى أيّد الله به أنبياءه ، فبرهان نوح كان فى معجزة الطوفان والوحى إليه ببناء السفينة لينجو ومن معه من المؤمنين من خطر الطوفان ، وبرهان إبراهيم كان فى النار التى نجّاه الله منها فكانت برداً وسلاماً عليه ، وبرهان موسى كان فى عصاه التى تنقلب حيّة تسعى وفى اليد التى تخرج بيضاء من غير سوء ، وبرهان عيسى كان فى إحياء الموتى وإبراء المرضى ، أما برهان محمد فقد سما على تلك الظواهر المادية إلى خطاب العقل ومناجاة الضمير ، ليرى الإنسان وينظر ويفكّر بنفسه أين الهدى وأين الضلال ، أين الحقيقة وأين الباطل ، أين وحى العقل وأين وحى الخرافة ، فكان هذا الانتقال من عالم الحسّ إلى عالم الضمير بداية الكمال فى ارتقاء الذهن البشرى .

لهذا كان الخلاف بيّنًا بين التفسير اليهودى للوعود المقدسة وعهود الرب مع إبراهيم وبين كل من التفسيرين المسيحى والإسلامى .

فاليهود قد فسروا تلك العهود تفسيرًا ماديًا خالصًا فعبارة « أعطى هذه الأرض » فسّرت بمعنى الحيازة والتملك وكلمة « لنسلك » بمعنى الذات أو سلالة المولد بينما فسّرها المسيحيون بمعنى الاتحاد بالمسيح اتحاداً روحيًا أى كل من آمن برسالة المسيح هم من نسل إبراهيم ، وأن أرض الميعاد هى أرض الملكوت وهى لكل من حلّت فيهم بركة المسيح وظفروا بنعمة التجديد .

ويأتى الإسلام فلا يذكر عن أرض الميعاد إلّا أنها الأرض المقدسة التى « باركنا فيها للعالمين » ولا يرد ذكر للإرث والتملّك أو أىّ عهد لإبراهيم مع الرب إلّا عهد البركة والرسالة حتى إذا ذكرت قصة موسى مع بنى

إسرائيل نجد ما يشير إلى الأرض التى كتبت لهم (وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكًا وآتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إنّ فيها قومًا جبّارين وإنّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى إنّا لن ندخلها أبدًا ماداموا فيها فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا هٰهنا قاعدون . قال ربِّ إنّى لا أملك إلّا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين. قال فإنّها محرّمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين[1]) .

وقد يبدو لأوّل وهلة أن عبارة « الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » تفيد معنى التملك وما يتبع التملك من حقوق التوريث ، ولكن الاستطراد يفيد أنهم حرموا وهم على أبوابها أربعين عاماً ضرب عليهم فيها التيه لعصيانهم وضعف إيمانهم حتى أن موسى دعا الله أن يفرق بينه وبين هؤلاء القوم الفاسقين ، فإذا لجوا فى عصيانهم فإن ما حرّم عليهم لسبب عارض ولزمن معين يحرم عليهم أبد الآبدين إذا ما انقلب هذا السبب العارض سبباً جوهريًا ، فإذا كان الله قد ضرب عليهم التيه أربعين عاماً حرم عليهم فيها دخول الأرض المقدسة لأنهم امتنعوا عن دخولها ، وضعف إيمانهم عن الثقة بنصر الله وخافوا بطش الجبارين ، فما بالك إذا عظم الإثم فإنه أولى بمضاعفة الجزاء . وإذا أجمعت الكتب السماوية المقدسة – التوراة والإنجيل والقرآن – على ضلال بنى إسرائيل وقد أجمعت على

(١) المائدة آية ٢٠ – ٢٦ .

ذلك فإن حرمانهم مما آثرهم الله به هو قرين آثامهم وعصيانهم لوصايا « الرب » وإن اللعنة لتحلّ بهم أبد الآبدين (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيرا منهم يتولّون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون[1]) .

وإن عصيان بنى إسرائيل وكفرهم بأنعم الله وآياته بعد أن آتاهم الكتاب والحكم والنبوة لقمين أن ينقلها عنهم إلى غيرهم (أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين[2]) .

ويؤيّد ذلك ما قلناه من قبل وهو أن الوعد المقدس هو وعد البركة والرسالة ، وهما فى ذرية إبراهيم نبيا بعد نبىٍّ حتى محمد ﷺ ، وأنه حق لكل من آمن برسالة الأنبياء سواء أكان من ذرية إبراهيم أم غير ذريته ، وأن الأرض المقدسة هى للمؤمنين من هؤلاء ، وإن ذلك لينسخ دعوى بنى إسرائيل فى التميز والاختيار فلا نجد خلافاً حول ذلك فى مدلول الكتب المقدسة وأوّلها التوراة ، وسنرى أن هذا الوعد الإلهى قد تحقق برمته فى ذرية إبراهيم ، فكانت لهم الأرض المقدسة بغلبة أبناء إسماعيل على ما عداهم وانتشارهم فى تلك البقاع قبل وبعد امتداد الموجة الإسلامية الباهرة إلى تلك البقاع وأصبحت الأرض المقدسة حرمًا مباركًا فى كلّ أديان السماء .

ويؤكد القرآن ذلك فى صراحة ووضوح فى هذه الآية الكريمة (وإذ

---

(١) المائدة آية ٧٨ - ٨٠ .
(٢) الأنعام آية ٨٩ .

ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمّهن ، قال إنى جاعلك للناس إماما ، قال ومن ذرّيتى ، قال لا ينال عهدى الظالمين[1]) .

فوراثة عهد إبراهيم هى لمن آمن بالرسالة التى بعث بها ، وليس لذريته أن تدّعى حق الوراثة فى عهده ما لم يؤمنوا برسالته فإذا امتدّ الإيمان إلى غيرهم كان لهم ما لذريته من حق عليه ، فالإيمان لا يمكن أن يكون احتكارًا لأمة أو جنس يتوارثه بحكم النسب أو صلات الدم ، وإنما الإيمان إيمان القلب من رعاه فى أىّ جيل وفى أىّ قبيل كان أولى بوراثة العهد من أبناء الصلب وأقرباء النسب ، فمن استقام على العقيدة فهو وريثها ووريث بشاراتها وعهودها ، ومن فسق عنها فقد فسق عن عهد الله وزالت وراثته لهذا العهد وما فيه من تكريم وتفضيل وبشارة وتمكين[2] .

ويسقط هذا كلّ دعاوى اليهود فى اصطفائهم واجتبائهم لمجرد أنهم ورثة إبراهيم وبنيه لأن هذه الوراثة قد سقطت عنهم بزيغهم وتخلّيهم عن العقيدة الإلهية الخالدة .

ومما يدل على وحدة الدين الإلهى من اليهودية إلى المسيحية فالإسلام أن القبلة الأولى للمسلمين كانت بيت المقدس حتى تحوّلوا عنها إلى الكعبة ، وليس التحوّل عنها إلى الكعبة لأنها مقام إبراهيم ومصلّاه ولا لأنها البيت الذى شارك فى بنائه إسماعيل أب العرب فيكون أبناء إسماعيل أولى بقبلتهم من قبلة أبناء إسحٰق ، ولكن الحكمة فى اختيار بيت المقدس قبلة أولى للمسلمين حتى يتأكد ذلك المعنى الكريم معنى وحدة الرسالة الإلهية منذ بعث بها إبراهيم حتى تمت على يد محمد ، وحتى لا يكون اختيار بقعة بالذات وإيثارها بالقداسة والتكريم إيثاراً على غيرها

---

(١) البقرة آية ١٢٤ .

(٢) سيد قطب فى ظلال القرآن جـ ١ ص ٨٤ .

فلله المشرق والمغرب ، ولا يكون اختيار بيت المقدس إيثاراً لذرية إبراهيم من إسحٰق واختيار الكعبة إيثاراً لذريته من إسماعيل فإن كليهما فى عهد أبيهما إبراهيم سواء ، ولعلّ فى اختيار بيت المقدس أوّلا ثم التحوّل عنه إلى الكعبة ما يرمز إلى تحوّل البركة والرسالة من ذرية إسحٰق إلى ذرية إسماعيل مع توكيد الوحدة الكبرى للرسالة الإلهية فى إبراهيم وانتهائها فى محمد ، فإن الله جلّت قدرته ، لو لم تكن له فى ذلك حكمة عليا لهدى رسوله إلى القبلة التى يختار منذ البداية ، فإن جعل لذلك سبباً فلأجل أن تبرز تلك الحكمة العليا وتستبين .

وكان هذا السبب حين حاجّ اليهود محمدًا فى مقامه بالمدينة فى حين أن من سبقه من الرسل كانت إقامتهم ببيت المقدس وأنه إن يكن رسولاً حقًّا فجدير به أن يصنع صنيعهم وأن يعتبر المدينة وسطًا فى هجرته بين مكة وبيت المقدس مدينة المسجد الأقصى . لكن محمدًا لم يحتج إلى طويل تفكير فيما عرضوا عليه ليعلم أنهم يمكرون به وأوحى إليه الله يومئذ على رأس سبعة عشر شهرًا من مقامه بالمدينة ، أن يجعل قبلته إلى المسجد الحرام بيت إبراهيم وإسماعيل[1] ونزلت الآية : (قد نرى تقلُّب وجهك فى السماء فلنولِّينّك قبلةً ترضاها فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره[2]) .

وقد لا تغيب تلك الحكمة على ذوى الفطن بعد أن تحول المسلمون بقبلتهم عن بيت المقدس إلى البيت الحرام بمكة فإنه أول بيت رفع إبراهيم قواعده وذلك قبل بناء هيكل بيت المقدس ببضع مئات من السنين . فلم يكن الهيكل قبل ذلك وفى عهد البداوة غير خيمة اعتقد الشعب أن الله

---

(١) الدكتور محمد حسين هيكل ، حياة محمد . الفصل ١١ .

(٢) البقرة آية ١٤٤ .

يتجلى فيها للأنبياء والكهان ثم بنيت الخيمة من خشب يفكّ وينقل فى سنى التيه حتى أقام سليمان الهيكل بديلاً من الخيمة ومن المعبد الخشبى[1] .

وكان إبراهيم فى تجواله بأرض كنعان حين انحدر من حاران يقيم مذبحًا للرب حيثما تجلّى له وكان أوّل ما أقام من هذه المذابح حين تجلّى له الرب عندما اجتاز إلى « مكان شكيم إلى بلوطة موره[2] » وحين نقل من هناك إلى الجبل شرقى بيت ايل نصب خيمته وبنى هناك مذبحًا للرب[3] . وإلى هذا المكان كانت أوبته بعد خروجه من مصر . ولما اعتزل أخاه لوطا ونقل خيامه إلى « بلوطات ممرا التى فى حبرون » وأقام عندها « بنى هناك مذبحًا للرب[4] » ، وكان كل ذلك قبل أن يولد لإبراهيم ولد ، ولا يذكر بعد ذلك أن إبراهيم بنى مذابح أخرى للرب ، وقد اندثرت آثار تلك المذابح ولم يعد لبنى إسرائيل غير هيكل بيت المقدس وإن لم يكن لإبراهيم يد فى بنائه . أما البيت الذى بناه إبراهيم وبقى خالدًا على الزمن فهو البيت الذى أقامه حيث أسكن ابنه إسماعيل وتفجرت بئر زمزم وإن لم تشر التوراة إليه إلّا أن تاريخ العرب يؤكده ويذكره القرآن فى مواضع كثيرة . (إن أوّل بيت وضع للناس الذى ببكّة مباركًا وهدًى للعالمين . فيه آياتٌ بيّناتٌ مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنًا [5]) .

والحكمة فى اختيار بيت المقدس قبلة أولى للمسلمين ثم التحوّل عنه إلى الكعبة هى الحكمة فى توكيد هذا المعنى من وحدة الدين الإلهى وهو المعنى الذى أشار إليه القرآن وأكّده فى أكثر من موضع حين دعا ما سبق من

---

(١) عباس محمود العقاد - عبقرية المسيح ص ٣١ .
(٢) تكوين ١٢ : ٦ .
(٣) تكوين ١٢ : ٨ .
(٤) تكوين ١٧ : ١٨ .
(٥) آل عمران آية ٩٦ - ٩٧ .

أديان بالإسلام وحين قال إن الأنبياء السابقين كانوا مسلمين وبعثوا برسالة الإسلام ، ومما يؤيّد ذلك أن هيكل بيت المقدس قد دعى فى القرآن باسم « المسجد الأقصى » تمييزًا له عن المسجد الحرام وهو الكعبة (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنّه هو السميع البصير[1]) .

وترتبط بهذا المعنى أيضًا حكمة الإسراء والمعراج ففى الإسراء يسرى محمد بآثار من سبق من الأنبياء فيقف عند جبل سيناء حيث كلّم الله موسى ثم يقف مرةً أخرى عند بيت لحم حيث ولد عيسى وينطلق بعد ذلك إلى بيت المقدس حيث يلقى إبراهيم وموسى وعيسى فصلى معهم على أطلال هيكل سليمان ، ثم يرتقى المعراج مرتكزًا على صخرة يعقوب فيصعد به سراعًا إلى السموات فيلقى فى طريقه إلى سدرة المنتهى آدم ونوحًا وهارون وموسى وإبراهيم وداود وسليمان وإدريس ويحيى وعيسى . فحكمة الإسراء والمعراج فضلاً عن أنها تمثل وحدة الوجود فى غاية كماله وجلاله فإنها تمثل أيضا وحدة البركة والرسالة التى تمثّلت فى هذا الرعيل من الأنبياء والمرسلين الذين لقى محمد فى إسرائه ومعراجه ، وهى خير مثال لوحدة هذا الدين الذى بعث به الأنبياء على اختلافهم .

وقصة إبراهيم التى يقص القرآن هى قصة رجل ألهم ما لم يلهم غيره من الناس فتبين ضلال قومه بعبادتهم لأصنام يصنعها أبوه ، لا تفقه ولا تعى ، وسأل أباه كيف يعبدها وهى من صنع يده ، وانصرف يقلّب وجهه فى السماء يتأمّل جلال هذا الكون وما عسى تكون تلك القوّة المبدعة الخلّاقة التى سوّته وأحسنت صنعه وظنّها القمر ثم ظنّها الشمس ولكنه رأى القمر والشمس يخضعان لما يخضع له سائر الخلق حتى هداه الله

---

(١) الإسراء آية ١ .

فأسلم وجهه إليه (فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبًا قال هذا ربى فلمّا أفل قال لا أحبُّ الآفلين . فلمّا رأى القمر بازغًا قال هذا ربى فلمّا أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكوننّ من القوم الضالين . فلمّا رأى الشمس بازغةً قال هذا ربى هذا أكبر فلمّا أفلت قال يا قوم إنى برىءٌ ممّا تشركون . إنّى وجّهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين[1]) .

ولم ينجح إبراهيم فى هداية قومه فهجرهم بعد أن نجّاه الله منهم وارتحل غربًا نحو فلسطين ثم نزل منها إلى مصر حيث حلّت بالبلاد مجاعة ثم صعد إلى فلسطين مرةً أخرى وقد حمل معه هدايا الملك ومن بينها جارية هى هاجر التى أولدها بكره إسماعيل بعد أن دفعته زوجه سارة إلى الدخول بها إذ لم تنجب هى لإبراهيم وما أن شبّ إسماعيل عن الطوق حتى حملت سارة وولدت إسحٰق .

وشب إسماعيل وإسحق سويًّا يلقيان من عطف أبيهما على حدٍّ سواء وأنكرت سارة أن يكون لابن الجارية ما لابنها عند أبيهما ، وأقسمت ألّا تساكن هاجر وابنها حين رأت إسماعيل يضرب أخاه ، ورأى إبراهيم أن العيش لن يطيب للمرأتين معًا ، فحمل هاجر وابنها جنوبًا حتى انتهى به الرحيل إلى وادٍ قفر تجتازه الرواحل شمالاً وجنوبًا فخلفهما فيه بعد أن ترك لهما بعض ما يتبلّغان به ونفد الماء والزاد وأخذت هاجر تجيل طرفها فيما حولها فلا ترى شيئًا فنزلت إلى الوادى تلتمس ماء وجعلت تهرول بين الصفا والمروة حتى أتمّت الهرولة سبعًا عادت بعدها إلى وليدها واليأس يجتاحها فوجدت الماء ينبع تحت قدمه فأروته وارتوت ، وحبست الماء عن السيل حتى لا يضيع فى الرمال واستهوى نبع زمزم بعض القبائل فأقامت

---

(١) الأنعام آية ٧٦ – ٧٩ .

إلى جواره وكانت جرهم أولى القبائل التى أقامت وإلى جرهم أصهر إسماعيل فاجتمعت فى ذريته دماء العبريين والمصريين وعرب الصحراء فكانوا ذوى بأس وقوّة وتمثّلت فيهم فضائل العرب والمصريين والعبريين[1] .

ويرفع إبراهيم قواعد البيت الحرام كعادته فى إقامة بيت الله حيثما يحلّ مثابة للناس وأمنًا ، ويعهد الله إليه وإلى ابنه إسمعيل أن يطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود ، ويدعو إبراهيم ربّه أن يؤمن هذا البلد ويفىء على أهله الخير (وإذ ابتلى إبراهيم ربُّه بكلمات فأتمهن قال إنّى جاعلك للناس إمامًا قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين . وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمنًا واتّخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود . وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا بلدًا آمنًا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر . قال ومن كفر فأمتّعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير . وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبَّل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمةً مسلمةً لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم . ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلّا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لربّ العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلاتموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى

(١) هيكل : حياة محمد ف ٢ .

قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق إلها واحدًا ونحن له مسلمون . تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون[1] .)

وتقصّ الآيات البيّنات رسالة إبراهيم وعهده فتجمل بذلك رأى الإسلام فى العهد الإلهى وورثة هذا العهد من ذريته أو من الناس أجمعين ، فإن الله تعالى ليبتلى إبراهيم ويجربه فيجتاز التجربة ويتم كلمات الله ويقوم برسالته لم يفتن ولم يغير ولم يجحد فاستحقّ تلك البشرى وحلّت فيه بركة الله فجعله للناس إمامًا يهديهم إلى الله ويكون لهم قدوة ، ويرجو إبراهيم أن يفىء على ذريته ما أفاء الله عليه فتأتيه كلمة الله قاطعةً وهى ألّا إرث فى عهده فلن يناله إلا من آمن بالله واليوم الآخر ولن يكون أبدًا للظالمين فليست لهم إمامة أو خلافة أو قيادة ولو كانوا من ذريته .

أما البيت الذى رفع إبراهيم وإسمعيل قواعده بأمر الله فهو بيت الله الحرام وهو مقام إبراهيم ، وهو مثابة وأمن للناس جميعًا لا يصدّهم عنه أحد ولا يروّعهم فيه مروّع وهو مصلّى لهم لا يمنعهم أحد عنه فمن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه فليس البيت لقبيل دون قبيل ولا لأمة دون غيرها وليس إرثًا لأناس يمنعونه عمّن يريد أو يصدّون عنه من تهفو نفسه إليه بل هو للناس جميعًا وما لأحد عليه من سلطان .

وإذ عهد الله لإبراهيم وإسماعيل (أنّ طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود) فهو عهد إليهما أن يقوما بسدانته وليس لهما فيه من حق غير هذا فالبيت بيت الله وليس ملكًا لهما وليس لهما أن يورثاه إلى غيرهما .

وتؤكد الآيات التاليات أمن البيت ومن يلوذ به كما تؤكد أن الإرث للبركة والرسالة فإن إبراهيم يدعو ربّه أن يفىء الأمن على بيته وأن يرزق

---

(١) البقرة آية ١٢٤ - ١٣٤ .

أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر أما الذين لا يؤمنون فيمهلون قليلاً ثم يضطرون إلى عذاب النار وليس لهم من فرار .

وإذ يرفع إبراهيم وإسمعيل القواعد من البيت فإنهما ليدعوان الله ويبتهلان إليه أن يتقبّل منهما وأن يفيء عليهما وعلى ذريتهما نعمة الإسلام وأن يبعث فيهم رسولاً يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيّهم فتحلّ فيه بركة الرسالة ، رسالة الإسلام ، وفيمن تبعه بركة الإيمان وينتهى إليهم إرث إبراهيم بنعمة الإسلام ، فما كان إبراهيم إلاّ مسلمًا بأمر ربّه اصطفاه الله وذريته لهذا الدين الحنيف الذى بعث عليه الأنبياء جميعا منذ إبرهيم حتى محمد عليهم السلام أجمعين ، وتلك أمة قد خلت لا تربطها صلة بأمة جاءت بعدها وضلّت طريقها فلكل منها ما كسب ، ولا مجال للتعلق بوراثة قد تقطعت أسبابها فلا تسألون عما كانوا يعملون فلكل منهما حساب ولكل منهما طريق .

وهكذا تقطع تلك الآيات البينات بأن عهد إبراهيم هو عهد البركة والرسالة لمن آمن من بعده من ذريته أو من غير ذريته وإن كان الله قد كرمه أعظم التكريم فكان كل الأنبياء من نسله أما الإيمان فليس وقفًا على نسله بل هو للعالمين جميعًا ، فلا مكان للاختيار أو التميز أو الاستعلاء فى أمر يتساوى فيه الناس أجمعون ، والأرض أرض البركة وقد كنى الله تعالى عنها بالبيت الحرام هى لله وحده يورثها من يشاء من عباده الصالحين وهى للناس جميعًا من كل قبيل ومن كل أمة فإن كان الله قد وعد بها إبراهيم فلم يعد بها غير المؤمنين من ذريته .

وهذه هى كلمة الإسلام فى الوعد الإلهى لإبراهيم ومعنى هذا الوعد الإلهى ومدى ما لذريته من حق فى وراثته لا يختلف ما جاء به الإسلام عما جاءت به المسيحية ولا يختلفان معًا عما جاء فى التوراة .

وقد صدق الله وعده فكان من إبراهيم أمة كعدد نجوم السماء ، وكان منها أنبياء وملوك وورثت تلك الأمة أرض الميعاد كما يقص التاريخ بعد ذلك .

الفصل السادس
مصداق الوعد

ولا نجد كتاريخ بنى إسرائيل مصداقًا للوعد المقدس الذى عاهد الله إبراهيم عليه ، ولا يعنينا فى هذا الجانب من البحث أن يكون الوعد المقدس هو وعد البركة والرسالة الذى حلّ فى إبراهيم وفى كلّ من تبع دينه من بعده ، كما لا يعنينا أن يكون الاختيار للأرض وليس للشعب ، وإنما يعنينا أن نتتبع تاريخ بنى إسرائيل فإن تاريخهم هو أبلغ برهان على صدق آيات الله فلو كان ما يعنونه بتفسير الوعد الإلهى حقًا لما كان هناك تناقض بين ما يعنونه وما جرى عليه تاريخهم منذ كان لهم تاريخ حتى اليوم ، ولأصبحوا منذ زمن بعيد سادة الهلال الخصيب بدلاً من أن لايكون لهم فيه مبرك بعير ، ولكانوا من كثرة العدد والانتشار ما يفوق كل ذرية إبراهيم الآخرين بدلاً من تلك القلّة التى لا تتجاوز بضعة عشر مليونًا ليسوا جميعًا من ذرية إبراهيم ، ولغدوا من الجاه والسلطان ما يفوق كل جاه أو سلطان لغيرهم بدل أن يكونوا أذلّاء مستضعفين فى العالم ، ولتباركت فيهم كلّ أمم الأرض بدل أن تنبذهم كل أمم الأرض ، فليس فى تاريخ بنى إسرائيل ما يوحى بأنهم حقًا ورثة هذا الوعد المقدس ، وإلاضلّ إيماننا بالقدرة الإلهية وبصدق وعد الله وحاشا لله أن يمترى وحاشا أن نلغو بالباطل كما يلغو به بنو إسرائيل .

ويبدأ تاريخ بنى إسرائيل بيعقوب أب الأسباط وقد عرفنا كيف نال يعقوب بركة أبيه إسحاق بدل أخيه عيسو وكيف أصبح يلقب بإسرائيل

أى الأمير المجاهد فى سبيل الله بعد مصارعة له مع ملاك الرب « فبقى يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر . ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب فى مصارعته معه . وقال أطلقنى لأنه قد طلع الفجر . فقال لا أطلقك إن لم تباركنى . فقال له ما اسمك فقال يعقوب . فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت . وسأل يعقوب وقال أخبرنى باسمك فقال لماذا تسأل عن اسمى ، وباركه هناك[1] » .

ويعقوب هو الجيل الثالث لإبراهيم وقد ولد له من زوجه « لية » رأوبين وشمعون ولاوى ويهوذا وبساكر وزبولون وابنة اسمها « دينة » كما وله له من جاريتها زلفة ولدان هما « جاد » و « أشير » ، وولدت راحيل « يوسف » و « بنيامين » وولدت جاريتها « بلهة » « دان » و « نفتالى » فيكون جملة أولاده ابنة واحدة واثنى عشر ولدًا هم الأسباط الاثنا عشر .

وولد هؤلاء الأبناء جميعًا ما عدا بنيامين فى « فدان أرام » حيث خدم يعقوب صهره وخاله « لابان » نيفًا وأربعة عشر عامًا وفاء لمهر زوجتيه على ما تقص التوراة أما بنيامين فقد ولد فى مكان بين أفراتة وبيت لحم[2] ، فى طريق يعقوب عند أوبته إلى بيت أبيه وأرض ميلاده .

وتجرى الرواية بعد ذلك فى التوراة وفى القرآن عن نزول يعقوب وبنيه إلى مصر حيث أصبح لابنه وأخيهم يوسف شأن عظيم فى بلاط فرعون . ويقيم بنو إسرائيل فى مصر زمنًا ويكثر عددهم ويلقون بعد رعاية فرعون يوسف ذلًا ممن أتوا بعده من الفراعين فقد خافوا كثرتهم كما خافوا خيانتهم كما تقصّ التوراة ورأوا فيهم شعباً غريبًا لا يؤمن جانبه

---

(١) تكوين ٣٢ : ٢٤ – ٢٩ .

(٢) تكوين ٣٥ : ١٦ : ٢٠ .

ولا يرجى ولاؤه فاستعبدوهم «فاستعبد المصريون بنى إسرائيل بعنف . ومرروا حياتهم بعبودية قاسية فى الطين واللبن وفى كل عمل فى الحقل ، كل عملهم الذى عملوه بواسطتهم عنفا[1]» .

ويبدو أن المصريين لم يستطيعوا هضم بنى إسرائيل فى بيئتهم ولم يتمثلوهم كما تمثلوا كل نازح من الغرباء إليهم واحتفظ بنو إسرائيل بطباعهم ومأثوراتهم وكل مقومات حياتهم بعيدة عن تأثير المصريين فعاشوا غرباء بينهم وليس للغريب فى الوطن النازح حق الأصيل مهما تقادم عليه العهد ، فالولاء للوطن ألفة ورباط وليس للغريب رباط أو ألفة لوطن يشعر أنه لا ينتمى إليه ، ولعل فى ذلك ما يفسر أمر فرعون بقتل الأبناء من المولودين دون البنات فإن استئصال الذكور يدفع بالإناث إلى ذكور آخرين من غير أبناء جنسهم ويكفل هذا التزاوج انصهار الشعب الغريب فى الشعب الأصيل وإن كان المفسرون يقولون بغير هذا ، وأن العرافين قد تنبأوا لفرعون بأن سيولد فى بنى إسرائيل ولد يغلبه وتكون نهايته على يديه فأمر بقتل كل مولود من الذكور .

وتمضى التوراة والقرآن فى قصة موسى وكيف ولد فأنقذه الله من أمر فرعون وردّه إلى أمه وكيف نشأ فى بيت فرعون حتى اشتدّ عوده ولم ينس أرومته فقتل مصريا دفاعًا عن عبرى وفر بعدها إلى أرض مدين ناجيًا بنفسه حيث تزوّج صفورة ابنة يثرون كاهن أو أمير مدين وعاش هناك زمنًا حتى بعث إلى بنى إسرائيل رسولاً ونبيا وليصعد بهم إلى أرض كنعان ، وأيّده الله بآيات من لدنه وأرسل معه أخاه هارون نبيًّا ليشدّ من أزره .

وصعد موسى ببنى إسرائيل من مصر وغاضت مياه البحر أمام بنى إسرائيل ليسلكوا طريقًا ذللًا ولحق به فرعون فأطبقت عليه مياه البحر

---

(١) خروج ١ : ١٣ - ١٤ .

فكان من المغرقين وتمّت معجزة السماء ونجا بنو إسرائيل من بطش فرعون ومن استعباد المصريين ، وخرجوا إلى برية سيناء ، لكنهم وقد جبلوا على الذل والغدر والنفاق والضلال كفروا بأنعم الله وصوّروا لأنفسهم عجلاً من ذهب عبدوه فضرب عليهم التيه فى البرية أربعين عامًا ولم يشأ الله أن يبطش بهم كما بطش بعاد وثمود وقوم لوط ولله فى ذلك حكمة فالخير والشر توأمان منذ بدء الخليقة ، ومن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، وإن الله ليمهل ولكنه لا يهمل ، (ومن كفر فأمتّعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) ، ولكن رحمته تعالى قد وسعت كل شىء فإذا وسعت رحمته بنى إسرائيل بعد ضلالهم ، فليضرب الله بهم مثلاً آخر غير المثل الذى ضربه بقوم عاد وثمود ومن ضل من قبل ، وليكون مثل بنى إسرائيل مثل من يجتبيه الله ويفضله بنعمائه ويكرمه ببركته فيكفر بأنعم الله وببركته تعالى فتحلّ عليه اللعنة إلى يوم الدين وتبقى اللعنة فيه وفى ذريته عبرةً لمن يكفر بأنعم الله ، ويضلّ سعيه فى الحياة الدنيا ، ويبقى المثل حيًّا بتجدّد اللعنة وتعاقبها فيهم جيلاً بعد جيل .

وهكذا كانت حياة بنى إسرائيل منذ أن كانوا حتى اليوم أمثولة للبشر ، وذكرى باقية حية لمن يكفر بنعمة الله . وأوّل آثار هذه اللعنة الأبدية أن تزول عنهم البركة وتغيض عنهم النعمة ، فهاهم بعد أن خرجوا من سيناء إلى قادش من مشارف أرض كنعان يمتنعون عن دخولها خوفًا وهلعًا من سكانها ويقولون لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون . فكأنهم بعد كل ما مرّ بهم من أحداث وما شاهدوه من معجزات السماء لا يثقون فى وعد الله بنصره إياهم ، ويقعدون عن دخول الأرض التى كتب الله لهم ، وقال الذين ذهبوا يكتشفونها إن « الأرض التى مررنا فيها لنتجسسها هى أرض تأكل سكانها وجميع الشعوب الذى رأينا فيها

أناس طوال القامة . وقد رأينا هناك الجبابرة بنى عناق من الجبابرة فكنا فى أعيننا كالجراد وهكذا كنا فى أعينهم[1] » .

وغضب الله عليهم وأراد ليبطش بهم لولا أن تشفع لهم موسى « فإن قتلت هذا الشعب كرجل واحد يتكلم الشعوب الذين سمعوا بخبرك قائلين . لأن الرب لم يقدر أن يدخل هذا الشعب إلى الأرض التى حلفت لهم قتلهم فى القفر . فالآن لتعظم قدرة سيدى كما تكلمت قائلا . الرب طويل الروح كثير الإحسان يغفر الذنب والسيئة لكنه لا يبرئ بل يجعل ذنب الآباء إلى الجيل الثالث والرابع . أصفح عن ذنب هذا الشعب كعظمة نعمتك وكما غفرت لهذا الشعب من مصر إلى هاهنا . فقال الرب قد صفحت حسب قولك . ولكن حى أنا فتملأ كل الأرض من مجد الرب . إن جميع الرجال الذين رأوا مجدى وآياتى التى عملتها فى مصر وفى البرية وجربونى الآن عشر مرات ولم يسمعوا لقولى . لن يروا الأرض التى حلفت لآبائهم ، وجميع الذين أهانونى لا يرونها[2] » .

وضرب الله عليهم التيه فى البرية أربعين عامًا بدل أن يبطش بهم حتى فنى ذلك الجيل الذى شهد معجزات الرب وعصاه فكانت تلك أوّل لعنة تنزل ببنى إسرائيل ، فالحرمان من دخول الأرض التى وعدهم الله والفناء فى التيه كانا قرينا عصيانهم وكفرهم بأنعم الله ، مما يؤيد ما قلناه من قبل وهو أن الوعد للبركة والرسالة وأن الاختيار للأرض وليس للشعب فمن حلت فيهم البركة والرسالة كانوا هم الموعودين بالأرض ، وقد ضلت البركة بنى إسرائيل حين كفروا بالرسالة فكان الحرمان من الأرض الموعودة جزاء ذلك ، فلم يكن وعد الرب مطلقًا من كل قيد أو شرط ،

---

(١) عدد ١٣ : ٣٢ – ٣٣ .

(٢) عدد ١٤ : ١٥ – ٢٢ .

بل كان قرين الوفاء بالرسالة ، وسنرى أن الله حين اختار بني إسرائيل للبركة والرسالة ووعدهم بالأرض المقدسة قد ضرب بهم مثلاً للناس ، فمهما كانت قربى العبد إلى الله فليس له من بركته شيء ما لم يف بعهده ويقم برسالته ، فلن يميز الله إنسانًا على إنسان أو قبيلاً على قبيل إلاّ إذا كان قريبًا إلى الله بالإيمان والتقوى .

وبعد أن خرج بنو إسرائيل من تيههم إلى حيث كانوا فى قادش وهى واحة معشبة فى برية « صين » إلى الشمال من جبل الطور ، حيث كلم الله موسى ، يرد إليها الرعاء ويصدرون وسط هذا القفر ، وجد موسى أن مملكة أدوم تقوم فى طريقهم إلى شرق الأردن حيث رأى أن يمر ببنى إسرائيل قبل أن يعبر إلى أرض كنعان ، فأرسل إليهم رسولاً يستأذنهم فى المرور فأبوا ، ودار موسى ببنى إسرائيل حول بلاد أدوم فضاقوا بمشقّة الطريق وجفاف العيش ويرموا بموسى وربه فأرسل عليهم حيات تلدغهم ومات منهم عدد كبير حتى استغفر لهم موسى ليرفع عنهم الحيات ، وداوم موسى على السير وحارب فى طريقه الأموريين وانتصر عليهم كما انتصر على عوج ملك باشان ثم نزل بقومه إلى عربات مؤاب عبر أردن أريحا وأشرف على أرض كنعان إلى الغرب من الأردن .

واختار بنو رأوبين وبنو جاد السهل الواقع إلى شرق الأردن سكنًا ومقامًا ، وانضم إليهم نصف سبط منسى على ألا يقعدوا عن الحرب مع قومهم حتى يتم لهم النصر على الكنعانيين وقضى لهم موسى بذلك ما وفوا بهذا العهد .

وحرم موسى على الإسرائيليين امتلاك أدوم فهى لأبناء عمومتهم بنى عيسو كما حرم عليهم كذلك امتلاك أرض مؤاب وعمون فهى لأبناء لوط . ثم أتم رسالته ووصاياه الأخيرة إلى بنى إسرائيل وخلف عليهم

يشوع بن نون ثم تركهم وصعد إلى جبل « نبو » وحيدًا ليموت ، قبل أن تطأ قدمه أرض الميعاد .

* * *

لم تكن فلسطين فى ذلك الوقت تمثل وحدة سياسية من أى نوع ولم يتح لها فى تاريخها أن تتمتع بكيان سياسى معين بل كانت طوال تاريخها منتجع قبائل تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتى أحيانًا وتخضع فى أغلب الأحيان لحكم الدول القوية المجاورة كمصر وبابل وأشور . وحين أفل نجم الساميين فى الهلال الخصيب وبزغ نجم الشعوب الهندو أوربية كالحيثيين والفرس والهيلينيين والرومان ، خضعت فلسطين لتلك الدول الناشئة واحدًة بعد الأخرى فامتدّ إليها سلطان الحيثيين واجتاحها الفرس ثم اليونان فالرومان حتى بزغ فجر الإسلام فدخلت فى نطاق الدولة الإسلامية الكبرى حتى سقوط الخلافة العثمانية فى ختام الربع الأوّل من القرن العشرين ، ففرض عليها الانتداب البريطانى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى .

ولكن غلبة العناصر السامية على فلسطين ظلت سائدة لا تتأثر بنزوح العناصر الجديدة التى سادتها طويلاً ، وإن لم تتمتع بنوع من الاستقرار السياسى إلاّ فى ظل الإسلام حيث صهرت تلك العناصر العديدة فى البوتقة العربية الكبرى التى جمعت الجنس السامى أو العربى لأوّل مرة فى التاريخ وأصبحت فلسطين جزءًا من بلاد العروبة التى وحدها الإسلام فى نطاقه الكبير .

وكانت فلسطين قبل دخول الإسرائيليين إليها تخضع للدولة المصرية منذ اجتاحها أحمس الأوّل فى أعقاب الهكسوس ووضع قواعد الإمبراطورية المصرية التى امتدت إلى أعالى الفرات على يد الأحامسة

والرعامسة وسادت تلك البقاع قرابة خمسة قرون بعد ذلك .

إلّا أن السيادة المصرية على فلسطين لم تكن قوية على الدوام ، وكانت تتأثر إلى حدٍّ بعيد باهتمام فرعون بالإمبراطورية وبما يبذله من جهد لدعم النفوذ المصرى فى أجزائها ، ويبدو أن امتناع الإسرائيليين عن دخول فلسطين فى البداية كان بسبب خوفهم من المصريين ، وأن سنوات التيه الأربعين لم تكن إلّا انتظارًا للوقت المناسب الذى تضعف فيه السيادة المصرية على البلاد فيدخلونها آمنين ، ولعل فى ذلك ما يفسر نبوءة التوراة بمنع موسى عن دخول أرض كنعان فقد حضرته الوفاة وقومه يعسكرون فى أرض مؤاب مقابل أريحا ، فأراد أن يخلف على قومه من يثق بصدقه وحسن قيادته حتى يضمن طاعتهم له بعد وفاته . ويرى بعض المؤرخين أن موسى لم يكن نبيا فحسب وإنما كان قائدًا وسياسيًّا أيضًا ، وحين حضرته الوفاة لم يكن هذا الوقت المناسب قد آن لبنى إسرائيل لدخول أرض كنعان ، وليس هناك من ينكر أن موسى بعدما قام به من جهد فى قيادة بنى إسرائيل والخروج بهم من مصر لم يكن يرغب فى الدخول إلى أرض كنعان على رأس قومه ، لولا ما عاقه عن دخولها قبل أن تحضره الوفاة سواء كان السبب دينيًّا أم سياسيًّا .

ويقال إن زحف بنى إسرائيل إلى أرض كنعان واستيلائهم على سهل الأردن كان فى أيام الفرعون امنحوتب الثالث ففى نهاية حكمه وبداية حكم أخناتون بدأ ضغط الحيثيين من الشمال على أملاك مصر ، وفى لوح من ألواح تل العمارنة اكتشف عام ١٨٨٧ ما يشير إلى طلب النجدة من فرعون مصر لصد زحف الحيثيين على فلسطين من الشمال وزحف أقوام آخرين يسمون «العبيرو» أو الخبيرو « Habiru » من الجنوب والشرق ويرى بعض المؤرخين أن هؤلاء الذين يقال لهم « العبيرو أو الخبيرو » هم

العبريون [1] .

ولم يكن ما يعرف بالملوك فى تاريخ فلسطين غير رؤساء عشائر أو شيوخ قبائل لا يمتد سلطانهم إلى أكثر من المدن التى يحكمونها أو الأراضى التى يملكونها ولو لم تتناولهم أسفار العهد القديم لعبر التاريخ بهم دون أن يشير إليهم . وكانوا دائمًا فى صراع مع بعضهم البعض وقليلاً ما يتفقون أو يتحالفون إلاّ لصدّ غازٍ أو مغير ، والدليل على تفاهة تلك العشائر أو القبائل أن النقوش والمدوّنات المصرية لا تذكرهم ولا تشير إليهم بشىء كما أشارت إلى الحيثيين والفلسطينيين مثلاً كما لا تشير إلى إسرائيل أو تذكرها إلاّ فى عهد سليمان ولا نجد لهذه القبائل كما لا نجد لإسرائيل ذكرًا فى المدوّنات البابلية والأشورية إلاّ حين احتاج الملك نبوخذ نصر البابلى مملكة يهودا ودمرها ونقل اليهود سبايا إلى بابل ، وحين اجتاح شلمناصر الأشورى السامرة وشتّت سكانها إلى حيث أغفلهم التاريخ فلم يسمع لهم ذكر بعدها .

ومن تلك العشائر والقبائل التى ذكر العهد القديم ؛ الأدوميون فى جبل سعير إلى الجنوب من البحر الميت ، وبنو مؤاب وبنو عمون وبنو جلعاد وبنو باشان عبر الأردن شرقًا ، ثم الكنعانيون والأموريون والجوشيون والفرزيون واليبوسيون والعمونيون إلى الغرب من الأردن . وقد ذكر العهد القديم الحيثيين بين هؤلاء ، ولم يكن الحيثيون من الجنس السامى بل إنهم أحد الفروع الهندو أوربية وكانت لهم مواقع واشتباكات مع المصريين أشارت إليها النقوش والمدوّنات المصرية بالتفصيل كما عقد أحد ملوكهم معاهدةً مع رمسيس الثانى فرعون مصر بعد أن خاض معه عدة معارك

Learsi, Rufus :P. 39. (١)

كانت أعلاها ذكرًا معركة قادش فى تخوم لبنان ، كما ذكر الفلسطينيين أيضًا وهم سكان الساحل الجنوبى لفلسطين وليسوا بدورهم من الفروع السامية بل كانوا من شعوب البحر الأبيض المتوسط ، تلك الشعوب التى ترجع بأصولها إلى الأناضوليين القدماء الذين سكنوا الأناضول قبل الحيثيين[1] ولم يرد ذكر الفلسطينيين فى الأسفار الأولى للعهد القديم ولم تشر إليهم النبوءات التى تناولت الكنعانيين كما تناولت الحيثيين وإن جرت بينهم وبين الإسرائيليين وقائع تناولتها الأسفار الأخيرة من العهد القديم .

ولم يشر العهد القديم إلى معارك جرت بين الحيثيين والإسرائيليين وإن ذكر العهد القديم أن الإسرائيليين سيغلبون الحيثيين كما يغلبون الكنعانيين وغيرهم من الأقوام الآخرين ، ولكن مما لاشك فيه أن الإسرائيليين كانوا دون الحيثيين قوّةً وصولة ، فما كان يستطيع أن يقف أمام الحيثيين غير المصريين ، ولكن لعله حلم من أحلام بنى إسرائيل امتدّ بهم إلى أمل التغلّب على الحيثيين ووراثة جاههم وصولتهم فى الهلال الخصيب . فلما تولى يوشع قيادة إسرائيل بعد موسى كان عليه أن يحقق نبوءة العهد فيقتحم أرض كنعان ويقضى على تلك الأقوام التى تملكها لتكون ملكًا لبنى إسرائيل وحدهم ، فعبر الأردن واقتحم أريحا وعاى ودمرهما ثم التقى مع حلف من ملوك أورشليم وحبرون وبرموت ولخيش وعجلون فأوقع بهم الهزيمة ، ووقعوا فى يده أسرى فقتلهم وصلبهم نهارًا بأكمله[2] . ثم خاض حروبًا أخرى مع عدد من الملوك الآخرين وأوقع بهم هزائم أخرى واستولى على أراضيهم .

ولم يستطع يوشع بن نون فى حياته أن يستولى على كل أراضى فلسطين

---

(١) انتصار الحضارة ص ٢٤٥.

(٢) يشوع ١٠ : ٢٦ .

وبقيت بيت المقدس التى يملكها اليبوسيون عصيّةً عليه كما استعصت على بنى إسرائيل أيضا أراضى الفلسطينيين ، ولم يستطيعوا القضاء على القبائل التى أنبأتهم التوراة بالقضاء عليها .

وبعد يوشع بن نون لم يقم فى بنى إسرائيل لثلاثة قرون ونصف قرن قائد يجمع كلمتهم ويوحّد صفوفهم فتفرقوا أسباطًا حتى أوشكت الفرقة أن تهدّدهم بالزوال والضياع ، وانقلب الرعاة زراعًا مستقرين وغلبت عليهم حضارة البيئات الزراعية فجفتهم خشونة الصحراء إلى طراوة المدن ولين الاستقرار وهجروا عقائدهم إلى عقائد الكنعانيين فعبدوا البعل إلٰه الكنعانيين بدل عبادة الله التى بعث بها إبراهيم وموسى ، وغلبت تقاليد الكنعانيين والأموريين والحيثيين والأقوام الأخرى المجاورة على تقاليدهم، واتصلوا بتلك الأقوام بالزواج والمصاهرة حتى أوشكت تلك الأقوام أن تتمثلهم ، وكان موسى حريصا على ألاّ يأذن لقومه بالتشبّه بتلك الأقوام حتى لا تغلب وثنيتهم عبادة بنى إسرائيل ووحدانيتهم وأنذرهم بسوء المنقلب إن نسوا ذلك .

ويبدو أن تلك البلاد لم تتأثر كثيرًا بدخول بنى إسرائيل ، فلم يعد نزوج بنى إسرائيل إلى أرض كنعان أن يكون هجرة أقوام جفتهم الصحراء إلى الأرض الممرعة الخصبة ، ولم تكن فلسطين وحدها بل كانت منطقة الهلال الخصيب جميعًا منطقة صراع حادٍّ بين سكان الصحارى وسكان السهول فكثيرًا ما اجتاح سكان الصحارى ، حين تضغط عليهم الصحراء بجفافها وقحطها ، سكان السهول فقضوا على حضارتهم ، وغالبًا ما قضوا عليهم أو حملوهم على النزوح إلى مناطق أخرى ، إلاّ أن نزوح بنى إسرائيل إلى أرض كنعان لم يترك مثل هذا الأثر فقد استقرّ الإسرائيليون وامتلكوا كثيرًا من الأراضى التى غلبوا عليها وأقاموا إلى

جوار الأقوام الأصليين وطبعتهم حياة الإقليم بطابعها فحالفوا قومًا وحاربوا آخرين كما كانت الحياة بين تلك الأقوام نفسها قبل نزوح الإسرائيليين وبعد نزوحهم . ولم يكن غريبًا إذن أن تطبع الحياة الجديدة هؤلاء النازحين الجدد بطابعها الغلّاب ، أو أن يتمثّلهم هؤلاء الأقوام فى داخلهم فإنهم يمتّون جميعًا ، إذا استثنينا الفلسطينيين ، إلى أرومة واحدة هى التى تعرف بالسامية .

ولم يرد فى نبوءات التوراة أو فى وصايا موسى إلى قومه ما يشير إلى الرغبة فى إقامة ملك أو دولة لإسرائيل ، بل إن قسمة الأرض بين أسباط إسرائيل تجبّ فى حدّ ذاتها نزعة الملكية أو الدولة ، وكل ما حرصت عليه شريعة موسى ألّا تضيع بينهم تلك الرابطة العنصرية التى تجمعهم فى نطاقها حتى لا تطغى عليهم وثنية الأقوام الآخرين إذا ما تفرّقوا شيعًا فإن ذلك قمين بأن يذيبهم فى الشعوب التى يتصلون بها اتصال زواج أو مصاهرة ، أو يختلطون بها نزولاً على العادات الاجتماعية للقربى والجوار .

ولم يكن عمل القضاة – فى ذلك العهد الذى عرف بعهد القضاة فى تاريخ بنى إسرائيل – إلّا إحياء جذوة العنصرية الإسرائيلية والإبقاء على وحدة الشعب الإسرائيلى وتقاليده ، بتذكيرهم بالشريعة والوصايا وعهد الرب ونذره ووعيده إن ضلّوا ، وأحيانًا كانوا يقودونهم فى غزواتهم أو يدفعون بهم أعداءهم .

ورأى بنو إسرائيل أن يكون عليهم ملك كما على الأقوام الآخرين، وتقدم شيوخهم إلى صموئيل آخر قضاتهم ليختار لهم ملكاً يقودهم ويدفع عنهم أعداءهم ويدينون له بالولاء على غير هوى منه فقد حذرهم صموئيل من استبداد الملوك وأنذرهم بألّا يسمع إليهم الرب إذا ما استصرخوه من

استبدادهم[1] . واختار لهم صموئيل شاءول ملكًا « شاب وحسن ولم يكن رجل فى بنى إسرائيل أحسن منه من كتفه فما فوق كان أطول من كل الشعب[2] » .

واتصلت الحروب بين الإسرائيليين بقيادة شاءول وبين غيرهم من القبائل الأخرى وخاصة الفلسطينيين هزيمة ونصرًا ، وفى تلك الحروب برز داود الذى خلف شاءول ملكاً على بنى إسرائيل بقتله جالوت جبّار الفلسطينيين ولما يزل صبيا يرعى غنم أهله الذين ذهبوا إلى الحرب تحت إمرة شاءول ، أصابه بحجر مقلاع فى جبهته أوقعه أرضًا ، ثم اختطف داود سيف جالوت واحتزّ به رأسه فولّى الفلسطينيون منهزمين بعد مقتل جبارهم وارتفعت مكانة داود بين الإسرائيليين ممّا أوغر عليه قلب شاءول فهرب من وجهه حتى قتل شاءول فى معركة بينه وبين الفلسطينيين وأخذت دروعه إلى معبد فينوس الفلسطينية ودقّ جسمه بالمسامير على أسوار بيت شان [3] ووقعت الحرب بين بيت داود وبيت شاءول حتى تم النصر لداود فأصبح ملكًا على بنى إسرائيل .

وفى عهد داود بلغ ملك بنى إسرائيل - كما جاء فى سفر صموئيل - مدًى بعيدًا وأحرز انتصارات عديدة ضدّ أعدائه وبنى قصرًا لنفسه على جبل صهيون فى أورشليم ولكنه لم يكلف من لدن الرب ببناء الهيكل ، فقد خص الرب بذلك ابنه سليمان . ولم تمض أيام داود هينةً فى بنى إسرائيل فقد اغتصب أكبر بنيه « أمنون » أخته لأبيه « ثامار » وغضب شقيقها « أبشالوم » لذلك فقتل أخاه انتقامًا لعرض شقيقته وفرّ هاربًا ، ثم أذن له

---

(١) صموئيل الأوّل ٨ : ١٠ - ٢٠ .
(٢) صموئيل الأوّل ٩ : ٢ .
(٣) H.G. Wells : C. XXI, P.84.

أبوه بالعودة وعفا عنه ، ولم يصبر أبشالوم ليرث ملك أبيه بعد موته وتعجل الملك فخرج على أبيه ثائرًا وخاض بأتباعه معركةً خاسرةً قتل فيها ضدّ أتباع أبيه ، ولم يلبث داود أن واجه ثورة أخرى قادها رجل من سبط بنيامين وقضى عليها ، وكان قد أسنّ وأشرف على نهاية العمر .

وخاض داود معارك عديدةً ضدّ الأدوميين والعمونيين والمؤابيين وأوقع بهم واستولى على أراضيهم بالرغم من وصايا موسى لقومه بمسالمتهم وتحريم أراضيهم على بنى إسرائيل مما يدل على أن اتجاههم لم يعد اتجاهًا دينيا لتحقيق وصية أو عهد وإنما أصبح اتجاهًا دنيويا يقوم على التملك والسيطرة .

وبالرغم من تلك الحروب التى خاضها داود ضدّ جيرانه من الفلسطينيين والكنعانيين والأدوميين والمؤابين والأموريين ، إلّا أنها لم تحسم الموقف بينه وبينهم وإن أثمرت انتصارات داود عليهم أنها جعلت من بنى إسرائيل قوةً لا يستهان بها وسط جيرانها .

واستخلف داود ابنه سليمان من بتشبع أحبّ نسائه إليه ملكاً بعده بأمر الرب ، وأوتى سليمان حكماً وحكمةً وكانت أيامه أيام سلام ورخاء وتجاوبت الآفاق أخبار حكمته فجاءته ملكة سبأ تخطب ودّه وتنهل من ينابيع حكمته . ويبدو من أخبار سليمان أنه لم يكن رجل دين بقدر ما كان رجل حكم وسياسة وإن لم تكن له نزعة أبيه الحربية فعاش فى سلام مع جيرانه فعاهدهم وعاهدوه وقوى هذا الرباط السياسى بالمصاهرة فتزوج من ابنة فرعون مصر كما تزوّج بغيرها من كلّ بيت عقد معه ميثاق ودٍّ وصداقة ، وكان محبًّا للنساء فكانت « له سبعمائة من النساء السيدات وثلثمائة من السرارى »[1] مع ابنة فرعون مابين « مؤابيات وعمونيات

---

(١) الملوك الأول ١١ : ٣ .

وأدوميات وصيدونيات وحيثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى إسرائيل تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم[1] » .

ونمت تجارة سليمان فى البر والبحر فسارت القوافل آمنة ما بين مصر وبابل ومخرت سفائنه البحر فى كلّ صوب ، ومن ميناء عصيون جابر على خليج العقبة أبحرت إلى أوفير وعادت محمّلة بالذهب والعطور .

وبنى هيكل أورشليم بيتًا للرب « طوله ستون ذراعًا وعرضه عشرون وسمكه ثلاثون ذراعًا والرواق قدام هيكل البيت طوله عشرون ذراعًا حسب عرض البيت وعرضه عشرة أذرع قدام البيت[2] .

ولكن سليمان أبهظ كاهل شعبه بالضرائب والسخرة . وبدت العداوة سافرةً بين أسباط الشمال وأسباط الجنوب تلك العداوة التى أدّت فى النهاية إلى انقسام مملكة سليمان إلى مملكتين . ولم تنته حياة سليمان حتى كانت النذر قد آذنت بزوال إسرائيل وأفول فترة الرخاء والاستقرار الوحيدة فى حياتها .

ولم تتحقق نبوءة أرض الميعاد فلم يعد ملك داود وسليمان فى أقصى اتساعه منطقة التلال الداخلية فى فلسطين ، ولم يزد عليها شيئًا ، ولم يتأتّ لبنى إسرائيل بعد ذلك أن تكون لهم مملكة بمثل هذا الاتساع إذا جاز لنا أن نسمى ذلك اتساعًا ، وانقسمت المملكة بعد وفاة سليمان إلى مملكتين : مملكة إسرائيل فى الشمال ومملكة يهودا فى الجنوب .

وكانت مملكة إسرائيل أعزّ نفرًا من مملكة يهودا وأكثر ثراءً فقد جاوزت مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة يهودا ، وانضم إليها عشرة أسباط من بنى

---

(١) الملوك الأول ١١ : ١ - ٢ .

(٢) الملوك الأول ٦ : ٢ - ٣ .

إسرائيل فسميت مملكة الأسباط العشرة بينما بقى فى مملكة يهودا سبطان هما سبط يهوذا وسبط بنيامين . وكانت أرض الشمال أشدّ خصوبةً من أرض الجنوب ، ومدنها أكثر بهاءً واتساعًا من مدن الجنوب ، وكانت على طريق الرواحل والتجارة وهى ميزة لم تكن لمملكة يهودا ، إذا كان ثمة سلام بين مصر ودول ما بين النهرين ، فإذا لم يكن سلام فإن مصيرها معلّق بمصير الحرب بين القوتين المتنافستين فى الهلال الخصيب ولأيّهما تنحاز . ولعلّ ذلك مما عجّل بزوالها قبل أن تزول مملكة يهودا بحوالى قرن ونصف قرن .

ولم تشهد المملكتان فى حياتها نوعًا من الهدوء أو الاستقرار سواء فى الداخل أو من ناحية أعدائها فى الخارج ، فالثورات الداخلية تنوشها والعدو يطرق أبوابها والوباء والمجاعات تنتابها ، حتى الوحدانية وعبادة رب البر قد شابتها وثنية الشعوب المجاورة ، ولم تعد شريعة موسى تلهم بنى إسرائيل وتلهب خيالهم كما كانت من قبل ، وغدا شعور الاضطهاد والخوف هو الذى يسيطر على أعمالهم ويسير حياتهم وغذت النكبات التى حلّت بهم طوال تاريخهم هذا الشعور بالخوف والاضطهاد فدفعهم إلى نوع من الشذوذ الاجتماعى أصبح أحد خصائصهم البارزة فيما بعد هو شذوذ الاستكانة والعزلة انعكس على طباعهم فأنجب القسوة التى طبعت سلوكهم حيال غيرهم ممن ليسوا من بنى إسرائيل ، ونمّى أواصر الألفة فيما بينهم فغذت روح العنصرية اليهودية وأورت ضرام التعصب القومى والدينى بين صفوفهم وشدّتهم بعضهم إلى بعض برباط من التآلف على طول ما باعدت بينهم الفرقة والتشتّت فى أرجاء الأرض ، وأصبحت التوراة التى ضلّوا سبيلها وحادوا عن شريعتها على حياة أنبيائهم وكهانهم هى الملهم الفذّ لعنصريتهم ، ووحدتهم طوال خمسة وعشرين قرنا من المحنِ والمغامرة والاضطهاد والتشتت . وأصبحت اليهودية فى إيمانهم دينًا

ودولةً فكانت الصهيونية العالمية نتاج هذه العوامل التى تفاعلت جميعًا فى بوتقة العنصرية الضيقة والتعصّب المقيت .

وقد أضفى اليهود على تاريخهم ألوانًا من المجد والأهمية ، على حين أن التاريخ يعبر بهم عبورًا هيّنًا ضئيلا ، ولولا التوراة ما ذكر التاريخ عنهم شيئًا ، فلم تكشف الحفريات لهم عن أثر خلفوه ولم تشر المدونات التاريخية إلى هذا التاريخ الذى أسهبت التوراة فى ذكر تفاصيله ، فليس فيما دونته مصر عن الحقبة التى عاشها الإسرائيليون بينهم ذكر لهم ولا لقصة الخروج أو أرض كنعان مع ما كان لمصر فى فلسطين من دور بالغ الأهمية أفاضت فى ذكره المدونات والنقوش المصرية القديمة . وعلى طول ما عاش الإسرائيليون فى فلسطين وكثرة ما خاضوا من حروب ضدّ جيرانهم فى أرض كنعان لا نجد ذكرًا لهم ولا لحروبهم فى المدوّنات المعاصرة مما يدل على أن الإسرائيليين لم يكونوا غير شعب قبلى مغمور ولم تكن حروبهم غير حروب قبلية ضئيلة ولا تذكر التوراة أنهم استطاعوا أن يملكوا فلسطين يومًا ما ، فإنهم لم يستولوا إلاّ على منطقة التلال الداخلية منها ، واستعصت عليهم مدن الفلسطينيين وأراضيهم على كثرة ما قاموا به من هجمات عليها ، بل إن سليمان فى أوج مجده لم يكن غير ملك صغير يحكم مدينة صغيرة[1] وأن ما أضفته عليه القصص والأساطير من مجد وجاه وثروة ليس إلاّ تقديرًا نسبيا يقاس بمن حوله من الملوك القبليين فى فلسطين ، فهيكل سليمان الذى شادت بذكره أساطير الإسرائيليين لا يعدو إذا قيس بأبعاده التى جاءت فى سفر الملوك ، كونه معبدا صغيراً يمكن أن تحويه - كما يقول ويلز - كنيسة من كنائس الضواحى . وإذا قسنا هيكل سليمان بمعابد المصريين والبابليين لغدا بناءً ضئيلاً إلى

---

(١) H.G. Wells : C.XXI,P.85.

جوارها ، ولكن الإسرائيليات قاست هيكل سليمان بهياكل القبائل الكنعانية والفلسطينية فبدا حيالها بكلّ هذا الرواء والجلال ، كما قاست تاريخ إسرائيل بتاريخ تلك الأقوام المجاورة فغدا إليها بارزاً ملحوظًا .

وكانت نهاية مملكتى إسرائيل الشمالية والجنوبية كنهاية الممالك التى قامت إلى جوارها ونافستها طويلا فى فلسطين ، فقد انتهت مملكة الشمال أو مملكة إسرائيل كما عرفت أو مملكة السامرة كما كانت تعرف أحيانًا نسبة إلى حاضرتها ، نهاية أليمة على يد « سرجون الثانى » ملك أشور عام ٧٢١ ق . م فقد استولى عليها وشتّت أسباطها العشرة كلّ مشتّت وأسكن السامرة غيرهم ، ولم تعد السامرة غير قصة عابرة فى التاريخ ولم يسمع التاريخ عن أسباطها شيئًا بعد ذلك فعرفوا بالأسباط العشرة الضائعة .

أما مملكة الجنوب أو يهودا فقد عاشت قرابة قرن ونصف قرن بعد سقوط مملكة إسرائيل ، ويذكر التاريخ أن الفرعون نخاو الثانى اجتاحها حين وقفت فى طريقه لغزو أشور ، وقتل ملكها يوشيا عند مجدو فى وادى جزريل وأصبحت يهودا تابعةً لمصر حتى اغتصبها نبوخذ نصر ملك بابل الجديد فأقام عليها ملوكًا ضعافًا يأتمرون بأمره ، ولكن أروشليم غدت مركز التآمر ضدّه مما دفعه إلى اجتياحها عام ٦٠٤ ق . م . ومزّقها شرّ ممزّق وأمر فنهبت أورشليم وأحرقت وحمل من بقى من القتل سبايا إلى بابل ، وهناك أقاموا حتى استولى كورش ملك الفرس على بابل عام ٥٣٨ ق . م ففكّ أسارهم وأرجعهم إلى أورشليم ليسكنوها من جديد وليعيدوا بناء الهيكل والمدينة .

وطوال ما يقرب من ستة قرون منذ العودة حتى التشتيت لم يشهد هؤلاء العائدون نوعًا من الاستقرار فى تلك الرقعة الضئيلة التى آلت إليهم من أرض فلسطين حول أورشليم ، ولم تقم لهم دولة بالمعنى الحقيقى للدولة

ولم يحظوا إلّا بنوع من الحكم الذاتى وكانوا على الدوام تبعًا للدولة الغالبة .

وعاش اليهود فى أورشليم على ولاء مع الفرس وكان الفرس لهم عونًا فى بناء الهيكل ولكنهم لم يسمحوا لهم بتحصين المدينة وبناء أسوارها حتى أذن الملك « ارتحشتا » لساقيه اليهودى النبى نحميا وكان يقيم معه فى عاصمته « شوشن القصر » ببناء أسوار أورشليم . ويقال إن حظوة اليهود لدى ملوك فارس كانت لأسباب سياسية هى الثقة فى ولاء قوم يحرسون الطريق الرئيسى للزحف بين مصر وفارس .

وما لبثت دولة الفرس أن خرّت راكعةً أمام جيوش الإسكندر الأكبر وخرج كهّان أورشليم فى أروع ملابسهم يستقبلون القائد الشاب الذى وقف يطرق أبوابها عام ٣٣٤ ق . م . ويسلمون إليه مفاتيحها ويعلنون خضوعهم له وكعادة الإسكندر أبدى لهم إعجابه بإلههم وتقبّل منهم أورشليم .

وتقسم قواد الإسكندر إمبراطوريته الواسعة بعد وفاته فكانت مصر وجنوب فلسطين التى تضم بلاد اليهود من نصيب بطليموس ، وظلّت بلاد اليهود تتبع دولة البطالسة وتؤدى لها الجزية أكثر من مائة سنة (٣١٨ – ١٩٨ ق . م .) تمتع اليهود خلالها بنوع من الحكم الذاتى تحت سلطان أورشليم الأكبر والمجمع المقدس المعروف بالسنهدرين .

وخلال تلك السنوات والسنوات التى تبعتها كانت فلسطين معترك الرحى بين الدولتين المتنافستين اللتين سادتا فى الشرق الأدنى بعد وفاة الإسكندر : البطالسة فى الجنوب والسلوقيون فى الشمال . وقد حسم بطليموس الأوّل هذا النزاع فى البداية بانتصاره على السلوقيين ، وتمتع البطالسة بثمرة هذا الانتصار طويلا حتى انتصر « انطيوخس الثالث » على

« بطليموس الخامس » وانتزع منه فلسطين وضمها إلى الإمبراطورية السلوقية عام ١٩٨ ق . م .

وكان اليهود قد ملّوا حكم المصريين فأعانوا أنطيوخس على بطليموس ورحبوا بحكم السلوقيين ، إلّا أن السلوقيين لم يروانى بلاد اليهود غير مصدر للإيراد ففرضوا عليهم ضريبةً للدولة ثلث ما تغلّه الأرض من زراعة ونصف ما تثمره أشجار الفاكهة كما فرضوا عليهم أيضًا اعتناق الثقافة الهيلينية .

وجزع اليهود من هذا الخطر خطر اعتناق الثقافة الهيلينية وما فيها من طقوس وثنية ونظم اجتماعية لا تتفق وتقاليدهم المستمدة من التوراة ، وثاروا بحكامهم السلوقيين فاجتاح أنطيوخس الرابع أورشليم وأعمل القتل فيهم ودنّس الهيكل وصادر آنيته وكنوزه والمذبح الذهبى وضمّها جميعًا إلى خزائنه الملكية وحمل الكهان قسرًا على الثقافة الهيلينية ، وأصبح الهيكل معبدًا مقدّسًا لزيوس ، وغدا مذبح الرب مذبحًا لآلهة الإغريق تقدم له القرابين من الخنازير التى يحرمها اليهود وأمر بتعميم الطقوس اليونانية ، وتحريم المراسم اليهودية ، وبالإعدام لكلّ من يخالف ذلك . ولم يكتف بذلك بل أشعل النار فى أورشليم وبيع سكانها فى أسواق الرقيق ، وشيّد حصنًا جديدًا على جبل صهيون ووضع فيه حاميةً من الجند لتحكم المدينة باسمه .

وثار جماعة من اليهود بقيادة كاهن من نسل هارون يسمى « متاثياس » اعتصم هو وبنوه الخمسة فى جبل أفرايم وجعل يشنّ حرب العصابات على الحاميات السلوقية وأحرز وأبناؤه من بعده عدة انتصارات على السلوقيين أدّت فى النهاية إلى سقوط أورشليم فى يد الثوار عام ١٦٤ ق. م . وعودة المراسم والطقوس اليهودية إليها . وعرفت هذه

الثورة بثورة المكابيين نسبةً إلى مكابى وهو لقب بوداس بن متاثياس الذى قاد الثورة بعد أبيه .

وقد استطاع آخر هؤلاء الاخوة من أبناء متاثياس وهو سيمون مكابى أن يحالف روما ونال من الإمبراطور « ديمتريوس الثانى » عام ١٤٣ ق.م . اعترافًا باستقلال بلاد اليهود واختير سيمون حاخامًا أكبر وقائدًا عسكريًّا لليهود وبدأ بذلك حكم « الأسرة الهاسمونية » التى ينتسب إليها متاثياس وأولاده ، وصكّت عملةً يهوديةً تعلن ميلاد الدولة الجديدة .

ولأوّل مرة بعد العودة من السبى البابلى يتمتع اليهود بنوع من الاستقلال تحت رعاية روما وكانت روما حينذاك تشتبك فى صراع مرير مع البارثيين والسلوقيين والمصريين فاهتبل سيمون هذه الفرصة ، شأن اليهود فى كل زمان ، واتخذ جانب روما الناشئة القويّة ، كما اتخذ اليهود فى الوقت الحاضر جانب بريطانيا فى الحرب العالمية الأولى ثم جانب الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن غدت لها الزعامة والقيادة فى العالم الغربى وتحت رعايتهما أعلنت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ ، كما قامت دولة الهسمونيين تحت رعاية روما عام ١٤٢ ق.م .

وظلّ الهسمونيون طوال جيلين يوسعون حدود مملكتهم الصغيرة تارةً بالحرب وتارةً بالوسائل السياسية فاستولوا على السامرة واتسعت بلادهم حتى قاربت سعة مملكة سليمان غير أنهم أخذوا يفقدون غيرتهم الدينية واستسلموا شيئًا فشيئًا للثقافة الهيلينية التى حاربها أجدادهم مما أثار عليهم طائفة الفريسيين المتعصبة .

وجاءت نهاية الهسمونيين على يد الرومان كما كانت بدايتهم – ولعل ذلك يؤيد ما قلناه فى بداية هذا البحث وهو أن نهاية إسرائيل ستكون على يد الأمريكيين قبل أن تكون على يد العرب حين يستيقظ الأمريكيون على

استغلال الصهيونية لهم ويعرفون أن بلادهم ليست إلا مستعمرةً صهيونية فى حمى الدستور الأمريكى[1] - فقد اجتاح بومبى مملكتهم وحاصر أورشليم وهدم أسوارها ودخلها ظافرًا فوضع السيف فى رقاب اليهود وأصبحت أورشليم جزءًا من ولاية سوريا الرومانية ، فلما ثاروا على الوالى الرومانى أخمد ثورتهم وباع ثلاثين ألفًا منهم فى أسواق الرقيق ، وكان ذلك عام ٤٣ ق.م . ونصبت روما هيرود الأدومى ملكًا على أورشليم ، ولم يكن هيرود من أصل يهودى ولم يؤمن بالدين اليهودى عن عقيدة فقضى على سلطان الكهنة وحكم حكمًا دنيويًّا خالصًا تسوده النظم والمظاهر الهيلينية والرومانية .

ولعله أراد أن يجمع إلى أبهة المظاهر الرومانية مجد سليمان فادّعى أن الهيكل الذى شاده اليهود بعد عودتهم من السبى البابلى منذ خمسة قرون ضيّق ، فهدمه رغم تطير اليهود وبنى مكانه هيكلًا فخمًا يقال إنه كان من عجائب العالم فى عهد أوغسطوس وأقام على أبوابه عمدًا كورنثية وعلّق على مدخله النسر الذهبى شعار روما عدوّة اليهود وسيّدتهم . وهو الهيكل الذى هدمه تيتوس عام ٧٠ م .

ولا ريب أن حكم هيرود كان نهايةً واقعيةً لحكم اليهود الخالص ، فقد ثار اليهود على ابنه « أركلوس » الذى حكم بلادهم بعد وفاة أبيه ، فأعمل فيهم القتل . وتألفت عصابات يهودية لتهديد كلّ من يشايع روما

---

(١) نشرت الصحف ونحن نكتب هذا الكلام (٢٨ يونيه ١٩٥٩) تقريرا تقدم به عدد من الدبلوماسيين الأمريكيين المتقاعدين والذين كانوا يعملون فى العالم العربى ، إلى لجنة الشئون الخارجية بالكونجرس الأمريكى يقولون فيه إن أعظم خطأ ارتكبته أمريكا فى سياستها الخارجية تجاه الشرق الأوسط هو تأييدها لإسرائيل ضد العرب ، وطالبوا بأن تنظر أمريكا إلى مشاكل الشرق الأوسط بالعين الأمريكية وعلى ضوء مصلحة أمريكا الوطنية وأن تقاوم ضغط الأقلية الأمريكية التى تسيرها وجهة خاصة .

فزحف والى سوريا على فلسطين وهدم مدن اليهود وصلب ألفين من الثوار وباع ثلاثين ألفًا فى سوق الرقيق ، وذهب وفد إلى روما من زعماء اليهود يرجون الإمبراطور أوجسطوس إلغاء الملكية حتى يتخلّصوا من حكم أركلوس فاستجاب إليهم وعزل أركلوس وأعلن البلاد ولايةً رومانيةً وعيّن عليها حاكمًا مسئولاً أمام والى سوريا .

وتواتر الحكام واحدًا بعد الآخر وحال اليهود تزداد سوءًا ، وكان ما يصيبهم من بلاء جزاءً لشذوذهم وخروجهم على الدولة ، فقد انتشرت عصابات المغتالين تغتال غدرًا كلّ من لمست منه ولاءً لروما ، سواء من اليهود أو غير اليهود أنفسهم ، وانقسم يهود أورشليم على أنفسهم بين مشايع لروما وناقم عليها ووقعت فتنة بين الفريقين قتل فيها الناقمون اثنى عشر ألفًا من المشايعين ، وعمت المذابح بين الطوائف اليهودية وغير اليهودية فقام الناقمون بتدمير عدد من المدن اليونانية فى فلسطين وسوريا وأحرقوا بعضها وقتلوا أهلها وفى نفس الوقت أوقع السكان فى كثير من المدن الفلسطينية القتل والذبح باليهود .

وما وافى عام ٦٦ حتى كان الناقمون قد قضوا على كل مشايع لروما وانضمت البقية الباقية منهم إلى الثوار حتى ضاقت روما بهم فسيّرت عليهم فيالقها بقيادة تيتوس عام ٧٠ ، وأمام هذا الخطر الذى يؤذن بشر النكبات تجمع اليهود بعد فرقة فى وحدة حانقة متعصّبة ويقال إن ما اجتمع منهم فى أورشليم بلغ ستمائة ألف ، وسرت روح القتال فى الشيوخ والنساء .

ويبالغ المؤرخون اليهود فى مقاومة اليهود ويذكرون من أعداد القتلى والمصلوبين والذين بيعوا فى أسواق الرقيق ما تنوء به الحقيقة التاريخية المجردة ، ولعلّ فى الخلاف بين يوسيفوس وتاسيتوس فى تعداد الخسائر البشرية ما يؤكد عدم دقّتها والمبالغة فيها فيوسيفوس يقدّرها بمليون ومائة وسبعة وتسعين ألفًا بينما يقدرها تاسيتوس بستمائة ألف .

واقتحمت القوات الرومانية أورشليم وغدا الهيكل طعمًا للنيران وقتل كل يهودى عثر به الرومان حيًّا ، ولكن المقاومة اليهودية استمرت فى أماكن متفرقة حتى عام ٧٣ إلا أن خراب أورشليم ودمار الهيكل كانا فى الواقع نهاية الشعب اليهودى فى أرض الميعاد فلم يعد منهم من يقيم فيها غير قلة تعيش على الكفاف يؤدّى كلٌّ من أفرادها رغم فقره للمعابد الوثنية فى روما نصف الشاقل الذى كان يؤدّيه اليهودى البار لهيكل أورشليم .

وبدأ اليهودى التائه منذ ذلك الحين تجواله الأبدى .

ولا نجد فى كلّ ما مر من هذا التاريخ مصداقًا لنبوءات الكتاب المقدّس فلم يقض بنو إسرائيل على الكنعانيين ولا على غيرهم من الشعوب والقبائل الأخرى التى كانت تتوطن أرض الميعاد ، ولم تصل حدود دولتهم فى أقصى اتساعها إلى الحدود التى تنبأ بها العهد القديم لهم ، ولم تكن لهم فلسطين جميعًا فى أى يوم من الأيام ، ولم تردّد الأسفار التى تلت سفر التكوين ما جاء فى هذا السفر الأوّل عن امتداد أرض الميعاد من « نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » ومعنى ذلك أن تمتد أرض الميعاد إلى ما وراء حدود الهلال الخصيب ، وقد رأينا أن الإسرائيليين لم يكن لهم فى تاريخ الهلال الخصيب غير دور ضئيل وأن سيادة الهلال الخصيب على الدوام كانت للساميين إلا فى الفترة التى شهدت غلبة الشعوب الهندوأوربية أو الآرية قبل امتداد الموجة السامية مرةً أخرى على يد العرب .

ولا نستطيع أن نجد مصداقًا للوعد المقدّس فى تاريخ ذرية إبراهيم إلا فى انتصار الإسماعيليين الذين اندمجت فيهم قبائل العرب وكان منهم محمد خاتم الأنبياء من سلالة إبراهيم ، فقد حقق انتصار الإسماعيليين كل نبوءات عهد الرب مع إبراهيم ففى مدى لا يزيد على بضعة عشر

عامًا بعد توحيد الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام ، أصبحت سيادة الهلال الخصيب وما وراء الهلال الخصيب من بلاد النهرين وفارس ومصر وشمال أفريقيا ، لأولئك العرب العدنانية من نسل إسمعيل بكر إبراهيم وصاحب عهد الختان الذى عقده الرب مع إبراهيم .

وليس لنا أن نقطع فى عهود الرب إلا بما يؤيّدها من أحداث التاريخ ، وقد رأينا كيف جرى التاريخ بإسرائيل حين كانت فيهم بركة العهد والرسالة قبل ظهور المسيح عيسى ، فلم يفوا بعهد الرب فانتزعت منهم بركة العهد وبقيت فيهم الرسالة لعلهم يفيئون إلى الهدى فتشملهم بركة العهد من جديد ، وقد جاوزتهم بركة العهد يوم كفروا بالرسالة فعبدوا العجل فى برية سيناء ، ويوم عصوا موسى يوم أراد أن يدخل بهم أرض كنعان ، وأيام رجعوا عن شريعة موسى ودنّسوها بعبادة الأوثان فحلّت بهم لعنة المعصية فى كلّ مرّة من هذه المرّات ، ونزلت بهم عقوبة الكفر فى كلّ تلك الأيام وكثيرًا ما كانت معاصيهم وكان كفرهم بدين إبراهيم وإسحٰق وموسى ، مما دوّنته أسفار العهد القديم .

ويمكن أن نقول بعد ما أسلفنا من تمحيص العهود المقدسة أنها تنتهى بالنسبة لبنى إسرائيل ببعث المسيح الذى جاء مبشرًا بملكوت السماء لكلّ البشر وليس لبنى إسرائيل وحدهم ، إلا أن رسالة المسيح لم تكن غير حركة إصلاح قوية للشريعة الموسوية وللآثام التى تردّى فيها بنو إسرائيل ونسبوها إلى شريعة موسى . ولم تكن رسالة السماء لتكمل إلا إذا انتظمت عبادة الله وعلائق البشر بعضهم ببعض على قواعد ثابتة ، فكانت رسالة محمد ختام رسالات السماء ، وجاءت بالقول الفصل فى صفة الله الواحد الأحد ، وفى التشريع للحياة تشريعًا يبقى على الزمن حيًّا بتقادم الزمن وتطوّر العقل البشرى وتقدّمه ، وفى رسالة محمد شملت بركة العهد والرسالة كلّ مسلم سواء أكان من ذرية إبراهيم أم من غير ذريته كما قلنا

من قبل إلا أن أرض الميعاد وهى الأرض المختارة للبركة والرسالة بقيت إرثًا فى ذرية إبراهيم سكنها المؤابيون والعمونيون من سلالة لوط ابن أخيه ، وسكنها الأدوميون من سلالة عيسو بن إسحق بن إبراهيم ، وذلك قبل أن يملك يعقوب وذريته أرضًا فى بلاد كنعان ، فلما ارتحل بنو إسرائيل إلى مصر ثم خرجوا منها إلى أرض كنعان بقيادة موسى ، كان أبناء عيسو قد استقروا وطابت لهم الحياة فى أرض الميعاد ، وكانت وصية موسى لقومه حين قسم الأرض بين أسباط إسرائيل ألا تكون لهم أرض المؤابيين والعمونيين والأدوميين وحرم عليهم حربهم أو العدوان عليهم . ثم أقام بنو إسرائيل فى أرض كنعان بضعة قرون بعد خروجهم من مصر لم يستطيعوا أن يحققوا خلالها الوعد الإلهى بامتلاك أرض الكنعانيين وكانت نهايتهم تلك التى ذكرنا من قبل لضلالهم ولما ارتكبوا من معاص . وبقى الوعد الإلهى قائمًا لا يتحقق حتى كانت أرض الميعاد أوّل ما امتلك الإسماعيليون أو العرب العدنانية فى موجة الانتشار الإسلامى الباهر . وتحقق فيهم الوعد الإلهى بوراثة أرض الميعاد لذرية إبراهيم ، وفى رعايتهم أصبحت أرض الميعاد قدس الأديان السماوية الثلاثة وغدت أورشليم أو بيت المقدس قبلة اليهود والنصارى والمسلمين حتى اليوم تضم المبكى وكنيسة القيامة والمسجد الأقصى .

وهكذا كان مصداق الوعد لما جاء من عهود الرب لإبراهيم .

أما عودة إسرائيل إلى أرض الميعاد فليس فى أسفار العهد القديم الأولى ولا فى أسفار العهد الجديد ولا فى القرآن ما يشير إليها فقد انتهت بسقوط يهودا على يد نبوخذ نصر عهود الرب ووعوده التى وعد بها إبراهيم وإسحق وموسى ، وإنما بقيت التوراة وبقى السبى البابلى وبقيت آمال الأنبياء ومراثيهم ونبوءاتهم تلهب خيال اليهود وحنينهم الدينى إلى أورشليم وتزكى فيهم كراهية مقيتة تبدو فى سفر أرميا وفى الأسفار الأخيرة

من العهد القديم وفى التلمود لكلّ من عرفت إسرائيل من أمم وشعوب تعتقد أنها تحول بينها وبين أمانيها فى أرض الميعاد ، كراهيةً ظلّت ساريةً فى الأعقاب طوال تاريخهم إلى وقتنا هذا ، وتتخيّل قيام ملك من نسل داود ذى جاه وصولجان يخلّص اليهود من السبى ويعود بهم إلى أرض ميعادهم ويقيم مملكة داود لتخضع لها كل ممالك الأرض .

وقد تسرّبت فكرة المسيح المخلّص إلى العقيدة اليهودية من العقيدة البابلية ، فقد كان البابليون يعتقدون بعودة « مردخ » إله بابل حيناً بعد حين لنشر الخير وتطهير الأرض من الفساد ، وفى العقيدة المصرية القديمة كما يقول برستد مايشبه ذلك فإن سقوط الدولة القديمة قد جعل المصريين يتطلعون إلى المنقذ الذى يعيد إلى الدولة مجدها ، فقد روى عن الحكيم « أبيود » أن المنقذ يحيل النار بردًا وسلامًا ويرعى الناس جميعًا ويلمّ شمل قطعانه . وفى العقيدة الزرادشتية أن زرادشت يبعث كلّ ألف عام فى صورة إنسان خارق لا نظير له ليرعى العقيدة ويهدى الإنسانية . ومن ثمّ كان اتصال اليهود بتلك العقائد جميعًا مدعاة إلى تسرّبها إليهم ، وفى السبى البابلى قويت هذه العقيدة فى نفوسهم فتصوروا المنقذ أو المخلّص ملكًا ذا جاه وصولجان من نسل داود يمسح بالزيت المقدس وفق الشعائر اليهودية ليعيد مجد إسرائيل ويقيم مملكة داود وسمى ، بالمسيح نسبةً إلى هذا المسح بالزيت المقدس ، ودعى الكهان والأنبياء مسحاء الرب لذلك ، وفى سفر الأيام « لا تمسوا مسحائى ولا تؤذوا أنبيائى » وجرت شعائر المسح على ملوك إسرائيل فكان شاءول أول من مسح منهم بالزيت المقدس عند تتويجه .

وتطورت عقيدة المسيح المخلّص بتطوّر التاريخ اليهودى فلم يعد ذلك الملك المنصور المتوج ذى الجاه والصولجان بل غدا رجلا مسكيناً يبشر بالخير والهداية والصلاح ، يسبقه من يعلن مجيئه ويبشر ببعثه وكانوا

ينتظرونه على رأس كل ألف عام من بدء التقويم العبرى .

ولا يؤمن اليهود برسالة المسيح بن مريم ومازالوا فى انتظار المسيح المخلص إلا أن الصهيونية لا تثير تلك العقيدة ولا تشير إليها فى فلسفة القومية اليهودية التى تنادى بها ولعلها ترى فى الإشارة إليها ما يثير عليها الطوائف المسيحية فتتجنّبها لذلك .

والحق الذى يدّعيه اليهود فى أرض الميعاد لا يقوم على نبوءات العودة وانتظار المسيح المخلّص فهى نبوءات طارئة تسربت إلى العقيدة اليهودية كما قلنا من العقائد المجاورة ولم يتجاوز الأمل الذى عصف بالأنبياء خلال السبى البابلى وبعده ، وإنما يقوم على الوعود الإلهية لإبراهيم وإسحق ويعقوب ، وقد انتهت تلك الوعود بنهاية مملكة داود وسقوط أورشليم على يد نبوخذ نصر ، فإذا كان ثمة إيمان بالعودة فقد عاد بنو إسرائيل من مصر إليها على يد موسى ثم عادوا إليها بعد السبى البابلى على يد كورش وانتهت العودة الأولى بالسبى البابلى وانتهت العودة الثانية بتشتيت اليهود على يد الرومان وليس بعد ثمة نبوءة بعودة ثالثة لإسرائيل .

الفصل السابع

بين الدين والدولة

قلنا فى بداية هذا البحث إن الحركة الصهيونية قامت على استغلال خاطئ ضال لعهود الرب مع إبراهيم ، ولقد كانت هناك عهود حقًا ولكن التزمت لتنفيذها شرط عبادة الله وطاعته والحرص على أوامره والامتناع عن نواهيه ، ولم يف بنو إسرائيل بما ألزمهم الله فحقّ عليهم وعيده وانتهى أمر عشرة من أسباطهم إلى الزوال نهائيًا من صفحة التاريخ ، وبقى سبطان كان مآلهم السبى فى بابل بعد سقوط مدينتهم وتخريب هيكلهم ، وكان من الممكن أن يطويهم النسيان فى غماره كماطوى أهل السامرة لولا السبى البابلى نفسه فهو وحده صاحب الفضل فى بقائهم ، فلو أن نبوخذ نصر شتتهم كلّ مشتّت كما شتّت سرجون الثانى سكان السامرة لما قدّر لهم أن يجتمعوا فى ظروف وتحت عوامل نمت وحدتهم وألهبت شعورهم القومى ، بل وهذبت طباعهم البدوية وحضرتهم . فلم يكن الإسرائيليون قبل السبى البابلى شعبًا متحضرًا حتى ولا متحدًا فإن الثورات الداخلية كثيرًا ما شابت تلك الوحدة التى حاول القضاة والملوك والأنبياء أن يحملوهم عليها ، بل إن الشعور الدينى والعنصرى الذى ألهبته التوراة فى ظلّ السبى البابلى ظلّ خابيًا قبل ذلك ، ولم يبد أثر التوراة عليهم إلا بعد أن حضّرتهم الحياة البابلية ، فلم يكن فيهم قبل ذلك غير قلة تستطيع القراءة والكتابة ولا يذكر تاريخهم نفسه أن الأسفار الأولى من التوراة كانت تقرأ ، ولم تذكر الكتب لأوّل مرة إلا فى عهد أوشيا ، ويبدو أن التوراة لم

تضم حتى ذلك الوقت غير أسفار موسى الخمسة أو الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم وإن كان لديهم على صورة ما كثير من الكتب الأخرى ألحقت بعد ذلك فى أزمنة متفرقة بالأسفار الأولى وكونت التوراة العبرانية الراهنة ومنها مثلاً ، أخبار الأيام والمزامير والأمثال .

فإذا كانت التوراة هى التى كونت الشعب الإسرائيلى فإن السبى البابلى هو الذى حملهم على الالتفاف حول التوراة وهو الذى نقلهم من شعب بدوىّ قبلىّ جاهل إلى شعب متحضّر متّحد يلهبه الشعورالعنصرى ، يستطيع أن يقرأ التوراة ويلتمس فيها مثله الدينية والعنصرية ، ولعلّ الإسرائيليين لم يدركوا من قبل هذه القوى الروحية الغامرة التى تنطوى عليها ديانة إبراهيم وتعاليم موسى ولا ذلك الإيثار الإلهى الذى كان لهم عند الرب والذى ردّدته التوراة كثيرًا حتى خلق فيهم نوعًا من التميز والاستعلاء العنصرى كانا نكبةً عليهم فى كلّ تاريخهم .

إلا أن الشعور العنصرى الذى شمل اليهود إبان السبى البابلى وكان ثمرة الغربة والتجمع حول التوراة ، كان من ناحية أخرى ثمرة التآلف الفكرى لليهود ، ذلك التآلف الفكرى الذى كان بدوره عملاً من أعمال النبى قبل أن يكون عملاً من أعمال الكاهن أو السياسى أو القضاة أو الملوك ، وكان النبى طرازًا فريدًا من الناس وجد من قبل فى إسرائيل كما نقرأ ذلك فى أسفار التوراة ، ولكن أثر النبى لم يكن ليبرز إلا فى الملمّات وعندما تتراكم المصائب على رأس بنى إسرائيل ، كان يظهر لينذر ويهدى ويشير وكان يتنبأ وتصدق نبوءته كما تقصّ التوراة ، ويبدو أن النبىّ كان رجلاً يفوق جيله حصافةً وبعد نظر وكان متجردًا من أطماع الكاهن وطموح الملك فكان حكمه على الأمور صائبا ، وكان تأثير الأنبياء فى الناس إبّان السبى البابلى يفوق ما كان لهم من تأثير قبل ذلك .

ولم يكن الأنبياء من طبقة واحدة بل كانوا رجالاً متباينى الأصل والمنبت ، فالنبى حزقيال مثلاً كان من الكهان وكان النبى عاموس من الرعاة يرتدى جلد الماعز إلا أنهم كانوا يتفقون فى شىء واحد هو أنهم لا يدينون بالولاء لغير الرب وأنهم يتصلون بالناس مباشرةً دون تكريس كالكهان أو إذن من ذوى السلطان ، ويقولون أن كلمة الرب قد جاءتهم ، وكانوا يتكلمون فى كل شىء ويخلطون بين الدين والسياسة ويحرضون الشعب على أعداء إسرائيل وينعون على الكهان تراخيهم ويندّدون بآثام الملوك ومعاصيهم وضلال الشعب ورذائله وينقدون سوءات المجتمع والتباين بين الأغنياء والفقراء وتشبّه الأغنياء بالأجانب مما يغضب رب إبراهيم الذى يسوطهم بعذابه جزاء ضلالهم وكفرهم .

وكانت هذه الأقوال تدوّن وتنسب إلى أصحابها وغدت بعد السبى البابلى جزءًا من التوراة العبرانية فحفظها اليهود جيلاً بعد جيل ، وكان أعظم ما خلفت من أثر فيهم أنها باعدت بين الإسرائيلى وبين الكاهن والمعبد والبلاط والملك وجعلته وجهًا لوجه أمام رب البر ، وتلك هى أهمية الأنبياء العظمى فى تاريخ بنى إسرائيل أو فى تاريخ البشرية كما يقول « ويلز » .

ولم تخل أسفار الأنبياء من إثارة البغضاء والكراهية والتميز وعدم الانصاف إلا لإسرائيل مما يذكرنا بذلك الشعور القومى الجارف الذى يلفح الأمم الناشئة بسعيره ويثير فيها ذلك التعصب العنصرى الذميم الذى غدا علمًا على إسرائيل ، ومن العسير أن نسميها قومية فيما غبر من تلك الأزمان التى لم تعرف معنى القومية فهى أقرب إلى التجمع والتحزب والتآلف القبلى منها إلى القومية السياسية التى عرفناها فى القرن التاسع عشر والتى اقتبست منها الصهيونية معالمها واتجاهاتها فى المطالبة بوطن قومى وإنشاء دولة يهودية فى أرض الميعاد .

فالقومية اليهودية إذا جاز لنا أن نسميها كذلك ، أو التآلف اليهودى على وجه أدق ليس إلا خليطًا غير متجانس من انفعالات السبى ووحى التوراة ونبوءات الأنبياء تلك النبوءات التى وصلت إلى ذروة سامية من شطحات الخيال حين تنبأ أشعياء باتحاد العالم كله فى ظلّ إلٰه واحد ، إلٰه إبراهيم رب البر والخير وتحت سيادة صهيون ، فهى نزعة عنصرية دينية أكثر منها نزعة قومية استقلالية ، إلا أن هذا الخليط غير المتجانس من الانفعالات التى غذتها عوامل عديدةقد استطاعت بفعل الأنبياء أن تكوّن هذا التآلف الفكرى لليهود على اختلاف أزمانهم وطوائفهم ونزعاتهم وتشتتهم فى كل صقع ، فالتميز والاستعلاء ونظرية الشعب المختار والتجمع حول التوراة وتابوت العهد والهيكل وأرض الميعاد قد نمتها أقوال الأنبياء وغذّاها السبى البابلى وقوّاها الانتقال من البداوة إلى التمدين والحضارة البابلية ، فالنبى دانيال مثلًا كان أحد الذين أمر الملك نبوخذ نصر بتعليمهم اللغة الكلدانية من بنى إسرائيل ، فأصبح النتاج الفذ لكل هذا ، تلك العنصرية الصهيونية العارمة .

فالصهيونية ليست وليدة اليوم أو بنت الأمس ولكنها تضرب فى أغوار الزمن إلى أيام السبى البابلى ولعل فى كلمات هذاالمزمور الذى دونه شاعر مجهول ما يبرز تلك الأمانى العنصرية الحادّة التى ألهبت خيال اليهود منذ القدم .

« على أنهار بابل جلسنا ، بكينا أيضا عندما تذكرنا صهيون » .
« على الصفصاف فى وسطها علقنا أعوادنا ، لأنه هناك » .
« سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ، ومعذبونا سألونا فرحا » .
« قائلين ، رنموا لنا من ترنيمات صهيون » .
« كيف نرنم ترنيمة الرب فى أرض غريبة » .

« إن نسيتك يا أورشليم تنسى يمينى ، ليلتصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك » .

« إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى » .

« أذكر يارب لبنى أدوم يوم أورشليم القائلين هدوا هدوا حتى إلى أساسها » .

« يابنت بابل المخربة طوبى لمن يجازيك جزاءك الذى جازيتنا »[1] .

وأصبحت العودة إلى أورشليم رمز أمانيهم العنصرية ولا نقول القومية ، وشطح بهم الخيال فتصوروا العالم يدين لصهيون بالطاعة ولأورشليم بالولاء . وكان هذا طرازًا عجيبًا من التجمع العنصرى لسيادة العالم ، فالقومية لا تكون إلا بوجود أمّة ترتبط بوطن تعيش عليه بتلك العاطفة التى نسميها الوطنية والتى تلهب الشعور القومى وتغذيه ، ولم تكن قومية إسرائيل من هذاالطراز فإنها لم تنم إلا فى ظلّ الغربة والتشتت ، فلا يمكن أن يقال أنها ترتبط بوطن يعيشون فيه ، وأن هناك عاطفة تربطهم بهذا الوطن ، فالعاطفة الوحيدة التى تلهب شعورهم ليست هى العاطفة الوطنية ولكنها عاطفة الاستعلاء العنصرى والحنين الدينى . وأمل العودة إلى أرض لم تكن فى يوم من الأيام ملكًا لهم حتى حين بلغ ملكٌ داود وسليمان أوج اتساعه ،.فهى عاطفة قامت على خيال جامح ضالّ يغذيه وعد إلٰهى جاوزهم إلى غيرهم ممن قاموا برسالة إبراهيم وحملوا دينه إلى العالمين .

لذلك كانت القومية التى تدعيها الصهيونية طرازًا شاذًا من القوميات فهى لا تقوم على الحقيقة قدر ما تقوم على الخيال ، ولا تقوم على الواقع

---

(١) مزامير ١٣٧ .

قدر ما تقوم على الأماني والأحلام ، ولا تستند إلى حقٍّ تاريخي قدر ما تستند إلى نبوءة دينية .

وهي طراز شاذٌ من القوميات لأنها تتعلق بوهم خبا منذ آلاف السنين ، اختلطت فيه المشاعر الدينية بالمشاعر العنصرية ، المشاعر التي أوحتها التوراة وغذتها فكرة الشعب المختار .

ولكن إذا كانت التوراة هي التي صنعت اليهود فإن اليهود هم الذين صنعوا التوراة قبل أن تصنعهم ، فالأسفار الأولى للتوراة التي ضمت التشريعات الموسوية لم تكن لتوحي لليهود بتلك المشاعر الدينية والعنصرية الحادّة ولكنها أسفار الأنبياء هي التي أوحت بتلك المشاعر الدينية والعنصرية وقوّتها على الزمن وخلقت هذا التآلف الفكري الذي عرف عن اليهود كما لم يعرف عن أيّ شعب آخر في العالم القديم أو الحديث بالرغم من تفرقهم وتشتتهم طوال الزمن ، وهذا التآلف الفكري هو الذي يدين له اليهود بالصمود والبقاء ، فاليهودي في أيّ مكان أو زمان لا يتغيّر وهو نفسه في كل زمان ومكان .

وهذا التآلف الفكري ميراث قديم يقوم على معتقدات ثابتة ومثل لا تتغير من التوراة وأقوال الأنبياء وبمرور الزمن وتوالي المصائب على رأس اليهود لم تعد التوراة ولم تعد أقوال الأنبياء تلهب عنصرية إسرائيل أو تزكي هذا العداء الجارف الذي يجب أن يحمله الإسرائيلي في قلبه لغيره من البشر ولا سيما الأمم المسيحية فابتدع حاخاماتهم وحكماؤهم ما عرف بالتلمود وهو مجموعة وصايا ومبادئ سياسية في غلالة دينية تبسط لبني إسرائيل مكانتهم في هذا العالم وعلاقتهم بغيرهم من الأمم وسياستهم التي تجب عليهم حيال بعضهم البعض وحيال غيرهم من الأمم والشعوب حتى تتم لهم السيطرة على العالم وسيادته وتحقيق مكانة إسرائيل التي هي خليقة بها كما يقولون ، والتي اختارهم الرب لها وهم شعبه المختار الذي يبكي

لأجلهم وينوح ندمًا على ما جلبه عليهم من مصائب . وبتقدم الزمن ابتدع الحاخامات ما سموه « بروتوكولات صهيون » وهى خطة سياسية مفصّلة للسيادة على العالم بطريق المؤامرة والتسلط وإثارة العداوات والإحن بين الدول والعمل على إشعال الحروب والتمكين لأتباعهم وعملائهم من الحكام حتى يحققوا لهم سياستهم ويكونوا لهم درعًا ووقاءً من كلّ شر .

ويجتمع اليهود حول هذا الخليط المتنافر من أسفار التوراة وأحكام التلمود وقواعد البروتوكولات فى نوع من التآلف الفكرى يثير الدهشة والذهول ، إلاّ أن هذا التآلف الفكرى وهو جوهر العقيدة الصهيونية ، لم يبرز فجأةً ولم ينم طفرة ، بل سار فى خطى وئيدة مطّردة حتى اكتمل فى عقيدة الصهيونية ومبادئها الجادة . ففى بداية الأمر كان الحنين إلى أورشليم هو الذى يلهب خيال اليهود بالخلاص من السبى البابلى . ووجدوا فى المعبد عوضًا عن الهيكل مكاناً للتجمع والتآلف ، كما رأوا فى الصلاة غناءً عن المذابح والقرابين ، وظلّ المعبد بعد ذلك مركز التجمع لليهود ، ويمكن أن يقام المعبد فى أىّ مكان بل وأقيم فى البيوت حين كان الضغط يشتد بهم ، وغدت هذه السرية التى يمارس اليهود فى ظلّها طقوسهم وعباداتهم سمةً عليهم بعد ذلك فى اجتماعاتهم ومؤتمراتهم ، ومن هذه السرية نبعث هيئات ومحافل ومذاهب عديدة تنتشر فى بقاع العالم أجمع وأحيطت بنفس السرية التى أحاط بها اليهود طقوسهم وعباداتهم مما حمل الناس على نسبتها إليهم ، وفى هذا الجوّ من السرية الخالصة عرفت المؤامرة اليهودية طريقها إلى العمل ، وبلغت المؤامرة اليهودية من دقّتها أنها سخرت كثيرًا من أعدائها لخدمتها دون أن يعرفوا أنهم مسخرين لخدمة من يكرهون ، وتتّسم المؤامرة اليهودية بالدقة والأناة فالزمن ليس له فى سبيل حبكتها والنتائج التى تعمل لها حساب .

وبرزت المؤامرة اليهودية فى كثير من الانقلابات والثورات التاريخية التى تخدم أغراضهم وسياستهم والتاريخ حافل بأخبارها ، وكمثل لها الانقلاب الذى قامت به جماعة الاتحاد والترقى فى تركيا وعجل بسقوط الدولة العثمانية وانهيارها فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، فقد عاد عليهم سقوطها وتقسيم أملاكها بوعد بلفور والوطن القومى لإسرائيل . وتمتدّ المؤامرة اليهودية فى الوقت الحاضر إلى كثير من البلاد العربية وتقوم على إشاعة الفرقة فى صفوف العرب حتى تواتيها الفرصة لإنشاء دولة إسرائيل الكبرى ، ترتدى أحيانًا ثوب القومية الزائف وأحيانًا غلالة المبادئ الاشتراكية المضلّلة .

وقد علت مكانة المعبد والحاخام عند اليهود حتى طغت على مكانة الهيكل والكاهن منذ أيام السبى البابلى ، فلما عاد اليهود إلى فلسطين من سبى بابل عادوا شيعًا لا تدين جميعًا لكهان أورشليم بالتبعية والولاء ، منها الصدوقيون الذين يؤيدون سلطان الهيكل والكهان ويأخذون بالتوراة القديمة التى تضم الأسفار الموسوية الخمسة ويرفضون ما عداها من الأقوال والمأثورات التى ضمتها الأسفار التالية .

والفريسيون وكانوا ينكرون على الكهان استئثارهم بالشعائر والطقوس فأقاموها فى البيوت بغير حاجة إلى رسامة أو تكريس كهنوتى وجعلوا من كلّ بيت هيكلًا مقدس المراسم ، وكان ذلك نواة المعبد الذى انتشر بتفرق اليهود وتشتتهم ، وأخذوا على الصدوقيين إنكارهم للبعث والحياة الروحية ، لذلك كان انتظارهم للمسيح المخلّص غير مقيد بصولة السيادة وصولجان الملك كما يرى الصدوقيون بل هو الخلاص فى عالم الروح . ويقال أن معلمى السيد المسيح فى صباه كانوا من الفريسيين .

وثمة طائفة ثالثة هى طائفة الآسيين كما عرفوا فى عصر الميلاد ، وكانوا

فى بنى إسرائيل كثرة تجمعها صرامة العقيدة وإحكام الخطة ، ولكنها تستقل عن الطوائف الأخرى بشعائرها وعباداتها وآرائها وأسرارها ، وأوشكت أن تستقل عن الهيكل فى علاقتها بالدين والحكم ، ولم يكن يربطها بالهيكل إلّا تقريب القرابين وإن كانوا يقربونها من النبات وينكرون ذبح الحيوان . وهم جماعة يغلب عليها النسك والتقشّف يعملون بالفلاحة والصناعة ويرون التجارة رجسًا لا يليق بهم وأكثر منها رجسًا الحرب والقتال إلا دفاعًا عن أنفسهم فحرموا صناعة الأسلحة وحملها وهم يحرمون الرقّ ولا يقبلون سيادة أو رئاسة ويؤمنون بالبعث والخلاص الروحى على يد المسيح المخلّص الذى يأتى ليهديهم إلى حياة الصلاح والاستقامة ، والمادة عندهم مصدر شرٍّ والمسرة هى مسرة الروح لا يرقى إليها الإنسان بغير العبادة والرياضة والنسك ، ورائدهم فى تعاليمهم هو النبى عاموس الذى كان يبشر بأن التقرب إلى الله بالعدل والرحمة خير من التقرب إليه بالنذور والقرابين .

وطائفة رابعة هى الطائفة السامرية ويقال إنهم خليط من بقايا يهود السامرة ومن نزح إليها من الأشوريين ، وقد أنكر عليهم يهود أورشليم بعد عودتهم من السبى البابلى عاداتهم الغريبة فاتهموهم بالوثنية وحرموا عليهم مشاركتهم فى بناء الهيكل الجديد ، فعمدوا هم بدورهم إلى بناء هيكل لهم فى جرزيم ينافس هيكل أورشليم ، وأخذوا يدعون إليه ويحصرون القداسة فيه ، وبقى هيكل جرزيم منافسًا خطيرًا لهيكل أورشليم قرابة مائتى عام حتى هدمه كبير كهان هيكل أورشليم « حناهير كانوس » قبل الميلاد بمائة عام ولكنهم أعادوا بناءه وظلّ قائماً حوالى خمسة قرون بعد الميلاد ، حين ثارت السامرة على الحكم الرومانى فعمد الامبراطور فسباسيان إلى هدم مدينتهم وهيكلهم وأقام على أنقاضها مدينة « نيوبوليس » أو نابلس الحالية . وينكر السامريون الخلاص على يدى

ملك من بيت داود ويقولون بالخلاص الروحى حيث يأتى على قدر وميعاد .

وبين هؤلاء وأولئك من تلك الطوائف والنحل اعتزل أناس بأنفسهم لا يتبعون طائفة ولا يدينون بنحلة بل يعبدون الله كما تهديهم عقيدتهم نسكًا ورهبانية يتزكّون بالتقشّف والعبادة ويكثرون من التطهر بالماء ومن هؤلاء المعتزلة يوحنا المعمدان أو يوحنا المغتسل .

وأضعف انقسام اليهود إلى طوائف ونحل من شأن الهيكل وسلطان الكهان ، وعلا تبعًا لذلك شأن المعبد وإن لم يحتلّ المعبد حتى ذلك الوقت تلك المكانة التى قدّر له أن يحتلّها فيما بعد ، بعد زوال الهيكل ، حين أصبح المعبد وحده مكان التجمع لليهود فى كلّ قطر من أقطار العالم التى حلّوا بها . ولكن بقى للهيكل مكانته السياسية وبقى للكهان سلطانهم الزمنى وهيبتهم الدينية حتى زاد عدد الكهان على حاجة الطقوس الدينية وخدمة الهيكل فقد حصر موسى الكهانة فى بيت هارون فلما تكاثر أبناء هارون وفاضوا على حاجة الهيكل قسم العمل بينهم حتى لا يحرم منهم أحد من خدمة الهيكل كما قسمت عليهم النذور والهبات التى حرم منها الكتبة أو فقهاء الدين وهم جماعة من الفريسيين ورد ذكرهم كثيرًا على لسان المسيح تفقهوا فى الدين واشتغلوا بتدوين الأسفار ، فلما تقادم الزمن بالكهان غدت كثرة منهم لا تعمل فى الهيكل ولكنها تتمتع بالتكريس الكهنوتى بينما لا يتمتع به أولئك الكتبة المتفقهون فى الدين ، فأقبل اليهود عليهم للفتيا فى أمور دينهم وأهملوا الكهان وغدت المراسم الدينية بمرور الزمن غير مرتبطة بالهيكل ولا بالكهان الوراثيين .

ولما هدم الهيكل الثانى وتشتت اليهود فى كافة أرجاء الأرض لم يعد هناك غير المعبد الذى يقيمونه فى كلّ مكان يحلّون به ، سواء فى السر

أو فى العلن ، مكانًا للتجمع والعبادة ، وغدا الفقيه الدينى أو الحاخام زعيما دينيا وقوميا لليهود بدل الكاهن الأكبر ذى الوراثة والرسامة .

وقد ينقض ذلك ما يقال عن التآلف الفكرى لليهود ، إلّا أن اليهود مهما اختلفوا ومزقتهم الفرقة لا يختلفون فيما بينهم قبل غيرهم بل يتجمعون ويبدو تآلفهم كأقوى ما يكون ، فاليهودى أينما ارتحل يجد فى المجتمعات اليهودية المنتشرة فى شتى بقاع العالم ردفًا وسندًا ، وفى ارتحاله لا يتسى أورشليم فهى أم الحواضر عنده كما يقول فيلون فيلسوف الإسكندرية اليهودى .

فالتآلف الفكرى لليهود لم يكن غير بذر عقيم أخصب فى ظلّ السبى البابلى ورواه الحنين فازدهر ولم يذبل بعد ذلك أبدًا . كان بذرًا عقيمًا يوم انقسمت مملكة سليمان على نفسها بعد وفاته وغدا كل قسم من قسميها فى فرقة لا يسودها الوفاق ، لا يخرج من ثورة داخلية حتى يقع فى حرب أهلية ، كان بذرًا عقيمًا يوم تمردوا على أنبيائهم ويوم هجروا شريعتهم إلى الشرائع الوثنية الغالبة حولهم .

فلما عادوا من الأسر وبنو الهيكل من جديد كان بناء الهيكل مظهرًا بارزًا لفكرة ائتلفت عليها قلوبهم ولكن سرعان ما عاد الانقسام إلى صفوفهم حين منعوا يهود السامرة من بنائه معهم فأقام أهل السامرة هيكلهم فى جرزيم ، ولكن طوائفهم الأخرى بقيت تلوذ بهيكل أورشليم وترى فيه قدس أقداسها وإن اتخذت أحيانًا من المعبد عوضًا عن الهيكل فى ممارسة العبادات والطقوس .

وغدت التوراة قانون الحياة لدى اليهود جميعًا عندما دعا الكاتب عزرا يهود أورشليم عام ٤٤٥ ق . م . إلى اجتماع عام ليقرأ عليهم « سفر

شريعة موسى » ، وظلّ سبعة أيام مع اللاويين يقرؤها لهم ، فلما فرغوا من قراءتها ، جعل الكهان والزعماء والشعب بينهم موثقا ألّا يخرجوا على طاعتها بعد ذلك وإلى أبد الآبدين ، وبقيت دستور اليهود منذ تلك الأيام النكدة كما يسميها « ول ديورانت » حتى اليوم تقيدهم إليها وتربطهم بها خلال تيههم الطويل عبر الأجيال والقرون .

وكان إبرام هذا الميثاق الذى دعا إليه عزرا الخطوة التالية فى أهميتها لبناء الكيان اليهودى بعد جمع التوراة وتدوين أسفارها ، فإن التاريخ اليهودى يبدو خلوًا من كلّ ما يحفز النزعة القومية إلى التميز والظهور ، فلم يكونوا دائمًا غير شعب صغير تحكمه حصافة الكاهن أحيانا وتقوده مطامع الملك أحايين أخرى ، يتجمع حول الهيكل وينصت إلى نبوءة النبى ، ولكنه ما لبث أن غدا شعبًا بلا ملك وبلا هيكل ولم تبق له غير التوراة يستلهمها كيانه وأمله فى البقاء ، وغير النبى الذى يلهب وجدانه الدينى والعنصرى ، فلما عاد من الأسر ، عاد شعباً آخر ، فإن كثيرًا منهم طابت لهم الحياة فى بابل واستهوتهم الحضارة البابلية ولم يعد غير قلّة من الخلصاء الذين هفت قلوبهم إلى أورشليم ، والفقراء الذين رأوا فى العودة أملًا فى حياة جديدة ، ولكنهم ما لبثوا حتى أدركوا أن الأمل فى مملكة داود قد خبا إلى الأبد فلم تكن لهم غير أورشليم وما حواليها من أرضها يحكمونها تابعين لإمبراطورية فارس ويمنعون من بناء أسوارها حتى أذن إمبراطور الفرس بذلك تكريمًا منه لساقيه اليهودى النبى « نحميا » ولم يعد لهم من أمل إلّا فى الهيكل والتوراة فالتفوا حولها وائتلفت عليهما قلوبهم .

وخطا عزرا خطوةً أخرى لتوطيد الكيان اليهودى بتكوين المجمع المقدس المعروف « بالسنهدرين » وإن أرجعه بعض المؤرخين إلى ما قبل ذلك حين أمر موسى أن يكل أمر الشعب الإسرائيلى إلى واحد وسبعين

رجلاً من شيوخهم يشاركونه فى تسيير أمورهم .

ويتكوّن السنهدرين أو المجمع المقدس جريًا على سنة موسى من واحد وسبعين رجلاً من الكهان وذوى الرأى والحصافة برئاسة الكاهن الأكبر ، يشرّعون لليهود ويقضون بينهم ويسيرون أمورهم ، واجتمعت فيه السلطة الدينية والزمنية وغدا الكاهن الأكبر حاكمًا دينيا وزمنيا . وفى هذا المجتمع الجديد أصبح المعبد مصلاهم ومدرستهم ومجمعهم ، ومنذ ذلك الحين علت مكانة المعبد حتى قدر له أن يقوم بالدور الرئيسى فى تآلف اليهود الفكرى . هذا التآلف الذى يدور حول فكرات معينة لا يشذ عنها ولا يتعدّاها لأنها سرت فى وجدان اليهود مسرى العقيدة الثابتة الصماء منذ وجد اليهود على ظهر الأرض ، وهى السر فى بقائهم واستمرارهم بالرغم من تشتتهم وقلة عددهم ، هذه الفكرات الثابتة الصماء هى أنهم شعب الله المختار الذى اصطفاهم وحدهم لعبادته من دون العالمين ، وأن التوراة هى شريعتهم المقدسة قننت لهم أمور دينهم ودنياهم وأنهم وعدوا من لدن الرب بأرض الكنعانيين التى أصبحت تعرف بفلسطين منذ الحكم الرومانى ، وأن فلسطين ليست أرض ميعادهم فحسب بل تمتد لتشمل كل الهلال الخصيب من « نهر مصر إلى نهر الكبير نهر الفرات » وليست فلسطين غير مركز التجمع والوثوب . وأن هيكلهم وقدس أقداسهم فى أورشليم دون سواها .

وفيما عدا هذه الفكرات فإنهم لا يتفقون على شىء مما أوقع كثيرًا من المؤرخين فى تفسيرات خاطئة أو تناقض فى إبراز الصورة التى يرسمونها لهم ، فابن خلدون يرى أن « وسواس » الحسب والنسب قد بقى فى اليهود دون « العصبية » فضربت عليهم الذلة والمسكنة وكتب عليهم الجلاء فى الأرض وانفردوا بالاستعباد للكفر آلافًا من السنين . وما زال هذا الوسواس مصاحبًا لهم فتجدهم يقولون : هذا هارونى . هذا من نسل يوشع . هذا من عقب كالب . هذا من سبط يهوذا . مع ذهاب العصبية

ورسوخ الذل فيهم منذ أحقاب متطاولة[1].

ويقابل العصبية كما يعنيها ابن خلدون القومية والتماسك القومى فى وقتنا هذا فلم يعد لعصبية الأسرة والقبيلة والجماعة ما كان لها فى الزمن الماضى بل غدت العصبية عصبية الأمة والدولة القومية ، وفقد اليهود تماسكهم الاجتماعى والقومى منذ آلاف السنين ضربت عليهم فيها الذلّة والمسكنة كما يقول ابن خلدون حقا ولم يعد لهم كيان الأمة وعصبيتها ، ولكن بقى لهم تماسكهم الفكرى وهو سرّ بقائهم واستمرارهم وصمودهم للفناء . فلولا هذا التماسك أو التآلف الفكرى لذوت العقيدة اليهودية بين غيرها من العقائد الوثنية التى سادت إلى جوارها طويلًا قبل بعث المسيحية والإسلام فإن بعثهما قوى جذورها ، فقد بعثت المسيحية والإسلام مصدقين لشريعة موسى وإبراهيم ، ولولا هذا التآلف الفكرى لفنى اليهود فى الشعوب التى حلوا بينها وفيها من ساطهم بعذابه ، ومن بينها الشعوب المسيحية التى نقمت عليهم تعذيبهم المسيح وقتله .

فوسواس الحسب وقد بقى فى اليهود دون العصبية كان أحد الفكرات الهامة التى أبقت عليهم بعد أن ائتلفت قلوبهم عليها مالم تكن تستطيعه العصبية فيهم أو فى غيرهم .

وهذا التآلف الفكرى هو الذى حملهم على العزلة فى أماكن خاصّة من المدن التى يعيشون فيها وليس صحيحاً أن الاضطهاد هو الذى حملهم عليها ، ففى أنحاء العالم الإسلامى حيث عاش اليهود فى سلام وأمن ، اتخذوا لهم أيضًا أحياء خاصة لا يختلطون فيها بغيرهم . وفى هذه العزلة صان اليهود عصبيتهم ولم يفقدوها كما يقول ابن خلدون وإن اختفت فى غلالة من السرية والكتمان يسترها استخذاؤهم وقبولهم للذل ، وإن بقيت

---

(١) مقدمة ابن خلدون الفصل الثالث عشر .

مجردةً من القوّة التى يرى ابن خلدون أنها سمة العصبية البارزة . فالتآلف الفكرى هو بعض ما يصون العصبية بل لعله أقواها ، وظل هذا التآلف الفكرى يلمّ اليهود فى نطاقه حتى خلقت منه الصهيونية نزعةً قوميةً حادةً ودعوةً سياسية منظمة رغم ما يشوبها من نقائض الجمع بين الدين والعنصرية فى الدولة القومية .

ووقع « والتر باجت » الإنجليزى الذى عاش فى القرن التاسع عشر فيما وقع فيه ابن خلدون العربى الذى عاش فى القرن الرابع عشر حين أخذ عليهم قصورهم الحربى وأن تطورهم الحضارى ظل خلواً من أية نزعة عسكرية تصون الدولة وتحميها ، وغاب عنه أن تنظيم المجتمع الإسرائيلى فى بدايته كان تنظيمًا عسكريًّا حين قسم موسى أسباطهم فى برية سيناء إلى ما يشبه الكتائب والفرق من تنظيمات الجيوش المعروفة ، وقادهم يشوع ابن نون بهذا التنظيم إلى أرض كنعان ، واشتبك بنو إسرائيل فى حروب عديدة مع جيرانهم حتى حطّم الأشوريون والبابليون قوّتهم العسكرية ، وبعد عودتهم من المنفى كانت عودتهم أشبه بزحف عسكرى منظم من بابل إلى فلسطين ، وخاضوا بعدها عدة حروب ضد جيرانهم ومنافسيهم بل وضد الحكم الإغريقى فى سوريا وضدّ روما حتى أمحت قوتهم ودمرت مدينتهم وخرب هيكلهم وتفرق شملهم على يد الرومان عام ٧٠ م . بعد كثير من الثورات التى قاموا بها ضد الحكم الرومانى .

فالمجتمع اليهودى لم يكن ينقصه التنظيم العسكرى ولم تعوزه النزعة الحربية ، فالشريعة الموسوية تحض على الحرب والقتال بل إن « يهوه » إلههم قد دعى فى كثير من أسفار التوراة « برب الجنود » وفى ذلك يقول موسى إن « الرب رجل حرب » ويقول عنه داود إنه هو الذى يعلم يديه القتال ، بل إن « يهوه » ليبدو فى كثير من الأحيان متعطشًا للدماء محبا

للفتح والاستعمار «يطرد الحويين والكنعانيين والحيثيين» ولا يقطع مع الأعداء عهدًا بل ينال ما يشتهى بحدّ السيف ويستبقيه بحدّ السيف ، وهو إله معجب بنفسه إعجاب الجندى بنفسه يتقبل المدح والثناء ويشتهيه كما يقول «ول ديورانت» يتمجد بإغراق المصريين فى البحر ، وينتشى برؤية الدماء فيدفع شعبه إلى القتل وسفك الدماء وإفناء أعدائه جميعًا ، وهو إله قاس يتفقد ذنوب الآباء فى الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع ، متردد فيما يبرم يندم على ما انتوى من فتك ببنى إسرائيل حين يراجعه موسى فى ذلك ، فيه من غرائز السلب والنهب ما فى الجندى الأصيل حين يوعز إلى بنى إسرائيل أن يسلبوا المصريين «أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا» ويهربوا بها فى خروجهم ، وفيه صفات الجاسوس الماكر حين يطلب من بنى إسرائيل أن يجعلوا على دورهم علامة من دم الكباش المضحاة حتى يميز بينهم وبين المصريين فلا يهلكهم معهم ، وفيه أيضا ختل وخداع حين يتآمر مع يعقوب على خداع صهره لابان ، وهو إله قدح وسباب لا يتورّع أن ينعت شعبه بكلّ قبيحة ويصبّ عليه كلّ لعنة ، وتلك جميعًا هى صفات اليهود صوروا الرب على شاكلتها واتخذوا منها لأنفسهم بعد ذلك نموذجًا ومثالاً .

فالنزعة الحربية والتنظيم العسكرى للمجتمع متأصلين فى اليهود ولكن التنظيم العسكرى لا يكون إلّا فى مجتمعات موحدة يضمها وطن واحد ، فلما تفرقوا وتشتت شملهم غدا عسيرًا عليهم فى بلاد ينتمون إليها أن يقيموا مثل هذه التنظيمات العسكرية ، فلم يكن فناء دولتهم إذن بسبب قصورهم الحربى ولكنه جاء نتيجة لتفوق أعدائهم عليهم فى العدة والعدد ، وسيبقى هذا التفوق قائماً ما دام أعداؤهم يفوقونهم فى العدد والعدة بل والشجاعة أيضًا ، فاليهود رغم نزعتهم الحربية التى حضتهم شريعتهم عليها تنقصهم شجاعة المقاتل وأصالة الجندى ونبل الفارس فلا يقاتلون

إلاّ من وراء ستار ولا ينتصرون إلاّ غدرًا .

ولو كان لليهود من مزايا الأمم الحربية ما يفوق مزايا التآلف الفكرى الذى عرف عنهم لكان مصيرهم مصير الأمم التى تميزت بالنزعة العسكرية واختفت من التاريخ بضعف هذه النزعة العسكرية أو زوالها ، فبقاء أمة من الأمم ليس رهنًا بتفوقها العسكرى أو تميزها الحضارى وإنما هو رهن بالقدرة على التغير والمحافظة فى الوقت ذاته ، وكان ثمرة التآلف الفكرى لليهود أنه غرس فيهم هذه القدرة ونمّاها فلم يجمدوا أمام دواعى التطور بل استجابوا إليها وكيفوها وفق عقائدهم ومثلهم الاجتماعية والفكرية فصانوا أنفسهم من الفناء الذى يخترم الأمم التى لا تملك القدرة على التغير والمحافظة فى آن واحد .

وقوّت العزلة التى فرضها اليهود على أنفسهم فى كل بلد يحلون به من هذه القدرة على التغير والمحافظة فهم فى عزلتهم يصونون تراثهم ومأثوراتهم وتقاليدهم مما ينمى القدرة على المحافظة ، ولكن العزلة اليهودية كانت بدورها ذات طابع فريد ، فهى عزلة فيما يتصل بأمورهم الخاصة ، ولكنهم فيما يتصل بالحياة عامة فى المجتمع الذى يعيشون فيه يندمجون فيها اندماجًا ظاهريًّا فهم كما يقول فيلون يتفرقون لطلب الرزق فى أغنى البلاد من أوربا وآسيا ، وطلب الرزق يتطلب الاستجابة إلى قوانين المجتمع الذى يعيشون فيه ومجاراة أهله دون الأخذ بمأثوراته وتقاليده التى يحرصون على البعد عنها حتى وإن حملتهم الظروف على التظاهر بها . وهم حين يعزلون أنفسهم عن المجتمع باختيارهم يتغلغلون فيه بحوانيتهم ودورهم التجارية ومصارفهم ومراكز المساومة والسمسرة والصيرفة فهم لا يحترفون غير أيسر المهن وأجزلها ربحًا ويحاولون فى كلّ بلد أن يسيطروا على شئونه التجارية والمالية . وهم بعضهم لبعض رفد وسند ، ينزح اليهودى إلى بلد آخر فلا يحس وحشة الغربة لأنه يجد فى

كلّ بلد مجتمعًا يهوديًا يلمّه ويأويه ، وهو فى الوقت ذاته لا يربطه بالبلد الذى نزح منه رابطة من ولاء أو حب فكل ولائه وحبه لأورشليم حاضرته الكبرى كما يقول فيلون فيلسوف الإسكندرية اليهودى فى القرن الأوّل للميلاد . وتلك مظاهر التآلف الفكرى لليهود فيما يتصل بحياتهم مع الآخرين .

ولكن التآلف الفكرى لأمة مشتّتة لا يمكن أن يكون نواةً لإنشاء دولة وإن كان من الممكن - كما برهنت الصهيونية - أن يكون نواةً لدعوة قومية ترمى إلى إنشاء دولة ولكنها لا تتخذ من هذا التآلف الفكرى قوّةً لها ، بل تعمد إلى أساليب السياسة والتنظيم السياسى أداةً لإنشاء الدولة ، وهذا ما صنعته الصهيونية . فالصهيونية حركة سياسية تستغل فكرةً دينية مبهمةً ونزعة عنصرية حادّة وآمالا خابية فى وطن لم يكن خالصًا لهم فى يوم من الأيام .

فالدولة اليهودية لم تقم فى أى يوم من الأيام إلّا إذا حسبنا هذا الحكم الأبوى لبنى إسرائيل وامتلاك بعض فلسطين دولة من الدول ، فلم يكن حكام اليهود - إذا افترضنا أن لهم حكومة من أى نوع كما يقول ويلز - غير قضاة من الكهنة يختارهم كبار الشعب ، ثم عمدوا فى بداية الألف الأولى قبل الميلاد إلى اختيار ملك هو شاءول ليقودهم فى الحرب ولكنه هلك تحت وابل من سهام الفلسطينيين فى معركة جبل جلبوع وأخذت دروعه إلى معبد عشتروت ودقّ جسمه بالمسامير على أسوار بيت شان .

وليس فى تاريخ اليهود من مقومات الدولة ما يصح أن نقف عنده إلّا حكم داود وابنه وخليفته سليمان ففى حكمهما أشرقت فترة الرخاء الوحيدة التى قدر لبنى إسرائيل أن يعرفوها على مرّ العصور كلها ، ويرجع الفضل فى هذا الرخاء إلى محالفة أبرمها حيرام ملك صور مع داود

ومن بعده سليمان ، وكان حيرام يبغى أن يشقّ طريقًا آمنًا للتجارة الفينيقية عبر التلال الداخلية التى يسيطر عليها بنو إسرائيل إلى خليج العقبة حيث أنشأ سليمان ميناء عصيون جابر . وبرعاية حيرام بنيت أسوار أورشليم وهيكلها وقصرها ، وعادت التجارة على سليمان بأرباح وفيرة وبلغ من اليسار والأبهة مالم يره شعبه من قبل ومن بعد حتى سمح فرعون مصر أن يزوجه ابنته ، بيد أنه لا يصح أن يغيب عن أذهاننا التقديرات النسبية للأمور ، فلم يكن سليمان غير ملك صغير يحكم شعبًا صغيرًا إذا قيس إلى غيره من الشعوب المجاورة كالمصريين والبابليين والأشوريين ، وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال بحيث لم تنقض بضعة أعوام على وفاته حتى اجتاحها شيشنق أوّل فراعنة الأسرة الثانية والعشرين ودخل أورشليم واستولى على كنوزها .

ويقف كثير من المؤرخين موقف الريبة من قصة مجد سليمان التى تقصها أسفار الملوك ويقولون أن الكبرياء القومى لليهود فى عهود متأخرة هو الذى حملهم على الإضافة إليها وتهويلها ، هذا عدا أنه أبهظ كاهل الشعب بالسخرة والضرائب كما تقول الأسفار مما عجل بانهيار المملكة وانقسامها إلى مملكتين لا يعدوان كونهما ولايتين صغيرتين تعركهما مصر من الجنوب وسوريا وبابل من الشمال والشرق ، يقول عنهما ويلز أن تاريخهما هو تاريخ ملوك من الهمج يحكمون شعبًا من الهمج ، لا تخلصان من نكبة إلّا لتحلّ بهما نكبة أقسى حتى قضى عليهما واحدة بعد الأخرى تحت سنابك المغيرين .

ولما عادت القلّة التى ارتضت العودة من بابل لم تستطع أن تقيم دولةً بالمعنى المعروف للدولة ، وخضعوا لنوع من الحكم الأبوى هو حكم العشيرة تحت سيادة فارس أو مصر أو روما ، وكانوا دائمًا مصدر قلق

لجيرانهم وللدول التى تحكمهم حتى سيّرت عليهم روما جحافلها فدمرت أورشليم وأضرمت النار فى الهيكل وقتلت ونهبت وبدأ اليهود عهد تيههم الطويل . ولم يعد لليهود غير التوراة وغير المعبد الذى يقيمونه فى كلّ مكان يحلون به .

فاليهودية دين وليست قومية واليهود طائفة دينية ككل الطوائف الدينية المنتشرة فى العالم والتى تتقسمها أوطان وقوميات مختلفة ، أما الصهيونية فحركة جديدة كلّ الجدة على اليهود لا تمتّ إلى ماضيهم بصلة من الصلات أو آصرة من الأواصر ، ولكنها حركة تنبع من صميم الفكر اليهودى مما حمل كثيرًا من الباحثين على تقصيها فى تاريخ اليهود القديم وإرجاعها إلى عهودهم السابقة فمنهم من يرجعها إلى انهيار مملكة داود والأمل فى عودتها ومنهم من يعود بها إلى السبى البابلى والحنين إلى أورشليم أو إلى أبعد من ذلك ، إلى وعود الرب لإبراهيم أو أقرب من ذلك ، إلى ما تركه الاضطهاد فى نفوس اليهود المشتتين من رغبة التجمع فى وطن ما أو فى فلسطين بالذات . ومن هؤلاء الباحثين – كالعقاد مفكر العرب الحديث – من يرى أنها «حركة سياسية تابعة لقيام الدولة وسقوطها فى بيت داود» وأن اليهود حين حملوا إلى الأسر «أصبح الحنين إلى صهيون رمزًا للحنين إلى عودة المملكة الغابرة وتحوّلت الوعود الإلهية فى كتبهم تحوّلًا جديدًا مع مصالح السياسة ، فانحصرت فى ذرية داود – عليه السلام – ليخرج منها غير ذى الذرية من اليهود[1] . فالصهيونية فى رأى العقاد حركة سياسية ترجع إلى سقوط مملكة داود والسبى البابلى .

والواقع أن الصهيونية حركة سياسية ، ولكنها حركة سياسية جديدة من طراز الحركات المذهبية والسياسية فى العصر الحديث ولا تمتّ بأية صلة

---

(١) عباس محمود العقاد : الصهيونية العالمية ص ١١ .

من الصلات كما قلنا إلى ماضى اليهود أو تاريخهم ولا إلى قيام مملكة داود أو سقوطها ، ولا إلى العودة من الأسر أو التشتت الأخير . هى حركة سياسية تنبع من واقع التطور الفكرى والسياسى للحضارة الحديثة ، ولكنها تستمدّ أصولها من الفكر اليهودى الذى ظلّ حيًّا فى أعقابهم حتى الجيل الحاضر ، والذى يأتلف حول مثل التوراة وما جدّ من شرائع التلمود كما بينا من قبل .

والصهيونية نسبة إلى صهيون وهو حصن أورشليم كان فى حوزة اليبوسيين واستولى عليه داود «وأخذ داود حصن صهيون . هى مدينة داود .... وأقام داود فى الحصن وسماه مدينة داود[1]» ، وعمّت الكلمة بعد ذلك حتى أصبحت رمزًا لملك إسرائيل ونسبة لهم فيقال أبناء صهيون كما يقال أبناء إسرائيل ووردت بهذا المعنى فى الأسفار الأخيرة من التوراة . وليس لها صفة من صفات القداسة فقد اختار عليها داود «بيت داود» بدلاً من حصن صهيون ، وفى أشعياء أن الرب يسميها باسم جديد «من أجل صهيون لا أسكت ومن أجل أورشليم لا أهدأ حتى يخرج برها كضياء وخلاصها كمصباح يتقد ، فترى الأمم برك ، وكل الملوك مجدك وتسمين باسم جديد يعينه فم الرب[2]» .

واختارتها الحركة الصهيونية علماً عليها ومسمى لها لأنها أيسر الأسماء شيوعًا على الألسن من كل الأسماء الأخرى التى تواترت فى تاريخ بنى إسرائيل ، ولأنها فى الوقت ذاته ترمز إلى كل تراث إسرائيل من العقائد الدينية والأفكار السياسية الغابرة ، التى عبرنا عنها بالفكر اليهودى .

---

(١) صموئيل الثانى ٥ : ٧ - ١٠ .

(٢) أشعياء ٦٢ : ١ .

ولكن الصهيونية بالرغم من أنها حركة سياسية جديدة كل الجدة إلاّ أنها تستمد أصولها كما قلنا من الفكر اليهودى المتجدد كما تستمدّ حيويتها من ائتلاف هذا الفكر حول عقائد دينية ثابتة لا تتغير ولكنها مبهمة يحوطها الغموض ، والحركة الصهيونية هى التى أخرجتها من حيز الإبهام والغموض كما يقول الكاتب الصهيونى « جوزيف هيلر » إلى حيز المبادئ الواضحة والأغراض المحددة ، فغدت بذلك حركةً سياسيةً واضحة المعالم تقوم كغيرها من الحركات السياسية أو المذهبية على أيدلوجية ثابتة ، هى أن اليهود أمة كغيرهم من الأمم ولكل أمة وطن ما عداهم ، وبسبب هذا يعانون ما يعانونه من اضطهاد ، فلو كان لهم وطن يلوذون به وينتمون إليه لما وقع عليهم اضطهاد ولما أحسوا بالغربة فى كلّ مكان يحلّون به .

وليس للفكر اليهودى القديم أثر فى هذا الاتجاه القومى الجديد بل هو نتيجة للنزعة القومية الحادّة التى عمّت أوربا وألهبتها بفيض من العواطف الوطنية فى القرن التاسع عشر ، ففى ذلك الوقت سارت دعوة الإخاء والمساواة جنبًا إلى جنب مع الدعوة إلى الحرية ، حرية المواطن فى وطنه وحرية الوطن من أى حكم أو سيطرة خارجية . وأفاد اليهود منها معاً فتمتعوا بالمساواة مع غيرهم من المواطنين ومن ثم تطلعوا إلى وطن يجمعهم من غربة وشتات . إلاّ أن فكرة الوطن القومى لليهود جاءت متأخرة بعض الشىء وأثارت كثيرًا من الجدل بين اليهود أنفسهم قبل أن يستقروا على اختيار فلسطين وطنًا قوميًا .

واتجه اليهود فى البداية إلى الإفادة من ذلك وقام « موسى مندلسون » فى ألمانيا يدعو قومه إلى الخروج من عزلتهم والاندماج مع جيرانهم من المسيحيين والأخذ بعاداتهم وثقافتهم وسرعان ما امتدت دعوته إلى بقاع أخرى من أوربا ، وبدت حركات شبيهة تدور جميعًا حول ضرورة خروج

اليهود من عزلتهم التقليدية ، وظهرت تفسيرات عديدة لأرض الميعاد ودعا « ازهام جيجر » و « صموئيل هولديم » إلى العدول عن فكرة المسيح المنتظر من بيت داود لخلاص بنى إسرائيل والعودة بهم إلى أورشليم وحذف ما يشير إلى هذه العقيدة فى التراتيل والصلوات ، وكتب « موسى هس[١] » كتابًا بعنوان « روما وأورشليم » يقول فيه إن أورشليم لليهودية مركز دينى وقومى . وحمل فيه على الحاخامات الذين يضحون بفكرة القومية على مذبح الفكرة الدينية الخالصة ، وانتهى فيه إلى أن فلسطين هى الحلّ الوحيد للمشكلة اليهودية .

وكان هذا قمينًا بتخفيف حدّة العداء لليهود وخاصّة بعد أن فترت النعرة الدينية ولم يعد لها من الحدّة ما كان لها من العصور الوسطى ، إلّا أن الاندفاع نحو فكرة الوطن القومى وما يصحبها من شك فى ولائهم للأوطان التى ينتسبون إليها أبقى جذوة الشك فى نواياهم حيّة .

والدعوة إلى الوطن القومى كالصهيونية دعوة جديدة ولكنها متأخرة نسبيا عن الدعوة إلى الخروج من العزلة ومتقدمة على الحركة الصهيونية وإن كنا نعتبرها بحق أساس الحركة الصهيونية .

وظهرت دعوة الوطن القومى فى البداية غامضة مبهمةً وثار حولها كثير من الجدل بين اليهود ، فمنهم من ارتضاه فى فلسطين أو فى أى مكان آخر ، ومنهم من عارضها أصلًا مع الاعتراف بأورشليم مركزًا روحيًا لليهود ، ومنهم من رضى بحياته فى ظلّ المساواة الجديدة خوفًا من أن يفقد اليهود ما نالوا من امتيازات لم تكن لهم قبل أن ينالوا حق المساواة مع غيرهم من المواطنين .

---

(١) Moses Hess : Rome and Jerusalem (1862).

إلّا أن دعوة الوطن القومي ما كانت لتخفت فى وقت كانت الثورات القومية تلهب كل أوربا ولاسيما الاقطار التى تتركز فيها أغلبية اليهود ، وانتهى الجدل بينهم إلى الاتفاق على ضرورة الوطن القومى سواء فى فلسطين أو فى غير فلسطين . وبدت صعوبة تحقيق الفكرة فى فلسطين حين عارضتها الدولة العثمانية منذ البداية ، وفى كافة محاولاتها منذ حاول موسى منتفيورى إنشاء مستعمرات زراعية لليهود فى فلسطين ، فراودتهم فكرة إنشاء الوطن القومي فى أوغندا أو الولايات المتحدة الأمريكية أو الأرجنتين أو أية بقعة ترتضيها الدول المناصرة لهم حتى أن تيودور هرزل الذى يعتبر بحق رائد الصهيونية فكر فى اختيار مكان آخر غير فلسطين واختار الأرجنتين .

وفى مؤتمر بال عام ١٨٩٧ ، وهو أوّل مؤتمر يجمع ممثلى اليهود فى العالم منذ ثمانية عشر قرنًا ، وضعت أسس الحركة الصهيونية ، وأصبح صهيونيا كل من يعتنق المبادئ التى وضعها مؤتمر بال ويقوم بدفع اشتراك المؤتمر السنوى وهو ما يوازى خمسة قروش .

وتتلخص مبادئ مؤتمر بال فى عبارة واحدة هى إنشاء دولة يهودية فى فلسطين ، وقد انتهت مداولات المؤتمر الذى ظلّ منعقدًا مدة ثلاثة أيام بنشيد الأمل الذى أصبح فيما بعد النشيد الوطنى اليهودى .

وهكذا تبلورت فكرة الدولة اليهودية وانتقل اليهود من الآمال الدينية المبهمة إلى حقائق السياسة المجردة وإن استمدّوا من تراثهم الدينى القديم كلّ ما يلهب شعورهم القومى من التذكير بأرض الميعاد ووعود الرب ومملكة داود مما ائتلفت عليه قلوبهم من قبل ، ولم يخب من وجدانهم أبدًا طوال حياتهم العسرة النكدة .

الفصل الثامن
يهود اليوم وعبريو الأمس

قلنا إن الصهيونية حركة سياسية جديدة تستمدّ فلسفتها من تاريخ اليهود والشرائع اليهودية ، وتستمدّ واقعها من تطور الحركة القومية فى القرن التاسع عشر ، فهى كعقيدة حركة تبدو قديمة وهى كمذهب سياسى جديدة كلّ الجدة .

وكان هذا سبب البلبلة الفكرية بين دعاة الصهيونية فى بداية نشأتها وأوّل قيامها ، فانقسم دعاتها على أنفسهم ففريق غلبت عليه النزعة القومية السائدة فلم يربط بين الوطن القومى وبين فلسطين وارتضاه فى أى مكان يسعهم فى الأرض فى شرق أفريقيا أو استراليا الجنوبية أو إحدى ولايات أمريكا الشمالية ، وكان هرزل رائد الصهيونية ومنظمها يرى أن الأرجنتين هى أحسن وطن لليهود تثمر فيه جهودهم وتنمو فى رحابه العذراء قدراتهم ، وفريق رأى أن فلسطين هى أرض الميعاد منها خرجوا وإليها المآب ، فهى وطنهم الروحى والقومى لا يبغون بها بديلا ولا يرضون عنها متحولاً .

إلّا أن اليهود لم ينسوا فلسطين قط ، وكان كل مشروع تنزّ به رءوسهم ينتهى فى غايته إلى فلسطين مهما تعددت الوسائل والأساليب وكثرت محاولاتهم لتحقيق تلك الغاية منذ قام « دافيد روبينى » أحد زعماء اليهود فى القرن السادس عشر يدعو بنى قومه إلى غزو فلسطين وانتزاعها قهرًا

بتأييد أقطابهم فى أوربا ظنا منه أن تأييدهم كفيل بتذليل كلّ الصعاب أمامه ، ولم يكن مشروع «دافيد روبينى» غير شطحة خيال عارم ولدت ميتة ، ثم كان مشروع «موسى منتفيورى» ويقوم على شراء الأراضى وإنشاء المستعمرات الزراعية لليهود فى فلسطين ، وقد حاول أن ينال اعترافًا بالوطن القومى لليهود فى فلسطين وفاوض السلطان العثمانى فى ذلك كما فاوض محمد على إلّا أن جهوده باءت بالفشل ولم ينل غير اعتراف من السلطان يخوّل لليهود حقّ حيازة الأرض فى فلسطين ، فأنشأ بضع مستعمرات زراعية فى القدس ويافا وصفد وطبرية تموّلها تبرعات ضئيلة جاد بها بعض ثراة اليهود .

وكان لحركة موسى منتفيورى أثرها فى تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين فأنشئت بأموال بعض المتحمسين فى وسط أوربا وشرقها مدرسة زراعية فى فلسطين تؤهل اليهود للحياة الزراعية التى تنتظرهم فى أرض الميعاد ، ولكن خريجيها ما لبثوا أن اجتذبتهم البلاد الأمريكية الرحبة فنزحوا إليها كما نزح بعضهم الآخر إلى مصر ، كما قامت هيئات وجمعيات أخرى بمثل ما قام به موسى منتفيورى أجدرها بالذكر «جمعية أحباب صهيون» التى أنشأت أوّل مستعمرة لها بالقرب من يافا .

وقد اتخذت هذه الجهود طابعًا علميًا لم يخل قط من التيارات الفكرية العاصفة التى كانت تلهب خيال اليهود وتذكرهم بأرض الميعاد ، فموسى هس فى كتابه «روما وأورشليم» ، وليوبينسكر فى كراسته «التى نشرها بعنوان التحرر الذاتى[1]» وجورج إليوت فى قصتها «دانييل ديروندا[2]» ودزرائيلى اليهودى المنبت صاحب صفقة قناة السويس فى روايته «دافيد

---

(١) Leo Pinsker (1921- 1891) :Auto-Emanicipation.

(٢) George Eliot : Daniel Deronda (1876).

أكروا » ، وبيريز سمولينسكين فى صحيفته ها أشكهار[1] أوالفجر التى كان يصدرها فى فينا كانوا جميعا فى كلّ ما كتبوه يلهبون حنين اليهود نحو أرض الميعاد ويحاربون حربًا عوانًا فى سبيل الإبقاء على العنصرية اليهودية والتآلف الفكرى لليهود ويرفضون فكرة الاندماج فى العناصر الأخرى ، مع أن أحد هؤلاء الكتاب وهو بنيامين دزرائيلى الذى وصل إلى رئاسة الوزارة البريطانية اعتنق أبوه إسحق درزائيلى المسيحية وعمد فى ولادته مسيحيا ولكنه لم ينس أبدًا أصله اليهودى بل كان يهوديًّا أكثر من اليهود .

ومما يجافى المنطق إزاء هذا التيار الفكرى العاصف والمحاولات الملحة لاستعمار فلسطين أن يفكر اليهود فى وطن آخر غير فلسطين ، ولكن حركة التنوير التى قادها مندلسون فى ألمانيا ويأس بعض زعماء اليهود من امتلاك فلسطين قد جعلهم بفكرون فى وطن آخر غيرها ، وكان هرزل نفسه من أصحاب هذا الاتجاه فلم يكن يعنيه إلاّ أن يكون لليهود دولة تحميهم من الضيم والاضطهاد ما داموا لا يستطيعون وفاقًا مع غيرهم ، فقد كان يعتقد أن اليهودى مهما ارتحل فإنه يحمل فى كيانه النزعة التى تؤلب الغير عليه ، وأن اليهودى إذا ترك فى سلام مدى جيلين لكان من المحتمل أن يندمج فى البيئة التى يعيش فيها ، ولكن نزعته المثيرة تجلب عليه العداوة والبغضاء ، فالمشكلة اليهودية كما يراها ليست مشكلة دينية أو اجتماعية ولكنها مشكلة عنصرية فلو كانت لهم دولة يلوذون بها لجنبتهم العيش فى بيئات تجفوهم ولا يستطيعون هم الاندماج فيها .

وناقش هرزل فى كتابه « الدولة اليهودية » كلّ ذلك وطالب ملحا دول العالم المتحضر بحلّ المشكلة اليهودية وذلك بمنح اليهود رقعةً من الأرض

---

(١) Perez Smolenskin (1842-1885) : Ha-shachar.

المعمورة تكون لهم السيادة عليها وتكفى غلتها مطالب عيشتهم ، ولم يعين هذه الأرض وإنما ترك أمر تعيينها للرأى العام اليهودى وكان يميل هو نفسه لاختيار الأرجنتين .

واجتمع ممثلو اليهود فى بال عام ١٨٩٧ فى مؤتمر عام لأوّل مرة وظهر أن الاتجاه العام لا يبغى بفلسطين بديلًا ، إلّا أن هرزل كان يؤمن بدولة يهودية علمانية أكثر مما يؤمن بدولة تستمدّ أصولها ومقوّماتها من نبوءة دينية ، ولكنه نزل على إجماع المؤتمر واستجاب له ووضع كلّ جهوده لتحقيق ذلك فاتصل بكافة الأوساط والدول التى يمكن أن تعينه على ذلك ، ولما لم يجد أملًا قريبًا يدنو به من غاية اليهود فى فلسطين بعد أن انتهت مفاوضاته مع السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٢ بالفشل ، اتجه إلى انجلترا واقترح أن تخصّهم بوطن فى سيناء أو فى قبرص ولعله كان يرمى إلى تحقيق غرضه الأصلى بقيام دولة يهودية فى أىّ مكان ولا يغضب اليهود فى الوقت ذاته حين يرون أنفسهم قريبين من أرض الميعاد . ولم يجد هذا المطلب هوى فى نفوس الإنجليز واقترح تشمبرلن وزير المستعمرات أن يقطع اليهود مستعمرةً فى شرق أفريقيا ، ولم يجد الاقتراح هوى فى نفس هرزل ، إلّا أنه بعد مذبحة اليهود فى مدينة كيشينف الروسية قبل هذا العرض ، وثار به اليهود لذلك فى المؤتمر الصهيونى السادس الذى عقد عام ١٩٠٣ وهو آخر مؤتمر حضره هرزل قبل وفاته فى العام التالى ، وأعلن هرزل أنه لن يرضى بفلسطين بديلا ، ولكن القرار النهائى برفض هذا العرض لم يصدر إلّا فى المؤتمر الصهيونى الذى عقد فى بال عام ١٩٠٥ أى بعد ذلك بعامين ، وصدر القرار مشفوعًا بشكر الحكومة البريطانية وأن اليهود يحمدون لها كلّ مسعى تقوم به فى سبيل الوطن القومى فى فلسطين أو ما يجاورها من أراض .

وهكذا غلب تراث اليهود الزمنى وتآلفهم الفكرى فالتفّوا جميعًا حول

الأمل فى وطن قومى فى فلسطين ونبذوا كلّ أرض عداها ، وتحوّلت العنصرية اليهودية كما كانت طوال تاريخها إلى حركة قومية جارفة تلفح اليهود بنيران التعصّب والكراهية والعداء لكلّ من يقف فى سبيلهم لتحقيق أمل العودة إلى فلسطين ولفحت هذه الكراهية كثيرًا من الأفراد والشعوب والدول وكان لها ضحاياها بين هؤلاء جميعًا ، فحين يئسوا من استجابة الدولة العثمانية لمطالبهم فى فلسطين تسلّلوا تسلّلاً خفيًّا إلى حركة الاتحاد والترقى التى انتهت بخلع السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ وحملوها فى التيار الذى انتهى بتحطيم الجامعة الإسلامية والقضاء على الدولة العثمانية وفرض الانتداب الأوربى على البلاد العربية وتنفيذ وعد بلفور فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . ومما يذكر أن حايين ناحوم أفندى حاخام مصر والدولة العثمانية كان عضوًا فى جماعة الاتحاد والترقى . ولما أعلنت عليهم ألمانيا حرب العنصرية تألبوا عليها فى كافة أرجاء الأرض وجعلوا من كراهية اليهودية كراهيةً للسامية بأسرها حتى غدا نعت السامية فى كثير من الأذهان نعتًا لليهودية ، ولم تسلم ألمانيا بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية باندحارها ، من انتقام اليهود ، بل نزح اليهود فى أعداد غفيرة إلى ألمانيا فى تعال وكبرياء وصلف حتى يشعروا الألمان بالذّل والمهانة .

وتحمل الصهيونية اليوم على العرب وتصورهم شعبًا بدائيا متأخرًا وتتسلّل بمؤامراتها وخبثها إلى قلب العالم العربى للقضاء على كلّ حكم وطنى وكلّ بادرة للوحدة العربية والتضامن العربى .

ولم يشذّ على إجماع اليهود فى تأييد الحركة الصهيونية غير قلّة من الثراة خافوا على مصالحهم مما يمكن أن ينسب إليهم من ازدواج الولاء واحتمال بعث العداء التقليدى لليهود ، ولكن النفوذ اليهودى كان قد استشرى فى كثير من دول أوربا وبخاصة فى انجلترا بعد أن تمتّعوا بحقّ

المساواة مع غيرهم من المواطنين ، وما لبثت تلك القلة التى كانت تعطف على الحركة الصهيونية سرًّا أن جاهرت بتأييدها للصهيونية بعد إصدار وعد بلفور فى فبراير ١٩١٧ .

وفى فلسطين خشى يهودها أن يجر النشاط الصهيونى عليهم غضب العرب والدولة العثمانية ، كما خافوا على مصالحهم من تدخّل السياسة الصهيونية وما يحتمل أن يجره هذا التدخل من حدٍّ لحرية التعامل مع جيرانهم العرب مما يعود عليهم بالخسارة والبوار ، ولكن هؤلاء ما لبثوا أن غدوا بدورهم أشدّ أنصار الصهيونية بعد صدور وعد بلفور فاستقبلوا اللنبى على أبوب بيت المقدس حين طرقتها جيوشه فى ٨ ديسمبر ١٩١٧ بأكاليل الغار وانضووا تحت لوائه يطاردون الأتراك حتى قيل كما تذكر المصادر الصهيونية أن الذين اشتركوا فى مطاردة العثمانيين تحت إمرة اللنبى كانوا ألفًا من المتطوّعين عدا أربعة آلاف متطوّع من يهود البلاد الأخرى حاربوا فى ميادين القتال المختلفة وهم يحملون شارة داود .

وغدت الصهيونية بعد الانتصارات المتوالية التى أحرزتها ، عقيدة اليهود فى كلّ أرجاء الأرض لا يشذّ عنها ولا يخرج عليها يهودى واحد إلّا من حيث العنف والاعتدال فى تنفيذ سياستها ، وكلّ هؤلاء اليهود الذين يقفون أحيانًا موقف العطف على العرب لا يبغون من وراء ما يبدونه من عطف إلّا تخفيف حدّة العداء نحو اليهود فى كثير من البلاد العربية التى مازالت تضمّ جاليات يهودية كبيرة ، وهم يفرقون لهذا بين الصهيونية واليهودية ويحملون غير مؤمنين على الصهيونية ، ولكنهم لا ينبذون إطلاقًا فكرة العودة إلى فلسطين وقيام الدولة اليهودية ، وكل ما ينشدونه من عطف على العرب أن يرضى العرب بقيام إسرائيل ويحلّ الوفاق محلّ الخصومة بين أبناء العمومة كما يقولون .

ولعلنا ندرك بعد هذا العرض القصير كيف قامت الصهيونية كما قلنا على فلسفة تستمدّ أصولها من تاريخ اليهود وشريعتهم الدينية ، وتستمدّ واقعها من معالم الحركة القومية فى القرن التاسع عشر ، فجمعت بين نقيضين لا يمكن الجمع بينهما .

فالقومية لا تقوم على العنصرية ولا تقوم على حقٍّ دينىّ ولا تقوم إلاّ فى ظلّ وطن تنتمى إليه الجماعة انتماء واقعيًّا بمعنى أنها تعيش فعلاً وتزاول نشاطها الاجتماعى والاقتصادى والإنسانى فوق أرضه ، وتشعر حياله بأنه ملك خالص لها لا يشاركها فيه غيرها .

والقومية الصهيونية أو الإسرائيلية أو اليهودية مهما تعدّدت أسماؤها ، غير هذا كله ، فهى تقوم على العنصر ، أو بمعنى أصح السلالة ، فكلّ يهودى كما يقولون هو من نسل إسرائيل أو يعقوب ولا نعرف أمةً من الأمم تنتمى من حيث السلالة إلى رجل واحد ولا نعرف قوميةً من القوميات تتكون من عنصر إنسانى واحد ، فمن المحتمل أن تنتمى إلى جنس من الأجناس المعروفة : القوقازى والمغولى والحامى - فى اصطلاح علماء الأجناس - لغلبة الدماء القوقازية أو المغولية أو الحامية فيها ، أما العناصر والسلالات فقد اختلطت فيها الدماء على مرّ العصور اختلاطًا كبيرًا وإن احتفظت بسمات جنسها الأصلية .

وينتمى اليهود كما ينتمى العرب إلى السامية وهى أحد فروع الجنس القوقازى الذى تنتمى إليه الشعوب الهندأوربية أو الآرية أيضًا فيما يقولون ، ولم تخل دماء العرب أو اليهود من الهجنة ، بل إن الجنس القوقازى هو أكثر الأجناس هجنة دماء يفوق فى ذلك الجنسين المغولى والحامى .

فانتماء اليهود إلى إسرائيل أو يعقوب خرافة إلاّ إذا كان الانتماء إلى

دين إسرائيل ، وثمة فارق كبير بين الانتماء إلى الذرية والانتماء إلى العقيدة . فالانتماء إلى العقيدة لا يعنى إطلاقًا أن معتنقيها من سلالة واحدة ، أما الانتماء إلى الذرية فإنه يعنى أن كلّ يهودى هو من نسل إسرائيل وليس ثمة حق لغير نسله فى اعتناق الديانة اليهودية .

ولقد كانت بعثة الأنبياء قبل عيسى ومحمد كل إلى قومه ، ولم يكن هذا ليعنى أن الهداية كانت قاصرة على هؤلاء القوم وحدهم ، فإن « دينه » الابنة الوحيدة ليعقوب بين أولاده الاثنى عشر الذين تفرعت منهم أسباط إسرائيل ، حين اغتصبها ثم تعلق بها شكيم ابن حمور الحوى فخطبها إلى نفسه ، شرط عليه إخوتها أن يختتن هو وقومه كما يختتنون « فقالوا لها لا نستطيع أن نفعل هذا الأمر أن نعطى أختنا لرجل أغلف ، لأنه عار لنا . غير أننا بهذا نواتيكم . إن صرتم مثلنا بختتنكم كل ذكر نعطيكم بناتنا ونأخذ لنا بناتكم ونسكن معكم ونصير شعبًا واحدًا . وإن لم تسمعوا لنا أن تختتنوا نأخذ ابنتنا ونمضى[1] ».

فشرط الختان كان هو كل ما طلبه بنو يعقوب من شكيم ابن حمور الحوى وقومه ليكون منهم وكان الختان والإيمان بالرب دون الأصنام هما كل قواعد ديانة إبراهيم قبل الشريعة الموسوية ، ومغزى هذه القصة أن دين إبراهيم لم يكن قاصرًا على قومه وإنما كان متاحًا لكلّ من يعتنقه من غير قومه . ولو لم يغدر بنو يعقوب ببنى حمور الحوى لأصهروا إليهم ودخلوا فى ملّتهم ، فإن شكيم كان قد دخل بدينه قبل أن يخطبها مما أغضب إخوتها « وأتى بنو يعقوب من الحقل حين سمعوا وغضب الرجال واغتاظوا جدًّا لأنه صنع قباحة فى إسرائيل بمضاجعة ابنة يعقوب . وهكذا لا يصنع[2] » . وغضب يعقوب حين سمع بغدر بنيه ببنى حمور

---

(١) تكوين ٣٤ : ١٤ - ١٧ .

(٢) تكوين ٣٤ : ٧ .

الحوى حين قتلوهم وخرجوا بأختهم دينة من بيت شكيم بعد قتله .

وحين جاءت ملكة سبأ إلى سليمان «لتمتحنه بمسائل» وأعجبت بحكمته أعلنت عن إيمانها بربه «ليكن مباركا الرب إلهك الذى سر بك وجعلك على كرسى إسرائيل[1]». (وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين. قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير ، قالت ربِّ إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين[2]) .

فاليهودية لم تكن دين بنى إسرائيل وحدهم بل دين كل من تستهويه ويعتنقها ، ولقد عمد اليهود فى فترة من فترات تاريخهم إلى التبشير بدينهم بين غيرهم وكان ذلك حين طغت الثقافة الهيلينية وخشى اليهود أن تغمرهم بفيضها الجارف فأخذوا يبشرون باليهودية لإعلاء شأنها أمام طوفان الهيلينية ، ويقال أن تشتيت اليهود قد عمل على انتشارها ، ولا ريب أن اليهود الذين بيعوا فى أسواق الرقيق فى العهدين اليونانى والرومانى قد حملوا معهم تعاليم دينهم ، ولعلها استهوت بعض سادتهم فاعتنقوها .

وإذا تتبعنا انتشار الديانة اليهودية نرى أن معتنقيها يختلفون اختلافًا بيِّنًا فى السحنة والملامح والصفات البدنية مما يدل على أنهم ينتمون إلى سلالات وعناصر متفرقة فيهود اليمن أقرب شبهًا إلى أهل اليمن منهم إلى اليهود الآخرين ، وكذلك يهود أسبانيا وشمال أفريقيا واليهود الألمان . والمعروف أن شعبًا يهوديًّا عاش فى الحوض الشمالى لنهر الرين قبل ميلاد المسيح بقرنين أو ثلاثة[3] ، ومنه تفرعت مجموعات أخرى فى بولندا وفى روسيا الغربية ويعرف يهود هذه السلالة بالأشكنازم ويتكلمون اليدش

---

(١) الملوك الأول ١٠ : ١ - ٩ .

(٢) سورة النمل : آية ٤٣ - ٤٤ .

(٣) دكتور محمد عوض محمد : المسألة الصهيونية فى نظر العلم ص ١٥ .

لهجة أبناء الإقليم الشمالى الغربى من ألمانيا ، ويكتبها اليهود بالحروف العبرية وتختلف بعض الاختلاف عن اللهجة الألمانية الحديثة .

ودلالة هذا كله أن اليهودية لا تعنى شعبًا أو سلالةً بل تعنى دينًا كغيره من الأديان المختلفة التى طوت عقائدها كثيرًا من الأجناس والسلالات والعناصر .

ويزعم اليهود أن دينهم قاصر عليهم وحدهم لم يبشروا به ولم يحاولوا نشره بين الشعوب الأخرى ، وهو زعم ينفيه هذا الانتشار الواسع للديانة اليهودية بين شعوب مختلفة وفى بقاع شتى . ولكن اليهود بهذا الزعم يحاولون عبثًا إثبات أن اليهود يمثّلون سلالةً نقيةً تنتمى إلى إسرائيل أب الأسباط ، صان نقاءها أنهم كما يقولون لم يصهروا إلى غيرهم ولم يصهر غيرهم إليهم ، ولم تكن لهم علاقات جنسية مع غيرهم من الشعوب الأخرى ، وكلنا يعلم ما تعرض له بنو إسرائيل من حروب كان التسرى واستباحة الحرمات بعض معالمها ، بل مازلنا نرى إلى اليوم أن الجيوش الغريبة تترك ما يدل عليها من سمات جنسية فى الشعوب التى تقيم بينها سواء بالزواج الشرعى أو غيره ، ولقد تركت القوّات الزنجية التى حاربت فى أوربا إلى جانب الحلفاء فى الحربين الأخيرتين ما ينم عنها فى كثير من أطفال السفاح . بل إن الأعداد الغفيرة التى بيعت من اليهود فى أسواق الرقيق فى العهدين اليونانى والرومانى قد اختلطت دون شك بسادتها ومستعبديها . وفى أسفار العهد القديم ما يشير إلى تحلل اليهود من فريضة تحريم الزواج من غيرهم فقد تزوج سليمان من مصرية كما تزوج بعدد كثير من النساء الغريبات وتزوّج موسى من صفورة ابنة يثرون كاهن مدين ويوسف من مصرية هى اسنات ابنة كاهن أون وأنجب منها ولديه منسى وأفرايم وعلى غرارهم كان كثير من بنى إسرائيل يتزوّجون من غريبات ولا ريب أن كثيرات من الإسرائيليات قد سلكن مسلك رجالهن

فتزوجن من أغراب ، وحين عاهد عزرا اليهود على ألا يتزوجوا من غريبات خرج كثيرون على العهد وكان من بينهم حفيد الكاهن الأكبر الذى تزوّج من سامرية . فالزواج المختلط كان شائعًا فى بنى إسرائيل وظلّ شائعًا بين اليهود طوال تاريخهم مما ينفى عنهم نقاء السلالة ويثبت خرافة الشعب المختار ، الموعود بالحكم والسيادة على العالم والعودة إلى أورشليم .

ويرى « ربلى »[1] فى كتابه « أجناس أوربا » أن اليهود فى أوربا قد امتصّوا كثيرًا من الدماء المسيحية عن طريق كثير من الصلات الجنسية غير المشروعة فقد كانت القوانين فى العصور الوسطى تمنع وجود أنثى مسيحية فى بيت يهودى للخدمة أو لغيرها من الشئون حتى لا يقع اتصال جنسى بين المسيحيات واليهود مادامت الكنيسة تحرم الزواج بينهما ، ولكن القانون لم يحل إطلاقًا بين وقوع المعاشرة بين اليهود والمسيحيات أو بين المسيحيين واليهوديات مما أدّى إلى امتزاج الدماء ، ثم أن القانون كان لحماية الحرائر ، ولم يكن للإماء من قانون يحميهن . وينتهى ربلى إلى القول بأن تسعة أعشار يهود العالم لا يمتون إلى اليهود الأوّلين بأىّ شبه ، وأن القول بنقاء الدماء اليهودية حديث خرافة ، ويستشهد ربلى بقول « رينان » من أن اليهودية لا تعنى جنسًا معيّنًا وليس لها دلالة انثربولوجية لا فى أوربا ولا فى حوض الدانوب على الأقل ، ويشير كذلك إلى ما قاله « لمبروزو » من أن اليهود أدنى إلى الجنس الآرى منهم إلى الجنس السامى فى الوقت الحاضر .

فاليهودية دين وليست جنسًا ، اعتنقها على مرّ العصور أشتات من البشر يتباينون فى اللون والسحنة والملامح وينتمون إلى أجناس مختلفة

---

(١) W.Z. Ripley : Races of Europe P. 392.

وشعوب عديدة ، ومن عبث القول أن يصدق عليهم نقاء السلالة وسلامة العنصر .

ولقد قرّت هذه الخرافة ، خرافة الشعب المختار والسلالة النقيّة والانتهاء إلى أسباط إسرائيل فى أذهان كثير من اليهود المؤمنين فسيروا بعوثهم فى العصور الوسطى وجاب رحّالتهم بقاع الأرض بحثًا عن الأسباط العشرة المفقودة ، وهى القبائل التى كانت تعمر مملكة إسرائيل قبل أن يبدّدها سرجون الثانى ملك أشور ، وظنّ بعض هؤلاء الرحالة أن يهود الفلاشا فى الحبشة هم أحد هذه القبائل المفقودة .

إلا أن عالما من علماء اليهود هو « فردريك هرس »[1] فى كتابه « الجنس والحضارة » يرى أنه من العبث التفريق بين اليهود والجنس الآرى ، فإن القرابة بين الاثنين لا تحتمل الشك ، فعلى مرّ العصور امتصّ اليهود كثيرًا من الدماء الغريبة واعتنق اليهودية كثير من الأجانب يونان ورومان فى القرنين الأوّل والثانى قبل الميلاد وغيرهما من السلاف والألمان فى العصور الوسطى بالرغم من كل العقبات التى كانت تحول دون ذلك فاليهود السلاف واليهود الألمان لا يمّتون إلى يهود فلسطين بصلة أو شبه .

فمن العبث الادعاء بأن عبريّى الأمس هم يهود اليوم ، فإذا سلمنا جدلاً بأن الوعد الإلٰهى لذرية إبراهيم بوراثة أرض الميعاد قائم كما يقول اليهود ، فإن اليهود من ذرية إبراهيم لم يعد لهم وجود بعد أن تمثلتهم شعوب عديدة وهضمتهم بيئات مختلفة وسرت إلى دمائهم دماء غريبة تفوق ما يحملون من دماء أجدادهم إن كان ثمة دماء باقية فى عروقهم من دماء العبريين القدامى .

ومن العبث ادعاء وطن بحكم الإرث لسلالة لم يعد لها وجود إلا إذا

Friedrich Herz : Race and Civilisation : P. 313. (١)

سلّمنا بأن الإرث للعنصر والسلالة وليس للبركة والرسالة فإذا كان الإرث للبركة بركة إبراهيم فقد حلّت بركة إبراهيم فى كلّ من حمل رسالته من الأنبياء وآخرهم عيسى ومحمد ، وإذا كان الإرث للرسالة فقد آمن برسالة إبراهيم كلّ مسيحى وكل مسلم مما ينتفى معه كل حقٍّ لليهود من غير أبناء فلسطين فى ادعاء فلسطين وطنًا ، وحقّ يهود فلسطين فيها هو حق قائم على التوطن والانتماء إلى البلاد شأنهم فى ذلك شأن من يقيم فيها من المسيحيين والمسلمين . وقد عاش يهود فلسطين إلى جوار العرب من المسيحيين والمسلمين عيشة أمن وسلام طوال تاريخهم لم يرع فلسطين خلال هذا التاريخ ما يروعها اليوم على يد الصهيونية الغاشمة .

فهرس

صفحة

رقم الإيداع	١٩٨٥ / ٤٢٧٠
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٠٢-١٣٩٣-٤

١ / ٨٣ / ١٣١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتـــاب

يتمثل الكفاح ضد الصهيونية فى ميادين متعددة ، منها ما هو فكرى يتخذ العلم وسيلة لغاية ، ومنها ما هو دعائى يسلك كل سبل الدعاية والإعلام ، ومنها ما هو نفسى يعتمد على الاستهواء واستثارة العواطف .

وهذا الكتاب يدخل فى إطار الكفاح الفكرى ، حيث يعرض بالدراسة والتحليل والرأى للجانب الدينى الذى يمثل أخطر جوانب الحركة الصهيونية فيما تدعيه من حقوق دينية زائفة .

وعلى ضوء البحث والموضوعية يناقش الكاتب دعوى اسرائيل الباطلة فى التميز والإيثار فى الماضى والحاضر . والفرق بين يهود اليوم وعبريى الأمس ، وهل هناك وعد بالأرض أم أن الوعد للبركة والرسالة كما تؤكد المسيحية ويؤكد الإسلام .

ويعتبر هذا الكتاب تأكيدًا جديدًا على زيف العقيدة الصهيونية فى دعواها بأرض الميعاد ..

ص
٢٠٠